

دكتور محمود محمد الحويدي

اللوحات الحجرية

في

التاريخ والحضارة

٥٦٨ - ٧٧٤ م



دار المعارف



0029722

Bibliotheca Alexandrina

اللومبارديون

DL

في
التاريخ والحضارة

٥٦٨-٧٧٤م

تأليف

دكتور محمود محمد الحويرى

استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
بكلية الآداب بسوهاج - جامعة أسيوط



General Organization of the Alexan-
dria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الطبعة الاولى

١٩٨٦



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة — ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

رأيت بعد أن صدر كتابي « رؤية في سقوط الامبراطورية الرومانية » أن أتبعه بآخر يتناول أساسا أحد الشعوب الجرمانية المتبربرة التي غزت الامبراطورية الرومانية وأسست ممالك لها ، خاصة أن من كان لهم سبق الريادة في الاشتغال بتاريخ أوروبا العصور الوسطى ، وقدموا للمكتبة العربية فيضا من مؤلفات وترجمات ضافية في إبداع وأصالة وسعة أفق ، لم يقدموا دراسة مستقلة عن شعب جرمانى ما ، باستثناء الأستاذ الدكتور ابراهيم طرخان ، الذى وضع كتابه القيم « القوط الغربيون » . وأخيرا وجدت لها فرصة مواتية لأقدم جهد أنقل دراسة شاملة عن اللومباردين فى إيطاليا تعالج تاريخ مملكتهم وحضارتها . ومما حدا بى الى اختيار هذا الموضوع أن اللومباردين على عكس الشعوب الجرمانية الأخرى ، كانوا آخر شعب جرمانى يشق طريقه الى إيطاليا غازيا فاتحها سنة ٥٦٨م ، قادما من « جرمانيا » عالم البرابرة الواسع ، حاملا معه تقاليده وعاداته نقية من الحضارة الرومانية ، حيث قدر له أن يلعب دورا رئيسيا فى أحداث هذا القطر على مدى قرنين من الزمان ونيف . كذلك لم يحظ هذا الموضوع إلا بفصل فى الكتاب القيم المعروف الذى وضعه الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، وهو « أوروبا العصور الوسطى » الذى طبع عدة مرات ، ولا زال يلاقى قبولا واسعا فى جامعات العالم العربى ، وفيما عدا ذلك ، فليس هناك غير صفحات أو جزء من فصل تتناول هذا الموضوع من زاوية معينة .

وبداية أود القول أنه كان بوسع الامبراطورية الرومانية أن تحافظ على وحدتها وتماسك بنائها خلال الفترات التى تعرضت فيها لغزوات

الشعوب الجرمانية في القرنين الثالث والرابع للميلاد ، ولكن أحوالها السيئة وأباطرتها الضعاف حالوا دون حماية حدودها • وقد حاولت الإمبراطورية في الغرب الأوربي إبان القرنين الأخيرين من حياتها أن تزد عنها غائلة الجرمان ، ولكن محاولتها باءت بالفشل ، حتى إذا أقبل عام ٤٧٦ كانت أعجز من إنقاذ نفسها من الانهيار • ففى هذا العام دهمها طوفان من الجرمان والبرابرة ، جعلها تسقط فريسة سهلة في أيديهم • على أنه رغم سقوطها العاثر ، وضياح وجودها السياسى القديم ، فإن فكرة تلك الإمبراطورية ظلت عالقة في أذهان الأوربيين طوال العصور الوسطى • بدليل أن الأباطرة الشرقيين اعتبروا أنفسهم امتدادا للباطرة الرومان السابقين وورثتهم ، وما حدث في رأيهم سنة ٤٧٦ أنه لم يعد ثمة سوى إمبراطور واحد للإمبراطورية يحكم في الجزء الشرقى منها • والحق أن الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد انهيارها لم تعدم بعض الأباطرة البيزنطيين العظام ، الذين عقدوا نيّتهم على ضرورة إحيائها ، وإعادةتها الى سابق مجدها قوية موحدة • وكان من أبرزهم جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ، الذى تمكن بفتوحاته الكبيرة من القضاء على مملكة الوندال في شمال أفريقية ، واجتث جذور القوط الشرقيين من إيطاليا ، كما اقتطع الجزء الجنوبي الشرقى من مملكة القوط الغربيين في أسبانيا • بيد أن الجهود التى بذلها العاهل البيزنطى لإحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة ، مع كل عظمتها وصدق دوافعها ، لم تحقق الهدف المرجو منها ، إذ بعد موته بثلاث سنولت ، إجتاح اللومبارديون إيطاليا ، وسلبوا اجزاء عديدة من أرضها • إذ انثالوا عليها من وراء الألب في صورة كتلة متراسة ، في وقت كانت تنن تحت وطأة المشقاء والويلات التى خلفتها حروب جستنيان • وما أن انقضى زمن وجيز حتى استطاعوا الاستيلاء على شمال إيطاليا والأجزاء الداخلية التابعة لبيزنطة ، حيث أسسوا مملكة عاشت بين سنتى ٥٦٨ و ٧٧٤ ، تغيرت خلالها أحوال إيطاليا تغييرا جذريا • وبعبارة أخرى ، دخلت إيطاليا مرحلة جديدة من تاريخها ، من أبرز خصائصها ذلك النزاع الذى احتدم بين هذه المملكة والقوى السياسية وهى : الإمبراطورية البيزنطية ، والبابوية ، ومملكة الفرنجة في الغال

(فرنسا) • ولعل القارىء الكريم المشتغل بتاريخ أوروبا العصور الوسطى ، يستطيع أن يلمس أن أوضاع مملكة اللومباردين التى ظهرت على صفحات هذا الكتاب ، لتتسبب تاريخها وتشابك أحداثها ، وإن كانت مقصودة لذاتها ، إلا أنها كانت أيضا محورا لدراسة القوى السياسية السالفة الذكر ، التى غيرت مجرى تاريخ هذه المملكة •

وأيا كان الأمر ، فقد رأيت أن أقسم الكتاب الى خمسة فصول ، الفصل الأول ، وعنوانه « اللومبارديون قبل غزوهم إيطاليا » تحدثت فيه عن الفترة المبكرة من تاريخهم التى عرفوا خلالها بالعنف والضرارة ، والميل الى خوض الحروب ، وتتبع هجراتهم وتحركاتهم الى أن صاروا فى منطقة الدانوب الأوسط بجوار بانونيا فى حوالى سنة ١٦٥م • ومما يذكر أن المصادر التاريخية الرومانية والإغريقية تتقف منذئذ صامته حيال أحداثهم لفترة تزيد عن ثلاثة قرون (١٦٦ — ٥٠٨) • وقد تناولت فى هذا الفصل أيضا الحروب التى دارت بينهم وبين القبائل الجرمانية الأخرى ، وعلى وجه الخصوص الهيرولى والجييداي ، حيث أسقطوا الأولى من قائمة الشعوب الجرمانية المستقلة ، مما ترتب عليه علو شأنهم من ناحية ، ولفتوا أنظار الامبراطورية كقوة يحسب لها حساب خطير من ناحية أخرى ، أما بالنسبة للجييداي ، فقد أنزلوا بهم كارثة ، لم تقم لهم بعدها قائمة •

أما الفصل الثانى ، وعنوانه « اللومبارديون فى إيطاليا » فقد ضمنته أحداث الغزو اللومباردى لإيطاليا ، وما صاحبه من تساقط مدنها الشمالية الواحدة بعد الأخرى دون مقاومة تذكر من الأهالى أو الحاميات البيزنطية • ولا شك أن الحروب التى جرت على أرض إيطاليا فى السنوات الأخيرة من عهد جستنيان ، والتى عادت بأوخم العواقب عليها وعلى سكانها الآمنين ، قد منحت ألبوين — فاتح إيطاليا — ميزة جعلته يحقق هدفه بسهولة ، ونعنى بذلك قيام مملكة اللومبارديين فى إيطاليا • وفى هذا الفصل أيضا تحدثت عن فترة انقطاع الملكية المعروفة فى تاريخ اللومبارديين بفترة الشغور (٥٧٤ — ٥٨٤) ، وما تخللها

من تفاقم حدة الخلاف والمنازعات والفوضى داخل صفوف دوقاتهم ، وهى ظاهرة خطيرة لا نجد لها نظيرا فى بقية الممالك الجرمانية الأخرى • على أنهم فى نهاية تلك الفترة أدركوا أن أنقسامهم على أنفسهم فى غياب السلطة المركزية ، وما جره ذلك من تحالف بين الامبراطورية البيزنطية ومملكة الفرنجة جاء نذيرا بضياع كيانهم ، كل ذلك جعلهم يفيئون الى رشدهم ، ويجمعون كلمتهم على عودة الملكية وتدعيمها •

ويعرض الكتاب فى الفصل الثالث منه ، وهو بعنوان « صراع القوى السياسية فى إيطاليا فى القرن السابع » لنهوض البابوية ، وظهورها فى صورة قوة سياسة لعبت دورا رئيسيا فى أحداث إيطاليا فى هذا القرن • ذلك أن الامبراطورية البيزنطية وريثة الحق الشرعى فى إيطاليا لم تتراجع عن موقفها العدائى من اللومبارديين ، وبمعنى آخر لم يمك أباطرة بيزنطة أيديهم عن إيطاليا ، ولكن عجزهم الواضح عن رد اللومبارديين من ناحية ، وفشلهم فى حماية الكرسى البابوى من ناحية أخرى ، جعل البابوية لا تأخذ موقف المتفرج السلبي ، إذ نهضت بأعبائها ، ومارست سلطتها العلمانية على روما وضواحيها • وتأسيسا على ذلك أخذ نفوذ البابوية فى الازدياد ، وخاصة على عهد جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) الذى تأهب للدفاع عن روما ضد اللومبارديين • وفى هذا الصدد مكنته موارده المالية الضخمة ونفوذه القوى ، من تحمل مسؤولية الحفاظ على مدينته وتأمينها • وحرصا على مصالحه بذل جهده لإبرم اتفاقية سلام بين اللومبارديين والبيزنطيين فى سنة ٥٩٩ ، جاءت بمثابة اعتراف صريح بالوجود اللومباردى فى إيطاليا ، رغم حقيقته المؤكدة • وفى هذا الفصل أيضا استعرضت أعمال الملوك اللومبارديين فى الربع الأخير من القرن السابع ، فضلا عن الوضع السياسى الذى بقيت عليه إيطاليا مقطعة الأوصال ، وموزعة بين ثلاث قوى ، اللومبارديون ، وبيزنطة ، والبابوية •

أما الفصل الرابع ، وعنوانه « اللومبارديون فى إيطاليا فى القرن الثامن » ، فقد تحدثت فيه عن أهم أعمال ليوتبراند أعظم ملوكهم

قاطبة ، وكيف استغل النزاع الدائر بين البابوية والامبراطورية البيزنطية حول النزاع اللاأيقوني لصالحه ، فعول على بسط نفوذه على إيطاليا كلها ، ولكن البابوية فوتت عليه غرضه • إذ في سبيل المحافظة على بقائها وتأمين مصالحها ، استعانت بقوة سياسية من خارج شبه الجزيرة الإيطالية ، وهى مملكة الفرنجة • والواقع أن سياسة هذه المملكة في بداية الأمر كانت تقضى بالامتناع عن التدخل في شئون إيطاليا ، الى أن تمكنت البابوية من اجتذابها إلى جانبها ضد اللومبارديين ، الأمر الذى نعتبره أول سابقة خطيرة من نوعها في تاريخ إيطاليا العصور الوسطى ، أحدثت انقلابا في ميزان القوى السياسية لصالح البابوية ، في الوقت الذى كانت بداية النهاية لمملكة اللومبارديين • وأخيرا لم تستطع هذه المملكة أن ترد عنها قدرها العاثر ، فسقطت على أيدي شارلمان عاهل الفرنجة سنة ٧٧٤ • ويعتبر سقوطها أمرا حاسما في تاريخ إيطاليا ، حطم القاعدة الصلبة التى كان بإمكان الوحدة الإيطالية أن ترتفع عليها ، واستحال تحقيقها حتى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر

أما الفصل الخامس والأخير ، وهو بعنوان « حضارة اللومبارديين » ، فيبحث في أوضاع اللومبارديين الحضارية المتمثلة في تنظيمهم السياسى ، وديانتهم ، وجيشهم ، ورومنتهم ، ورعاياهم الرومان ، ومجتمعهم ، وحياتهم الفكرية ، وفنهم ، وعمارتهم • وفى هذا الفصل أيضا ألقى الضوء على أحوالهم فى القرن السابع ، إذ توقفوا عن كونهم برايرة أجلاف بسبب تأثرهم بالحضارة الرومانية ، ويتضح ذلك فى تحولهم الى المذهب الكاثوليكي ، واستخدام اللاتينية لغة رسمية ، وصياغة قوانينهم ذات الطابع الجرمانى المحض •

وفى الختام ، هذا هو ما حاولت القيام به على قدر طاقتى المحدودة ، والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه •

محمود محمد الحويرى

القاهرة فى ٢٠/٢/١٣٨٦ هـ •

٣ / ١١ / ١٩٨٥ م •

الفصل الأول

اللومبارديون قبل غزوهم إيطاليا

— الفترة المبكرة من تاريخ اللومبارديين *

— حرب اللومبارديين ضد الهيرولى *

— حرب اللومبارديين ضد الجبيدائى *

إصطدم معظم الباحثين الذين تناولوا فجر تاريخ اللومبارديين خاصة خلال الحقبة السابقة لميلاد المسيح عليه السلام ، بفجوة واسعة من الغموض * وقد اختلفت المصادر التاريخية فيما يتصل بوصفهم الإثنولوجي ، فيشير البعض منها الى أنهم ينتمون الى مجموعة الشعوب الجرمانية الغربية ، في حين يرى البعض الآخر أنهم ينتمون الى مجموعة الشعوب الجرمانية الشمالية ، وإن كان من المحتمل — الى حد كبير — أنهم كانوا يؤلفن احدى قبائل المجموعة الأخيرة ، التي عاشت في أحد مواضع الساحل الجنوبي لشبه جزيرة اسكندنياوة ، حيث نزحت منه حوالى القرن الأول أو الثانى قبل الميلاد ، الى الإقليم الواقع على الضفة اليسرى لنهر الإلب ، بالقرب من مصبه ، ثم تحركت منه الى هو لشتين Holstein أو مكلنبورج Mecklenburg على الضفة اليمنى من مصب هذا النهر ، قبل أن تغادره نهائيا الى منطقة وسط الدانوب (١) *

ورغم ندرة المعلومات التى وصلتنا عن اللومبارديين ابتداء من القرن الأول الميلادى ، إلا أنها كانت واضحة ومحددة * إذ عاد أسهمهم الى الظهور فى مؤلفات مؤرخى الامبراطورية الرومانية خلال فترات متفرقة من هذا القرن * ولكن مما يدعو الى الدهشة أن أحداثهم منذ حوالى سنة ١٦٧ حتى زمن الإمبراطور أنسطاسيوس (٤٩١ — ٥١٨) ، وهى فترة طويلة تزيد على ثلاثة قرون ، قد انقطعت تماما فى كتب المؤرخين الرومان والإغريق *

ويعتبر سترابو (كتب حوالى سنة ٢٠م) ، وتاكيثوس (حوالى ٥٤ أو ٥٥ — ١١٧) ، وبطليموس (حوالى ١٠٠ — ١١٦) المصادر الرئيسية التى تناولت اللانجوباردى Langobardi وهو الشكل الباكر لاسم اللومبارديين ، قد سكنوا بالقرب من مصب نهر الإلب ، حيث ربطتهم علاقات وثيقة بالهيرموندورى Hermunduri والسيمنونى Semnones ، وهما قبيلتان عظيمتان من أصل سويفى ، استقرتا

(1) Dudden, Gregory the Great, I, pp. 80 - 81.

على الضفتين الشرقية والغربية من أعلى هذا النهر * وثمة اختلاف طفيف بين سترابو وبطليموس حول المنطقة التي شغلها اللومبارديون على ضفاف هذا النهر ، فقد جعلها سترابو بعيدا عنها ، ويتصد بذلك هولشتين ومكلنبورج ، في حين حددها بطليموس في الجزء الشرقي من مقاطعة هانوفر ، في الرقعة الممتدة من لونيبيرج الى سا'زويدل * ويبدو أن ما ذكره المؤرخان صحيحا ، إذا وضعنا في الاعتبار أن كلا منهما قد صنف تاريخه في زمن يبعد عن الآخر ، خاصة أن سترابو أضاف بقوله إن سكان هذا الجزء من جرمانيا يغلب عليهم الميل الى تغيير مواطنهم ، بسبب حياتهم التي فرضت عليهم الترحال من مكان الى آخر ، سعيا وراء العشب والكأ لمواشيهم وأغنامهم (١) .

وتجدر الإشارة هنا الى أن قبيلتي الهيرموندورى والسيمونوني لم يقدر لهما البقاء طويلا ، إذ اختلفتا من خريطة أوروبا دون أن يخلفا أثرا ، في حين بقيت قبيلة الأنجلي Angli ، وهي إحدى القبائل السبعة التي جاورت اللومبارديين - الى الجنوب منهم - في جرمانيا ، وأُشتركت جميعا في عبادة الإلهة نيرثا Nertha (الأم الأرضية) ، ومن المحتمل أن اللومبارديين شاركوا هذه القبائل في عبادتهم (٢) .

وقد عرف اللومبارديون إبان الفترة الباكرة من تاريخهم بالعنف والوحشية والمضايقة ، والميل الى خوض الحروب * وأبلغ دليل على ذلك ما ذكره المؤرخ باتروكولوس (٣) ، الذي كان معاصرا للقائد الروماني

(1) Hodgkin, Italy and her Invaders, V, pp. 81-82.

(2) Hadgkin, V, pp. 82-83.

(٣) جايوس فيليوس باتروكولوس Gaius Velleius Paternulus (حوالى ١٩ ق.م - بعد سنة ٣١ م) . وهو مؤرخ روماني ولد في أسرة عريقة ، واختار الحياة العسكرية ، وخدم بضع سنوات تحت قيادة تيبيريوس في جرمانيا وإبليركيوم ، ورقى الى رتبة فارس سنة ٧ م وبراياتور سنة ١٥ . وقد كتب تاريخا عن روما منذ أقدم العصور حتى سنة ٣٠٠ . وتبدو أهمية

تيريوس ومادحه في ذات الوقت • فمن خلال حديثه عن مآثر بطله في
جرمانيا حوالى عام ٦ م قال : « إن الشعوب الجرمانية التى كنا نجهل
أسماءها من قبل قد أذاقها طعم الهزيمة ، فاللانجوباردى (اللومبارديون)
وهم عنصر يفوق القبائل الجرمانية وحشية تحطم بين يديه ، وسيطرت
الفرق الرومانية على المنطقة الممتدة من الراين الى الإلب (١) • وكان
تيريوس قد تولى قيادة الفرق الرومانية في جبهة الراين ، وسط
موجات الفرع التى أبداه جنود هذه الفرق لثقتهم الزائدة في مقدرته •
وفعلا أثبت تيريوس حسن ظن جنده به ، ففي الحملة الأولى التى قام
بها سنة ٤م ، تقدم إلى ما وراء فيسورجيس ، وقهر قبائل الشيروسكى
Cherusci الخارجة عن طاعة الرومان آنذاك ، وكانت المرة الأولى
التي قضى فيها الجيش الرومانى فصل الشتاء وراء الراين في قلعة
أليسو الواقعة على نهو لوبيا • وفي العام التالى (٥ م) وصل تيريوس
الى منطقة الإلب الأدنى ، وقمع ثورة قامت بها قبائل الشساوكى
Chauci ، وهناك سمع الرومان لأول مرة عن اللومباردين (٢) •

على أن هناك خاصية انفرد اللومبارديون بها آنذاك وارتبطت
بهم طوال تاريخهم ، تتمثل في قلة قوتهم العددية بالمقارنة مع نظرائهم
من الشعوب الجرمانية ، ولكن هذا الأمر لم يقلل من شأنهم • وفي
هذا الصدد أشار المؤرخ تاكيتوس في كتابه « جرمانيا » قائلا :

ما كتبه في الصورة الحية التى رسمها لبعض الشخصيات الرومانية العظيمة .
كما يحتوى تاريخه على معلومات مباشرة عن الحروب التى دارت في جرمانيا
والبلقان . انظر :

Classical, Byzantine, Oriental & African Literature. (Ed. by Dudley &
Lang). pp. 17-172.

(1) Hodgkin, op. cit., V, p. 85; Dudden, op. cit., I, p. 82; Villari :
The Barbarian Invasions of Italy, II, p. 274.

(2) Bury : A Hist. of the Roman Empire from its Foundation to the
Death of Marcus Aurelius, p. 131.

« يتباهى اللانجو باردى بأعدادهم القليلة ، ورغم أن شعوباً عديدة قوية تحيط بهم ، فقد أمكنهم البقاء بينها دون أن يقعوا تحت نفوذها ، وذلك بفضل قوتهم وشجاعتهم ، والحروب التي دأبوا على إشعالها دوماً ، مما جعلهم ينعمون بالأمن والطمأنينة » (١) • كما أشار إلى الدور الذي لعبوه خلال الحرب التي دارت بين قبائل الشيروسكى بزعامة أرمينيوس وقبائل الماركوماني بزعامة ماروبودس في سنة ١٧م • وكانت شهرة هذين الزعميين قد بلغت حداً جعلتهما أعظم أسمين جرمانين عرفهما القرن الأول الميلادي • ذلك أن أرمينيوس استطاع الصمود أمام هجمات الجيش الرومانية ، وتوج جهوده بسحق ثلاث فرق عسكرية رومانية في غابات تيوتوبرج في بوهيميا ، دأبت على تقديم العون لأعداء الامبراطورية ، وصارت مبعث خطر يتهدها في السنوات الأخيرة من حكم الإمبراطور أوغسطس (١٤ ق • م - ٢٧ م) (٢) • على أن الموقف لم يلبث أن تبدل في صالح الإمبراطورية الرومانية ، إذ وقعت العداوة بين الزعيمين البربريين ، وتهيأ كل منهما لرفع السلاح في وجه الآخر ، وفي الحرب التي اندلعت بينهما ، وهزم فيها ماروبودس هزيمة ساحقة ، وقف اللومبارديون والسيمنوني إلى جانب حليفهما أرمينيوس زعيم الشيروسكى • والجدير بالذكر أن اللومبارديين لعبوا دوراً فعالاً في هذه الحرب إلى جانب حلفائهم ، الذين ظلوا أوفياء لهم ، بدليل أنه بعد مضي ثلاثين سنة على التحالف القائم بينهما ، قامت ثورة ضد إيتاليكوس *Italicus* ابن أخت أرمينيوس ، جعلته يلجأ إلى اللومبارديين مستنجداً بهم ، فبادروا بمساعدته وأعادوه إلى عرشه (٣) • وبهذه الأحداث القليلة التي ساهم اللومبارديون فيها خلال إقامتهم في منطقة في مصب نهر الإلب ، لا تكشف لنا المصادر المعاصرة عن المزيد • ذلك أن ما وصل إلينا عن تحركاتهم منذ ذلك

(1) Hodgkin, op. cit., V, pp. 85-86; Dudden, op. cit., I, p. 82.

(2) Hodgkin, V, p. 86.

(3) Bury, op. cit., pp. 175-176.

الوقت فصاعدا جاء ضئيلا الى حد كبير^(١) . ولكن على الرغم من كل ذلك ، فاننا نستدل من كتابات تاكيتوس وبطليموس ، على أن اللومبارديين ظلوا يشغلون نفس مواطنهم الواقعة عند مصب نهر الإلب زمن الإمبراطورين نيرفا (٩٦ - ٩٨) وأنطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١) (٢) .

ولما كان اللومبارديون بطيئتهم أصحاب تنقل وترحال ، شأنهم في ذلك شأن الشعوب الجرمانية الأخرى ، فقد تحركوا جنوبا مرة أخرى الى منطقة الدانوب الأوسط ، ضمن موجة تحركات القبائل الجرمانية التي أثارها حرب الماركوماني (١٦٧ - ١٧٤) زمن الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) ، وفي هذه الهجرة صحتهم جيرانهم قبائل الأوبي Obii (٣) . وهنا نلاحظ أن ستة آلاف منهم - ومعهم الأوبي - قاموا بعبور نهر الدانوب الى بانونيا على عهد هذا الإمبراطور ، ولكن القائد الروماني فيندكس Vindex أذاقهم هزيمة ساحقة ارتدوا على أعقابها عن بانونيا ، ثم أنفذوا سفارة الى إيليوس باسوس حاكم هذا الإقليم ، نجحت في عقد اتفاقية سلام وحسن جوار معه . ولا شك أن وجود اللومبارديين في منطقة الدانوب الأوسط بجوار بانونيا في حوالي سنة ٢٦٥ م ، يعني أنهم صاروا على مقربة من الأقاليم المتاخمة للإمبراطورية الرومانية (٤) .

ومما يسترعى الانتباه أن المصادر التاريخية الرومانية والإغريقية تقف منذ ذلك التاريخ صامتة إزاء أحداث اللومبارديين لفترة تربو عن ثلاثمائة سنة (١٦٦ - ٥٠٨) ، وهي فترة معتمدة من تاريخهم تعرقل أية محاولة تستهدف تتبع تجوالهم الغامض وسط جموع البربر الصاخبة . وليس بإمكان الباحث سد فراغ هذه الفترة الطويلة واستجلاء أحداثها إلا من كتاب « تاريخ اللومبارديين »

Historia Langobardorum

(1) Dudden, I, p. 82.

(2) Hodgkin, I, pp. 87-88.

(3) Hodgkin, op. cit., V, pp. 87-88.

(4) Ibid, V, pp. 88-89.

الذى وضعه بولس الشماس عن قومه ، وتنال فيه عاداتهم وتقاليدهم وأساطيرهم المعروفة بالساجة Saga ، وهى قصص زائفة بأعمال البطولة والمآثر والملاحم ، لا تمكن الباحث من التقاط أية معلومات تاريخية صادقة عنهم إلا بصعوبة بالغة .

وتروى الساجة أنه فى الأرض الشمالية التى تعتبر أم الشعوب (مستودع البشرية) ثمة جزيرة ضخمة - وهى جزيرة اسكنديناوه - كان يسكنها منذ زمن بعيد شعب الونيلي Winili ، الذى عرف فيما بعد باللانجوباردى . وقد جاء وقت على هذا الشعب اكتشاف أن سبل الحياة قد ضاقت به ، وأضحى عاجزا عن القيام بأعبائه . ولهذا قرر قراره على أن يقسم نفسه الى ثلاث جماعات تجرى قرعة فيما بينها ، ويتحدد بموجبها رحيل احداها بحثا عن وطن يوفر لها معيشة أفضل ، فى حين تبقى الجماعتان الأخريان فى وطنهما . وكان أن خرج السهم على الحدى جماعات الونيلي الثلاثة ، فاخترت لقيادة مسيرتها وتولى أمورها أخوان شابان هما آيب-ور Ibor وآيو Aio ، لهما أم راجحة العقل ، دأبا على الرجوع إليها طلبا للنصيحة . وعلى أية حال ، قاد الأخوان جماعتهما الى إقليم يدعى سكورينجا Scoringa على الضفة اليسرى لمصب نهر الإلب - فى المنطقة الواقعة بين نهري الوزير والإلب الأدنى - حيث استقروا به بضع سنين (١) .

وفى هذا الإقليم ، قدر للونيلي أن يقفوا وجهها لوجه أمام جماعات الوندال الجرمانية ، التى نشرت الرعب والفرع بين شعوب المنطقة وأخضعتها لطاعتها ، لما عرف عنها من وحشية لا تستجيب لتوسل ولا يهزها رحمة . وكان من الطبيعى أن يسعى الوندال الى فرض سيطرتهم على الونيلي من أجل الحفاظ على هويتهم وسط القبائل الجرمانية ، فبعثوا إليهم

(1) Paul the Deacon, History of the Lombards, (tr. by W. D. Foulke. ed. by E. Peters), pp. 2-12; Dudden, V, pp. 89-91; Villari, II, p. 275.

برسالة عنيفة تخيرهم بين أحد أمرين ، إما أن يدينوا بالطاعة ويدفعوا لهم الجزية وهم صاغرون ، وإما أنه لا مفر من الدخول معهم في معركة يخرج منها الخاسر صفر اليدين (١) . ولا شك أن الونيلي رغم شجاعتهم المعهودة وجدوا أنفسهم فجأة أمام خطر داهم بات يهدد كيانهم ، بيد أنهم لم يفقدوا رباطة جأشهم . وفي الحال لجأ الأخوان آييور وآيو الى أمهما لاستشارتها فأشارت عليهما أن واجب قومها الزنيلي يحتم عليهما الدفاع عن حريتهم ومصيرهم بقوة السلاح ، وألا يجلبوا لأنفسهم عارا يندى له جبينهم ، وتبعية ذليلة ، إذا قبلوا دفع الجزية . وبفضل هذه النصيحة السديدة ، التهبت نفوس الونيلي حماسة وشجاعة ، وأرسلوا ردا قاطعا للوندال يقول : « سنحاربكم » (٢) .

ويستطرد بولس في روايته الأسطورية قائلاً إن الوندال والونيلي بعد أن عبأ جيوشهما وتهيأ للقتال ، حرص كل منهما على تأدية الصلاة طلباً للنصر ، فصلى الوندال للإله جودان Godan (Wotan) واستجدوه أن يمنحهم النصر من عندهم ، فأجابهم قائلاً : « سوف أمنح النصر للشعب الذي يقع بصرى عليه أولاً عند شروق الشمس » . أما الونيلي فقد صلوا للإلهة فريا Freya زوجة جودان ، التي منحتهم بركتها وتأييدها . ورغبة في مساعدتهم طلبت إليهم أن يوقفوا جميعاً أسفل نافذة زوجها في الصباح المبكر ومعهم زوجاتهم ، ونصحت الزوجات أن يطلقن شعرهن ويعقدنه حول وجوههن حتى يبدو في هيئة اللحي . فلما أشرقت شمس اليوم التالي أيقظت فريا زوجها ، وطلبت إليه أن يطل من نافذته ، وحين وقع بصره على شعب الونيلي ، وبدت له هيئة النساء كما أوصت زوجته بها ، سألها قائلاً : « من هؤلاء أصحاب اللحي الطويلة Langobardi ؟ » ، فردت عليه بقولها : « بما أنك أطلقت عليهم اسم اللانجوباردي ، فامنحهم

(1) Poul the Deacon, pp. 12-15.

(2) Paul., p. 15; Hodgkin, V, p. 91.

«النصر من عندك» ، فأجابها الى الى طلبها ، وبذلك تغلب الونيلي على الوندال في المعركة العنيفة التي دارت بينهما ، وصاروا منذئذ يعرفون باللانجوباردى (١) .

وبالرغم من أن هذه الأسطورة لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، بذليل أن راويها بولس الشماس قد علق على أحداثها بأنها مدعاة للسخرية والضحك ، لأن النصر الذي أحرزه اللومبارديون جاء بفضل العناية الإلهية ، إلا أن تغيير الاسم كان في رأيه حقيقة تاريخية ، وفي هذا الصدد يقول : « من المؤكد أن الونيلي أطلق عليهم اسم اللانجوباردى ، لطول لحاهم التي لم تمسها الموسيقى ، ذلك أن كلمة «lang» في لغتهم تعنى «long» أى طويل ، وكلمة «bart» تعنى «beard» أى لحية » (٢) . ويبدو أن بولس قد أخذ هذا الاشتقاق عن المؤرخ إيسيدور الإشبيلي (ت ٦٣٦) الذى يروى أن اللانجوباردى قد عرفوا بهذا الأسم ، بسبب أنهم كانوا يتركون لحاهم على سجيتهما ولا يحلقونها (٣) .

على أن بعض المؤرخين المحدثين فسروا لفظة اللانجوباردى تفسيراً مغايراً ، ومن بينهم شميت Schmidt الذى يرى أن الاسم اللومباردين الباكر كان «Bards» وهو مشتق من الكلمة الجرمانية القديمة «bart» أى فأس ، ثم أضيف إليها بعد ذلك كلمة «lang» ، وبذلك صار اسمهم «الرجال ذوى الفتوس الطويلة» * أما المؤرخ ليونارد شميتس Schmitz فيذكر أن الاسم جاء من Lang Bord أى «الرجال الذين يقطنون لانج بورد» ، وهى مروج الإلب الواسعة ، ومع

(1) Paul., pp. 16-17; Hodgkin, op. cit., V, pp. 91-93; Dudden, I, pp. 81-82.

(2) Paul., pp. 17-18; Dudden, op. cit., I, p. 82.

(3) Paul., p. 18 n. I.

أن ما وصل إليه المؤرخون المحدثون في هذا الصدد جدير بالاعتبار ، فالواقع أن ما ذهب إليه بولس الشماس يعتبر أقدم الاشتقاقات جميعا ، وأكثرها قبولا ، وأفضلها بوجه عام (١) . وما زال اسم اللانجوباردي مألوفاً لبولس والإمبراطور شارلمان (ت ٨١٤) ، حتى إذا أشرف القرن الثاني عشر على نهايته ، نلاحظ أن اسم لومبارديا Lombardia ، قد شاع استخدامه بوجه عام ، وصار علما على السهل الشمالي من إيطاليا حتى وقتنا الحاضر . هذا وقد تعودت الأذهان على اسم لومبارديا خلال الحروب التي خاضها فردريك بربروسا (١١٦٧ - ١١٨٣) ، وإن كان اللومبارديين ولسانهم الجرمانى قد ذابوا في شعب إيطاليا منذ زمن طويل (٢) .

وعلى أية حال ، وبعد أن أحرز اللومبارديون النصر على الوندال وقعوا تحت وطأة مجاعة قاسية كادت أن تفتك بهم ، مما اضطرهم الى التحرك من جديد ، فغادروا إقليم سكورينجا ، وساروا تجاه إقليم ماورينجا (٣) Mauringa ، ولكنهم عندما اقتربوا من هذا الإقليم اصطدموا بالأسبييتى Assipitti وهم من الشعوب الجرمانية التى تفوقهم كثرة . وقد بدأ الصدام برفض الأسبييتى السماح لهم باجتياز أراضيهم الواقعة فى طريق هدفهم . ويروى بولس الشماس أن اللومبارديين عمدوا الى استخدام الحيلة ، إذ أرادوا أن يبعثوا الوهم فى قلوب أعدائهم بوفرة عددهم ، فنصبوا مخيمات عسكرهم على مسافات متباعدة ، وأوقدوا نارا فى أماكن كثيرة متفرقة . وفعلا انطلقت الحيلة على الأسبييتى ، فعادوا عن فكرة الاشتباك معهم فى قتال ، وأنفذوا رسولا الى اللومبارديين

(1) Paul., p. 18; Hodgkin, op. cit., V, p. 174; Dudden, op. cit., I, p. 82.

(٢) شينى : تاريخ العالم الغربى ، ترجمة مجد الدين حفى ناصف ، مراجعة على أدهم ، ص ١٠٥ .

(٣) ماورينجا منطقة تقع بين نهري الالب والأودر ، والمحتمل انها هولشتين . (Paul., p. 19 n. 1.)

يعرض عليهم أن يكون اللقاء قاصرا على نزال فردى بين اثنين من محاربى الشعبين ، فإذا تغلب المحارب الأسىيتى على خصمه كبر اللومبارديون راجعين ، أما إذا حدث العكس أذن لهم بالمرور الى هدفهم المنشود . وكان من الطبيعى أن يوافق اللومبارديون على هذا العرض ، ولكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن المحارب الأسىيتى بطل قوى لا يشق له غبار ، فوقعوا فى حيرة ، وساورهم شك فى التغلب عليه . وفى هذا الموقف العصيب تقدم أحد عبيدهم ، وأبدى استعداداه لمصارعة خصمه ، شريطة أن ينال هو وأسرته حريتهم إن تمكن من الفوز ، فوعده الزعماء اللومبارديون والفرح يملأ قلوبهم بتحقيق أمنيته . وكان أن لقى المحارب الأسىيتى مصرعه على أيدي العبد ، وتلا ذلك أن اجتاز اللومبارديون أراضى الأسىيتى الى إقليم ماورينجا (١) .

على أن اللومبارديين غادروا إقليم ماورينجا ، دون أن يتوفر لدينا سبب لذلك ، اللهم إلا أنهم على شاكلة الشعوب الجرمانية ، التى لا تعرف بطبيعتها طعم الاستقرار . وما لبثوا أن بلغوا إقليم جولاندا (جوثلاند) ، حيث استطاعوا الاستيلاء على مناطق انتيب Anthaib (يسدو أنها بافاريا) ، وبانثيب Banthaib (يسدو أنها بوهميا) ، وبرجنديب Burgundaib الواقعة على الجانب الشرقى من نهر الإلب (٢) . وفى المنطقة الأخيرة توفى الزعيمان الأخوان آيبور و آيو اللذان قادا جماعتهما من اسكندنياوه كما رأينا ، واختار اللومبارديون أجيلموند Ageimund - ابن آيو - ملكا عليهم ، وهى أول من حمل هذا اللقب ، لأن من جاءوا قبله كانوا زعماء (دوقات) فحسب (٣) . ومن المحتمل أن اللومبارديين خلال تنقلاتهم أحسوا بحاجتهم الى تركيز السلطة فى أيدي شخصية قوية جديرة بقيادتهم ، فقادرة على تصريف شئونهم ، الأمر الذى جعلهم يخلعون على أجيلموند هذا اللقب .

(1) Paul., pp. 19 - 21; Hodgkin, op. cit., V, p. 93.

(2) Paul., pp. 21-23.

(3) Paul., pp. 24-26; Hodgkin, op. cit., V, p. 94.

ووفقا لما رواه بولس الشماس ، حدث أن امرأة لومباردية قاسية القلب ، كانت حاملا في شهرها الأخير ، وعندما دنت ساعة الولادة وجاءها المخاض ، أنجبت سبعة أطفال ، طوعها قلبها على التخلص منهم ، بإلقائهم الواحد بعد الآخر في بركة عميقة ، وتصادف مرور الملك أجيلموند وشاهد الأم وهي تنفذ جريمتها الشنعاء ، فترجل عن فرسه ، ولم يستطع أن ينقذ إلا طفلا واحدا ، عهد به إلى مربيه للاعتناء به ، ولما كان الطفل قد انتزع من البركة ، وهي التي يطلق عليها لاما Lama باللغة اللومباردية ، فقد سمي لاميسيو Lamissio (١) .

وعند بلوغه مرحلة الشباب ، أظهر شجاعة منقطعة النظير أكسبته شهرة واسعة وسط قومه . ثم كان أن قساد الملك أجيلموند قومه إلى مناطق جديدة ، فلما بلغ أحد الأنهار لعبوره ، اعترضته قبائل الأمازوني الجرمانية ، وهنا تكرر ما حدث من قبل مع الأسبتي ، إذ اتفق الشعبان على إقامة مبارزة فردية ، فاختر الأمازوني امرأة محاربة قوية ، في حين اختار اللومبارديون لا ميسيو ، الذي استطاع التغلب عليها وقتلها ، الأمر الذي ترتب عليه أن عبر قومه مجرى النهر ، ونزلوا بأرض اتخذوها مقرا مؤقتا ، وبينما هم ينعمون بالراحة والهدوء ، دهم البلغار معسكرهم بغتة أثناء نومهم ، حيث شلوا حركتهم ، وأمعنوا فيهم القتل ، وكان أجيلموند ممن سقطوا صرعى ، علاوة على أن ابنته وقعت في الأسر (٢) .

لم يلبث اللومبارديون أن استردوا قواهم عقب هذه الكارثة ، ونادوا بلا ميسيو ملكا عليهم . ومنذ اللحظة الأولى التي اعتلى فيها العرش ، صمم على الشار لمقتل سلفه ، فزحف على رأس قومه لقتال البلغار ، ولكن قومه من شدة تأثير الكارثة حاولوا النكوص على أعقابهم . وهنا أخذ لا ميسيو يذكرهم بالميتة الغادرة التي لقيها سلفه ، وما

(1) Paul., pp. 27-29; Hodgkin, V, pp. 95-96.

(2) Paul., pp. 26-27; Hodgkin, V, pp. 94-95.

ينتظرهم من عار مخز اذا تركوا دمه يضيع سدى • ولم يزل يحثهم على تخليص ابنة سلفه من ذل الأسر ، والدفاع عن حريتهم ، ووعد العبيد الذين سيحاربون بشجاعة بعثتهم ، ثم ضرب بنفسه مثلاً رائعا على التضحية بأن ألقى بنفسه وسط العدو صارخا في قومه أن يدافعوا عن أطفالهم ونسائهم • وعندئذ اقتدى اللومبارديون بمليكمهم ، واستماتوا في القتال ، حتى تم لهم النصر على البلغار ، وخرجوا من المعركة بحصيلة وافرة من الغنائم والأسلاب (١) •

ثم مات لا ميسيو ، وخلفه ليثو الذي دام حكمه حوالي أربعين سنة ، وأتى من بعده ابنه هلدويك ، ثم جوديوك الذي كان ترتيبيه الخامس في قائمة ملوك اللومبارد (٢) • وفي عهد الأخير تحرك اللومبارديون من جديد ، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا أرض الروجيين الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدانوب (مورافيا) ، فاستولوا عليها ، حدث ذلك في النصف الأخير من القرن الخامس • وكان أن مات جوديوك ، وخلفه على العرش ابنه كلافو ، وهذا أيضا بعد موته خلفه ابنه تاتو Tato • وفي العقد الأول من القرن السادس ، غادر اللومبارديون بقيادة تاتو أرض الروجيين إلى منطقة ذات سهول واسعة تدعى فيلد Feld تقع بين نهري تيس والدانوب ، حيث بدأوا يلعبون دورا أشد ما يكون وضوحا على مسرح أحداث تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، إذ بعد مضي ثلاث سنوات على وصولهم إلى هذه المنطقة ، اشتعلت الحرب بينهم وبين قبائل الهيرولي Heruli حوالي سنة ٥٠٨م (٣) •

وتمثل هذه الحرب التي سنتعرض لها بعد قليل أبرز مرحلة في تاريخهم ، إذ بدأوا يدخلون بها دائرة الضوء التاريخي ، في حين أخذت

(1) Paul., pp. 29-30; Hodgkin, op. cit., V, p. 96.

(2) Paul., p. 30.

(3) Paul., p. 33; Hodgkin, V, op. cit., p. 97; Dudden, op. cit., I, p. 83.

أحداثهم الأسطورية الملامح تتساقط من ثقب غربال التاريخ * وبعبارة أخرى يمكن القول أن الطريق الذي سلكه المؤرخون الرومان ، والآخر الذي سلكته الساجدة اللومباردية ، وهما طريقان مختلفان متباعدان ، قد التقيا عندئذ في طريق واحد معروف واضح المعالم *

وليس من شك أنه كان من العسير على الباحث التقيد بوضع ترتيب زمني للأحداث التي سردها بولس الشماس عن قومه ، خلال الفترة المبكرة من تاريخهم ، لاضطرابها الشديد ، وجنوحها الى الخيال والأساطير * ولكننا أوردناها من منطلق القاعدة التاريخية القائلة أنه مهما كانت الرواية ساذجة بعيدة عن الصحة ، فقد يكون لها أهمية تاريخية *

ويرى المؤرخ هودجين أن أحداث اللومبارديون إبان الفجوة التاريخية الغامضة البالغة ثلاثة قرون وما يزيد كما رواها بولس الشماس ، كانت كالجبال التي يشاهدها المرء من خلال ضباب كثيف ، يجعله عاجزا عن تقدير حجمها الحقيقي من ناحية ، وقاصرا عن تقدير المسافة المؤدية إليها من ناحية أخرى ، وبالرغم من ذلك يمكننا أن نخرج بالحقائق التالية (١) :

١ - حمل اللومبارديون اسم الونيلى عند بداية ظهورهم *

٢ - كان إقليم سكورينجا الواقع على الضفة اليسرى لنهر الإلب - بالقرب من مصبه - أول وطن لهم بعد رحيلهم من إسكندنياوه ، وقد عرف هذا الإقليم في العصور الوسطى بأسم باردينجو Bardengau وعاصمته باردويك Bardowyk التي لعبت دورا هاما في أحداث الأباطرة الألمان ، الى أن دمرها هنرى الأسد في عام ١١٨٩ *

ومن المحتمل أن اللومبارديين - كما يرى هودجين - في القرن الرابع الميلادي ، كانوا تحت سيطرة هرمانريك Hermanric ملك

القوط الشرقيين • وعندما اجتاحت جموع الهون البربرية بزعامة آتيلا (ت ٤٥٣) أراضي الإمبراطورية وعبثوا بأقليهما ، من الثابت أنهم كانوا من بين الشعوب الجرمانية الخاضعة لهذا الزعيم ، وعلى هذا الأساس أغفلت المصادر المعاصرة ذكرهم • وإذا أخذنا برواية بولس القائلة بأن مملكة الروجيين قد سقطت على أيدي اللومبارديين ، فلا شك أن الأخيرين قد وفقوا في الحصول على وطن شمال نهر الدانوب مقابل ولاية نوريكوم الرومانية • لكنهم رغم هذا لم يحققوا أهدافهم ، وربما كان ذلك بسبب النفوذ العظيم الذي مارسه ثيودريك ملك القوط الشرقيين (٤٩٣ - ٥٢٦) في هذه الأرجاء ، بالإضافة إلى أن نوريكوم وقفت حائلا دون توسعهم ، مما جعلهم يغادرون أرض الروجيين إلى سهول هنغاريا (فيلد) (١) •

وأخيرا ، يرى هودجين أيضا أن اللومبارديين خلال الفجوة التاريخية الغامضة السالفة الذكر ، كانوا يحتلون مرتبة ثانوية بين الشعوب البربرية القسوية ، مثل الأليمانى والثورنجيين والروجيين والجيداي والمهيولى ، تلك الشعوب التى قدر لها أن تلعب دورا خطيرا في مصير الإمبراطورية الرومانية في الفترة الواقعة بين سنتي ٣٦٧ و ٤٧٦م • ومن المعروف أن تلك الشعوب قد ازدادت التصاقا بحدود الإمبراطورية الشمالية آنذاك ، وبانتت تتطلع إلى عاصمتها روما بعين شرهة • والمواقع أنه لا يعنينا من أمر تلك الشعوب إلا أنها كانت بمثابة سد منيع حال دون قيام شعب — أى اللومبارديين — قليل الشأن لا حول له ولا قوة بمشاركتها في أعمال النهب والسلب • ومن ثم أغفل المؤرخون المعاصرون ذكره في مؤلفاتهم ، فلم نسمع عنه في مؤلف « حياة القديس سيفيرينوس » أو في « رسائل كاسيودورس » (٢) •

(1) Ibid, p. 102.

(2) Hodgkin, op. cit., V, pp. 102-103.

والقديس سيفيرينوس St. Severinus ، كان ممثلا للكنيسة في إقليم الهون ، ارتحل إلى الاقاليم الواقعة على طول الدانوب داعيا الى

حرب اللومبارديين ضد الهيرولى :

يعتبر الهيرولى أشد الشعوب الجرمانية ولعا بالتجوال والترحال ، فظهروا على الدنيستر والراين ، ونهبوا اليونان وأسبانيا ، وهددوا • إسكندنياوة وإيطاليا • وما اتصفوا به من عدم الاستقرار يرجع الى أنهم كانوا منقسمين على أنفسهم منذ زمن بعيد الى فرعين كبيرين : أحدهما تحرك صوب البحر الأسود ، واستقر المطاف به فى نهاية القرن الخامس الميلادى على الضفة الشرقية لنهر الدانوب ، جنوبى السهل الواسعة (فيلد) التى كان يشغلها اللومبارديون ، حيث عرف هذا الفرع الذى يهمننا فى دراستنا بالفرع الشرقى • أما الفرع الآخر ، وهو الذى عرف بالفرع الغربى ، فقد ظل قريبا من موطنه الأصلى ، الى أن ظهر فيما بعد على ضفاف نهر الراين (١) •

ويصف المؤرخ بروكوبيوس (٢) الهيرولى بالغدر والضراوة والشراسة ،

المسيحية ، حيث نجح فى تحويل العديد من الاهالى ، الى أن توفي سنة ٤٨٢ م ، ونقل رفاته الى ايطاليا .

أما المؤرخ فلافيوس ماجنوس أوريليوس كاسيودورس (حوالى ٤٧٧ — ٥٨٣) *Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus* ، فهو رجل دولة روماني ، التحق بخدمة ثيودريك ملك القوط الشرقيين • وتعتبر رسائله المعروفة بعنوان *Variae Epistulae* مصدرا هاما لتاريخ القرن السادس . أما كتابه « تاريخ القوط » الذى يعتبر مصدرا تاريخيا هاما تناول أحداث مملكة القوط الشرقيين ، لم يتبق منه الا شذرات فى كتابات جوردان ، وقد اعتزل الحياة العامة فى سنة ٥٥٠ ، والتحق راهبا بدير فيناريوم الذى ابتناه فى موطنه بروتيوم • انظر :

Dudley & Lang, op. cit., p. 48.

(١) Hodgkin, V, p. 103.

(٢) ولد بروكوبيوس *Procopius* حوالى سنة ٤٩٠ أو ٥٠٠ م ، ودرس البلاغة والقانون . وفى عام ٥٢٧ شغل منصبا مدنيا عاليا تحت

والميل الى اغتصاب أملاك الغير ، واعتبرهم « أحقر البشرية وأوضعها ؛ ومما يذكر أنهم ظلوا على وثنيهم حتى اختفائهم نهائيا من صفحات التاريخ ، وزاولوا عبادة ذات طقوس شريرة قامت على أضحية بشرية ، واعتادوا التخلص من مرضاهم ومسنينهم بالقتل ، وأجبروا أراملهم على التضحية بأنفسهن فرق قبور أزواجهن • وفي بداية القرن السادس كانوا أقرى شعوب المنطقة ، حيث أشاعوا الرعب في صدور جيرانهم ، وأنزلوهم الى مرتبة التبعية ، وأجبروهم على دفع الجزية • وكان اللومبارديون الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب الآريوسى وقتئذ ، من بين الشعوب التى دفعت لهم الجزية (١) •

ويروى بروكوبيوس أن السبب الذى من أجله أعلن الهيرولى الحرب ضد اللومبارديين ، يرجع الى أنه بعد سنوات قليلة من اعتلاء أنسطاسيرس عرش الإمبراطورية الرومانية (٤٩١ - ٥١٨) ، انصرف الهيرولى الى رغد الحياة ، وأخلدوا الى الكسل والتراخى ، وهم الذين اعتادوا رفع السلاح فى وجه القبائل المجاورة • وكان المحاربون منهم - على وجه الخصوص - أشد نقمة على ما وصل حالهم إليه ، دفعتهم غريزة الفوضى المتأصلة فيهم الى التعبير عن سخطهم فى صورة إهانات وجوها لليكهم رودلف • من ذلك أنهم أطلقوا عليه صفات لا تليق إلا بالنساء ، كأنثوى رقيق سئم القتال ، وآثر السلامة والعافية • وعندما أحس الملك بأنه صار هدفا لسخرية محاربتة وازدراءهم ، اضطر الى النزول

=

امرة القائد بليزارىوس ، وصحبه فى حملاته العسكرية ضد الفرس والوندال والقوط الشرقيين ، ومن ثم جاءت كتاباته شاهد عيان • واهم مؤلفاته « تاريخ حروب جستنيان » ، الذى يغطى الاحداث الواقعة بين سنتى ٥٢٧ و ٥٥٣ • وله كتاب آخر اسماه « التاريخ السرى » . Historia Arcana . وتوفى سنة ٥٦٥ • انظر :

Dudley & Lang, p. 206.

(1) Dudden, op. cit., I, pp. 83-84.

عند رغبتهم لاسترجاع هيئته المفقودة ، فأعلن الحرب على جيرانه اللومبارديين في حوالى سنة ٥٠٨ ، دون أن يتوفر سبب مقنع لها (١) . ولما أحس اللومبارديون بما أزمع الهيرولى عليه ، عرضوا عليهم الإمساك عن القتال ، مقابل دفع الجزية المفروضة عليهم . ولكن رودلف تحت تأثير الرغبة في القتال رفض هذا العرض ، ومن ثم صارت الحرب أمرا لا مفر منه بين الشعبين * وهنا نلاحظ أن رودلف استهان بقوة اللومبارديين وشجاعتهم ، فلم يشمر عن ساعد الجيد استعدادا لخوض المعركة ، ظنا منه أن مصيرها بات يحدده سلفا أعداد قومه الوفيرة من جهة ، وما عرفوا به من ضرواة طالما أثارت الرعب في قلوب جيرانهم من جهة أخرى (٢) . ولكنه نسى أن اللومبارديين في هذه المرة يدافعون عن طوق نجاتهم ، فلم يستسلموا لليأس ، وحزموا أمرهم على خوض المعركة بشجاعة ، وإلا أصبح الفناء مصيرهم *

ويمضى بروكوبيوس في روايته ، فيذكر أنه في الوقت الذى تهيأ الشعبان للقتال ، تصادف أن تلبدت السماء بسحب سوداء فوق صفوف اللومبارديين ، فتيمنوا خيرا ، لأن إله الحرب الذى لا يظهر إلا في مثل هذا الجو المكفر سوف يقف الى جانبهم ، وعلى عكس ذلك ، كانت السماء صافية الأديم فوق صفوف الهيرولى ، الأمر الذى أزعجهم واعتبروه نذير فأل سيئ ، ولكنهم لم يبالوا اعتمادا على تفوق قوتهم العددية . وعلى أية حال ، لم يلبث الشعبان أن التحمما في معركة ضارية ، انتهت بانتصار اللومبارديين ، ووقوع أعداد ضخمة من الهيرولى قتلى ، بما فيهم رودلف نفسه (٣) .

على أن بولس الشماس وقف من أحداث هذه الحرب موقفا مغايرا * وبغض النظر عن أنه صاغها في قالب أسطورى ، نلاحظ أنه حمل اللومبارديين مسئولية قيامها *

(1) Hodgkin, V, p. 106; Dudden, op. cit., I, p. 84.

(2) Hodgkin, V, pp. 106-107.

(3) Paul., p. 37 n. 1; Dudden, I, p. 84.

وتبدأ أسباب هذه الحرب بزيارة قام بها أخو الملك رودلف الهيرولى لتاتو ملك اللومبارديين ، بغرض عقد اتفاقية تحالف بين الشعبين . وبمجرد أن فرغ الأمير الهيرولى من مهمته شرع في العودة الى وطنه ، وفي طريقه مر أمام قصر روميترودا Rumetruda ابنة الملك اللومباردى ، فراعها بحاشيته الضخمة ، ودعته لتناول الشراب . ولجى الأمير الدعوة عن طيب خاطر . ووقف بباب القصر ينتظر الإذن بالدخول . وكان الأمير شابا ضئيل الجسم ، بخلاف ما تميز به قومه من طول قامه ، فلمما استقبلته الأميرة ووقع بصرها عليه ولم يكن كما تخيلته ، لم تستطع أن تخفى امتعاضها ، وفاهت بكلمات أحس الأمير منها أنه صار مثار سخرية أهل القصر وضحكهم ، فكان نصيهم منه إهانة لازعة ، جعلت الأميرة ترتبك وتستاء غضبا لجرح مشاعرها ، ولكنها تماكنت وصممت على الانتقام منه . ومن ثم أخذت تهدى مضيفها بكلمات ناعمة ، وألحت عليه أن يبقى لتناول العشاء على مائدتها ، فوافق الأمير . وحين أتى موعد العشاء رافقت الأميرة مضيفها بحفاوة بالغة الى مائدة أعدتها على شرفه ، وطلبت إليه الجلوس بحيث صار ظهره مولىا لنافذة أسدل عليها ستارة رائعة ، وقف خلفها رجال مسلحون بحراب . ثم التفتت الأميرة الى ساقبيها ، قائلة له بصوت يحمل مغزى معين : « هات الشراب ! » . وعندئذ خرج الرجال المسلحون من وراء الستار ، وغرسوا حراهم في ظهر الأمير غدرا ، ولم يتركوه إلا جثة هامدة . وطبقا للتقاليد الجرمانية السائدة ، اعتبر اللومبارديون ما حدث مؤامرة دنيئة لا يمكن المسكوت عليها ، مما أدى فض التحالف القائم بينهم وبين الهيرولى ، واشتعال الحرب بينهما (١) .

أما فيما يختص بأحداث المعركة التي دارت بين الشعبين ، فقد أشار بولس الى أن الهيرولى لم يتجهزوا للمعركة قبل الدخول فيها ، لثقتهم الزائدة في أنفسهم وتفوقهم العددي ، حتى أنهم أهملوا عن قصد

(1) Paul., pp. 33-35; Dudden, op. cit., I, pp. 84-85.

وضع دروع لحماية أجسادهم ، وإمعانا في الاستخفاف بعدوه ، لم يتخل رودلف عن قيادة جيشه فحسب ، بل بلغ الغرور به حدا جعله يجلس على طاولة في معسكره وراح يتسلى بلعبة الداما ، واكتفى بأن أمر أحد كشافيه بتسلق شجرة على مقربة منه ، بهدف مراقبة أحداث المعركة من أعلاها ، وإعطائه تقريرا عنها أولا بأول ، وفى ذات الوقت هدده بقطع رأسه إذا نقل إليه خبرا يتضمن هروب محاربيه . وفى أثناء المعركة كان رودلف يصرف باله عن اللعب بين لحظة وأخرى ، ويتطلع الى الكشاف مستفسرا عن تطور القتال . ولكن الكشاف وقد شاهد قومه ينهارون أمام بسالة اللومبارديين ، خشى إن نقل الى مليكه حقيقة الموقف أن يصيبه بأذى ، واكتفى بالقول أن قومه يقاتلون ببسالة . ثم لاح له أن الموقف لم يعد فى صالح قومه ، وصح ما توقعه ، إذا انتهت المعركة بهزيمتهم هزيمة ساحقة . وعندئذ صاح فى أسى : « يالهيروليا التعسة ، لقد صبت السماء عليك جام غضبها ، ولأنزلت بك عقابها ! » . وهذا نظر الملك الى كشافه فى دهشه مستنكرا : ما حل بقومه ، وصرخ قائلا : « هل صحيح أن قومي يلوذون بالفرار ؟ » . فرد الكشاف عليه : « أنت أيها الملك الذى نطقت بكلمة الفرار ، وليس أنا » . وهكذا انتصر اللومبارديون بفضل ما أبدوه من بسالة ، وانسحب الهيولى من أمامهم فارين يجرون أذيال الهزيمة ، تاركين وراءهم العديد من قتلاهم ، ومن بينهم رودلف (١) .

وإذا كان سبب الحرب بين الشعبين الذى أورده بروكوبيوس أفضل قبولاً مما جاء به بولس ، فلعل أهم ما نخرج به من روايتهم أن الهزيمة التى لحقت بالهيولى ، كانت بمثابة كارثة أليمة أودت بهم ، وأسقطتهم من قائمة الشعوب الجرمانية المستقلة (٢) . إذ على إثرها غادرت فلانولهم موطنها على الدانوب ، وظلت هائمة على وجهها بضع

(1) Paul., pp. 36-37.

(2) Hodgkin, V, pp. 107-108.

سنوات يجلبها العبار بخزيه ، الى أن انطوت أخيرا تحت سيطرة شعب الجييداي الجرمانى (١) . هذا فى الوقت الذى ارتفع شأن اللومباردين ، وذاع صيتهم وسط الشعوب الجرمانية ، وبدأوا منذ ذلك الوقت يلفتون أنظار الإمبراطورية ، كشعب شديد المراس لابد أن يحسب له حساب خطير (٢) .

حرب اللومباردين ضد الجييداي :

تعرض اللومبارديون عقب الانتصار الساحق الذى أحرزوه على الهيرولى لمنازعات محلية وحروب أهلية ، أدت الى مصرع الملك تاتو على أيدي ابن أخته واكو Waccho ، مغتصبا العرش لنفسه . وقد حاول هلدكيس Hildechis حفيد تاتو ووريثه الشرعى أن يتغلب على واكو ، ولكن محاولته باءت بالفشل ، إذ منى بهزيمة فادحة فر على إثرها الى بلاط ملك الجييداي طالبا مساعدته ، بيد أنه أخفق فى سعيه (٣) .

ومع أن واكو وصل الى العرش بطريقة غادرة ، إلا أنه فى الواقع أثبت جدارته فى الحكم . إذ استطاع أن يعيد الأمور الى نصابها ، وينشر الأمن والاستقرار فى أرجاء المملكة ، التى بلغت خلال عهده الطويل البالغ ثلاثين سنة درجة من القوة والبأس ، جعلت زعماء القبائل الجرمانية فى المناطق المجاورة يخطبون ودهما ، ويسعون الى التحالف معها . وعلى هذا الأساس تحالف واكو مع كثير من زعماء الجرمان ، وأهم من هذا أنه ارتبط مع الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) بعلاقات وطيدة ، بوصفه حليفا (معاهدا) للإمبراطورية البيزنطية Foederati (٤) .

(1) Villary, II, p. 275.

(2) Dudden, I, p. 85.

(3) Paul., p. 38; Hodgkin, op. cit., V, pp. 117-118.

(4) Hodgkin, V, p. 119; Dudden, I, p. 85.

والحق أن اللومبارديين أثبتوا صدق إخلاصهم لجستنيان بدليل أنهم أشتروا في الحروب التي قام بها في الغرب الأوربي ، بهدف استرجاع ما فقدته الإمبراطورية على أيدي الجرمان * وكانت أولى هذه الحروب ضد الوندال الذين اغتصبوا ولاية أفريقية ، فأنفذ إليهم جستنيان جيشا تحت قيادة بيازاريوس أنهى مهمته بنجاح تام في سنة ٥٣٣ م (١) . وبعد أن فرغ جستنيان من القضاء على الوندال بدأ يواجه عنايته الى إيطاليا التي اغتصبها القوط الشرقيون ، وشادوا بها مملكة مستقرة . وعندما بدأ بليزاريوس يضيق الخناق على ملكهم فيتجيس Vitiges (٥٣٦ - ٥٤٠) في سنة ٥٣٩ ، وكاد أن يلحق به هلاكاً محققاً ، أخذ الأخير في البحث عن حلفاء لدفع الأخطار عن مملكته ، فأنفذ سفارة الى واكو يعرض عليه مبالغ ضخمة ، مقابل الدخول معه في حلف ضد الإمبراطورية البيزنطية ، ولكن واكو الذي كانت تربطه علاقة طيبة بالإمبراطورية آنذاك ، رفض ما عرض عليه (٢) .

وكان أن توفي واكو ، وخلفه على العرش ابنه الطفل والتاري تحت وصاية المحارب أودوين Audoin * ولكن والتاري لم يعيش طويلاً ، إذ توفي بعد حكم دام حوالى سبع سنوات (٥٤٠ - ٥٤٦) ، كان الوصى خلالها يدبر أمور المملكة . وبموته انتهى حكم بيت ليشجي العظيم ، الذى استمر فترة تزيد على ستين عاماً (٣) ، وهو من البيوت التى تزعم أنها تنحدر من الملكة الحكيمة جامبارا التى قادت قومها من أسكندنياوه منذ عشرة أجيال (٤) . وعلى آية حال ، اختار اللومبارديون أودوين ملكاً عليهم * ومما يذكر أن عهده البالغ حوالى عشرين سنة (٥٤٦ - ٥٦٥) ، يعتبر من أبرز عهود مملكة اللومبارديين ،

(1) Davis, A Hist. of Medieval Europe, p. 56.

(2) Paul., p. 39 n. 2; Hodgkin, V, pp. 119-120; Dudden, I, pp. 85 - 86.

(3) Hodgkin, V, p. 120; Dudden, op. cit., I, p. 86.

(4) Oman, Dark Ages, p. 182.

ففى المقام الأول أخذت الروابط بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية تزداد متانة وتدعيمًا (١) .

وفى هذه الأثناء ، شاء سوء حظ الإمبراطورية أن الجيادى زاندوا من ضغطهم على حدودها الشمالية الشرقية . وأهم من هذا أنهم عادوا لغزو مدينة سيرميوم التى كانت فى حوزتهم ، فاستولوا عليها ، كما انتزعوا من الإمبراطورية ولاية داكيا (٢) الواقعة جنوبى الراين . ويبدو أن جستينيان كان عاجزا وقتئذ عن القيام بعمل حربى يدفع به خطر الجيادى المتزايد . فدفعته الحاجة الى الاستعانة بقوة حلفائه اللومبارديين الناهضة ، وذلك بدعوتهم للإقامة فى إقليم بانونيا (٣) (وهو يوغوسلافيا الآن تقريبا) الى جوار الجيادى . والملاحظ أن اللومبارديين لم يتأخروا عن قبول دعوة الإمبراطور ، إذ غادروا سهول هنغاريا الى بانونيا ، وأقاموا فى البلاد المعروفة حاليا بأسم ستيريا وسالزبورج وكارينثيا ، حيث صار بمقدور صياديههم ومغامريهم ومحاربيهم أن يتسلقوا جبال الألب المطلة على إيطاليا (٤) .

ولا شك أن هذا التصرف من جانب جستينيان كان بعيدا عن الصواب الى حد كبير . ويبدو أنه كان لا يدرك عواقبه وقتئذ ، وفى غفلة عن الأخطار التى ستعود على الإمبراطورية من ورائه . ذلك أنه لم يكن من الحكمة أن يأتى جستينيان باللومبارديين الأفضاظ من سهول هنغاريا البعيدة ، ويسمح لهم بالإقامة على مقربة من إيطاليا ، وهو الذى عرف بشدة حرصه على وحدة الإمبراطورية وتماسكها ، وضحى بالكثير من الأموال والدماء فى حروبه بالغرب الأوروبى فى سبيل ذلك .

(1) Dudden, op. cit., I, p. 86.

(2) Hodgkin, V, p. 123.

(3) Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, II, pp. 32-33; Lot, Les Invasions Germaniques, p. 134; Hodgkin, V, p. 124; Dudden, I, p. 86.

(4) Hodgkin, op. cit., V, p. 124.

وربما كان يتعين على جستنيان أن يتذكر ما حدث عندما إذن لقائده نارسييس بالاستعانة باللومبارديين في حروبه ضد توتيل ملك القوط الشرقيين (٥٤١ - ٥٥٢) • فقد انضم خمسة آلاف محارب لومباردى لجيش هذا القائد ، لعبوا دورا فعلا في الانتصار الساحق الذى حققه في موقعة تادينوى (تاجنيى) - بالقرب من جوبيو الحالية - في سنة ٥٥٢ ، لدرجة أن القوط الشرقيين لم يستطيعوا الثبات أمامهم • ومع أن نارسييس قد نجح في استئصال شأفة القوط الشرقيين ، وعادت إيطاليا الى حظيرة الإمبراطورية ، إلا أن اللومبارديين لم يتوقفوا عن المجيء الى إيطاليا ، الأمر الذى استوجب على جستنيان سرعة التخلص منهم دون أن يفطنوا الى ذلك ، فأصدر أوامره الى قائده باعادتهم الى بانونيا ، وأوصاه بمرافقتهم خلال عودتهم حتى جبال الألب الجوليانية (١) • ولكن جستنيان فاتته أن أقدم اللومبارديين قد عرفت الطريق الى إيطاليا الخصيبة ، واستوعبوا مسالكها وثمرات الضعف الكامنة فيها ، ولم يشغلهم عن التطلع الى غزوهم وقتئذ إلا حروبهم مع جيرانهم الجيبيداى ، التى استغرقت خمسة عشر عاما •

وفي هذه الأثناء ، كانت العلاقات قد تدهورت بين أودوين ملك اللومبارديين وثوريسند Thorisind ملك الجيبيداى • وليس ثمة أسباب نعلل بها هذا التدهور ، إلا أنهما من البرابرة الذين ألفوا حياة القتل والصدام ، وهذا فى حد ذاته كان سببا كافيا لاراقة الدماء بينهما • وفضلا عن هذا ينبغى ألا ننسى أن فلول الهيولى التى فرت أمام اللومبارديين ، قد لجأت الى الجيبيداى ، وأبرمت معهم حلفا ضد اللومبارديين • وأخيرا ما زال هلدكيس صاحب الحق الشرعى فى التاج اللومباردى يشكل خطرا حقيقيا على أودوين ، لا سيما أنه بعد أن هام

(1) Dudden, op. cit., I, p. 86; Lot, op. cit., p. 277; Oman, op. cit., p. 182; Universal Hist. of the World, 4, p. 2270; Thompson, The Middle Ages, p. 168; Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages, p. 76; Barker, Justinian, pp. 305-310.

على وجهه في بلاد السلاف والقسطنطينية وبلاط توتيل ملك القسوط الشرقيين ، انتهى به المطاف في قصر ثوريسند (١) كما رأينا .

وعلى أية حال ، تحت تأثير كل هذه الظروف ، وصلت العدواة بين الشعبين اللومباردي والجيبيدي في حوالي سنة ٥٥٠م الى طريق يتعذر العودة منه ، ويات واضحا أن الحرب وشيكة الوقوع بينهما . وهنا نلاحظ أن الشعبين كانا متكافئين في القوة الحربية الى حد ما ، وان كان الجيبيدي يتفوقون في الكثرة . ولهذا حرص اللومبارديون على تضيق هذا الفارق بالاعتماد على حلفائهم « الرومان » . أما الجيبيدي الذين بقوا — على حد زعمهم — حلفاء للإمبراطورية أيضا ، رغم عجزها عن كبح جماحهم في داكيا ، فقد أصروا على أن تمتد اليهم الإمبراطورية يد المساعدة ضد اللومبارديين . وأهم من هذا وذاك ، أن كلا من الشعبين أرسل سفارة من قبله الى القسطنطينية لتأكيد مطالبه ، استقبلهما جستنيان كل على حده (٢) . ومما لا شك فيه أن تصرف الشعبين على هذا النحو ، أملاه خوف كل منهما على مصيره . على أن جستنيان في الواقع لم يكن مهتما بمصير أى منهما على الإطلاق ، ذلك أنهم في الحقيقة من الشعوب المتبربرة أعداء الإمبراطورية التقليدية . وبعبارة أخرى لم يكن من صالحه العمل على إزالة الخلاف القائم بينهما فحسب ، بل يهيمه بالدرجة الأولى القضاء عليهما أو السعى لإضعاف شوكتهما ، وذلك بمساندة أحدهما ضد الآخر ، جريا على سياسة فرق تسد التي سارت عليها الإمبراطورية تجاه البرابرة . وليس أدل على ذلك من أنه اختار الوقوف الى جانب اللومبارديين ، وربما يكرن الدافع الى ذلك أنهم أبعد الشعبين عن حدوده ، وأقل خطورة على مصالحه (٣) .

(1) Hodgkin, V, p. 122.

(2) Ibid, p. 124.

(3) Paul., pp. 41-42 n. 6.

ولم يلبث جستنيان أن أنفذ قوة قوامها عشرة آلاف فارس لمؤازرة اللومبارديين * بيد أن ظهور مثل هذه القوة الضخمة أثارت في الشعبين مخاوفهما القديمة التقليدية من الإمبراطورية البيزنطية ، ومن ثم أعادوا النظر فيما هما مقبلان عليه . وما يدل على ذلك أن الجيوداي قدموا عرضا للصلح ، جرت موافقة اللومبارديين عليه دون الرجوع إلى حليفهم الإمبراطور . حدث ذلك في الوقت الذي توغلت قوة جستنيان بعيدا ، ووجدت نفسها فجأة وحيدة وسط خضم واسع من البرابرة ، يجعلها فريسة سهلة للتناول ، فانسحبت عائدة إلى القسطنطينية (١) .

على أنه قبل أن يجف مداد اتفاقية الصلح التي عقدت بين الشعبين تغير الموقف إلى معركة عنيفة دارت بينهما في سنة ٥٥٤ ، انتهت بانتصار اللومبارديين انتصارا ساحقا ، وسقوط العديد من الجيوداي صرعى . ومما يسترعى الانتباه أن الملك أودوين حرص على إبلاغ حليفه جستنيان بما أحرزه من نصر ، في ذات الوقت لم ينس أن يعيد على مسامحة الجميل الذي طوقه به ، عندما وضع - أي أودوين - تحت تصرفه جيشا ضخما من محاربيه شارك في معركة تاديونوي الحاسمة ضد القوط الشرقيين في إيطاليا (٢) .

أما الجيوداي ، فقد اضطرتهم الهزيمة الساحقة التي ذاقوها إلى طلب الصلح من اللومبارديين ، والدخول معهم في حلف هزيل شبيه بالتبعية . وقد وعدهم اللومبارديون بتقوية أواصر هذا الحلف ، شريطة أن يسلموهم هلكيس الذي مازال يمثل خطرا على عرش أودوين . ولكن ثورييسند رأى أولا أن يشاور قومه في هذا الشأن ، فأجمعوا كلمتهم على الرفض وفقا للتقاليد السائدة بين الجرمان ، لما رأوا في تسليمه من عار مشين الموت أفضل منه . ولكي يتخلص ثورييسند من هذا الموقف ، بعث برسالة إلى جاره القوي أودوين ، أوضح فيها موافقته على تسليم

(1) Hadgkin, V, pp. 125-129.

(2) Ibid, p. 133.

هالكيس ، مقابل أن يسلمه — أى أودوين — بدوره أوستريو جوتس منافسه على العرش (١) ، وكان الأخير قد لاذ بالفرار الى مملكة اللومبارديين . وكان من البدهى أن يرفض أودوين إجابة هذا المطلب ، لنفس السبب الذى من أجله رفض ثوريسند ، ونتيجة لهذا تعثرت المفاوضات بين الملكين (٢) . ولا شك أن ما حدث يرسم لنا صورة رائعة عن طبيعة الملكية الجرمانية ، ومدى السلطة التى كان يمارسها ماوك الجرمان فى إطار التقاليد الموروثة .

وفى وسط هذه الأحداث ، بلغ ألبوين ابن الملك اللومباردى مرحلة الشباب . وقد وصفته الساجدة اللومباردية بطول قامه ، وقوة بنيته ، وشجاعة البالغة تصل الى حد التهور ، الأمر الذى جعله محور آمال قومه (٣) . والجدير بالذكر ، أنه خلال المعركة الأخيرة التى دارت بين فرومه والجبيداى ، أظهر بسالة منقطعة النظير ، ألقت ضوءا ساطعا على شخصيته . إذ حدث — طبقا لبولس الشماس — أن وقف ألبوين وجها لوجه أمام الأمير ثوريزموند ابن ملك الجبيداى ، فاشتبك فى مبارزة حامية ، ولكن ألبوين عاجل خصمه بضربة من سيفه أردته صريحا ، الأمر الذى غير مجرى المعركة ، فانتهت بانتصار اللومبارديين (٤) . وفى الوليمة التى أقامها اللومبارديون احتفالا بانتصارهم ، أراد ألبوين أن يأخذ مكانا على المائدة الملكية ، ولكن التقاليد الجرمانية آنذاك كانت تمنع ابن الملك بالجلوس الى جوار أبيه على مائدة طعام واحدة ، مهما أوتى هذا الابن من شجاعة ، إلا إذا تلقى أسلحته من مك آخر (٥) . وكان أن اختار ألبوين أربعين من رفاقه ، وانطلق بعيدا الى ثوريسند ملك

(1) Ibid, p. 133.

(2) Ibid, pp. 133-134.

(3) Dudden, I, p. 87.

(4) Paul., pp. 41-42; Hodgkin, op. cit., V, p. 134; Dudden, op. cit., I, p. 87.

(5) Paul., pp. 42-43.

الجبيدائى ، الذى رجب بضيفه قاتل ابنه طبقا للتقاليد الجرمانية ، وفى الوليمة التى أقامها على شرفه ، أجلسه الى يمينه فى نفس المكان الذى كان يشغله ابنه قبل مصرعه . وهنا حانت نظرة من الملك الى هذا المكان ، فاعتلت وجهه مسحة من الحزن ، وتنهَّد قائلاً : « كم هو عزيز على هذا المكان ! » . وقد أثار حزنه مشاعر الحاضرين من الجبيدائى ، بصورة جعلت ابنه الأصغر يوجه حديثه الى ضيوف أبيه قائلاً فى سخرية لاذعة : « أنتم تشبهون فى هيئتكم ورائحتكم أفراس سهولنا ذات الأرجل البيضاء » . والواقع أنه كان يقصد بذلك توجيه إهانة قاسية الى اللومباردين بالتلميح الى الأربطة الكتانية البيضاء ، التى جرت عادتهم على تطويق أرجلهم بها . ولكن لومبارديا جريئاً لم يصبر على هذه الإهانة ، وأجاب عليها فى التو بقوله : « عليك بالذهاب الى مكان المعركة التى دارت بيننا ، وسوف تعلم مدى قوة رفسات تلك الأفراس ، عندما ترى عظام أخيك أشلاء مبعثرة على الأرض » . وتلا ذلك أن هب ألبيون ورفاقه واقفين ، وأيديهم على قبضات سيوفهم ، ركادوا أن يشتبكوا فى عراك مع الجبيدائى ، لولا أن الملك ثوريسند ، مدفوعاً بتقاليد الضيافة المقدسة ، سارع بالتدخل وهدأ من ثورة الجانبين ، وأخذ يذكرهم بضرورة الحفاظ على السلام القائم بينهما ، فانصاع الجميع ، وجلسوا معامرة أخرى . ثم أجرى ثوريسند طقوس التقاليد الجرمانية المتبع فى هذه المناسبة ، فقدم أسلحة ولده المقتول هدية الى ألبيون ، فانطلق بها عائداً الى وطنه (١) . وهذا وقد أجمع اللومبارديون على على اختيار ألبيون الشجاع ملكاً عقب وفاة أبيه أودوين سنة ٥٦٥ . كذلك شهدت هذه السنة وفاة ثوريسند الجبيدائى ، وخلفه على العرش كروموند ، الذى كان ، على ما يبدو ، شقيقه (٢) .

(1) Paul., pp. 44-45; Gibbon, op. cit., II, p. 98; Dudden, op. cit., I, p. 98; Villari, II, pp. 275-276.
 (2) Paul., p. 49; Hodgkin, V, p. 137.

ثم كان أن تدهور الموقف بين اللومبارديين والجيبيداى تدهورا واضحا . ذلك أنه فى السنوات الأخيرة من حكم جستنيان ، اجتتاح الآفار أوربا ، وهم زوبعة بربرية جديدة جاءت من السهول الآسيوية ، نتيجة الاضطرابات التى شهدتها أقاليم آسيا الوسطى من جهة ، وتحت تأثير ضغط قبائل الأويغور التركية من جهة أخرى . ولم يتوقف الآثار فى زحفهم ، حتى وصلوا غربا الى منطقة الدانوب الأدنى سنة ٥٥٨ ، وبناتوا يشكلون خطرا داهما على الإمبراطورية ، أجبر جستنيان على دفع أموال طائلة سنويا لهم (١) .

والواقع أن ظهور الآفار فى منطقة الدانوب الأدنى ، أضاف إليها قوة بربرية جديدة ، لعبت دورا خطيرا فى الصراع الدائر بين اللومبارديين والجيبيداى . ذلك أن اللومبارديين رأوا فيهم حليفا قويا ، يمكنهم الاستعانة به فى القضاء على شعب الجيبيداى وتدميره تدميرا شاملا . ويظهر ذلك واضحا فى رسالة بعث بها ألبوين إلى بايان Baian خان الآفار فى سنة ٥٦٧ ، يدعو فيه إلى التحالف معه ، وعقد اتفاقية بينهما ، الغرض منها تسديد ضربة قاصمة للجيبيداى ، بقوله : « إذا نجحنا سويا فى القضاء عليهم وإبادتهم ، سيكون لك كل أرضهم ونصف ما نصيبه من أسلاب ، أما إذا عبرنا معا جبال الألب إلى إيطاليا ، وغزونا أراضيها ، فكل إقليم بانونيا الذى نسكنه الآن سيكون من نصيبك » (٢) . ومما يلفت النظر فى هذه الاتفاقية الفريدة ، ذلك الشرط الذى أضافه ألبوين ، متضمنا حق اللومبارديين فى استرداد بانونيا ، فى حالة فشلهم فى غزى إيطاليا (٣) ، الأمر الذى يؤكد لنا أن ألبوين كان

(1) Lot, op. cit., pp. 277-278; Diehl & Marcias, Histoire du Moyen Age, III, p. 131; Villari, II, p. 276; Ganshof, Le Moyen Age, pp. 7-9, 49.

(2) Paul, p. 50; Hodgkin, V, pp. 137-138; Villari, op. cit., II, pp. 276-277.

(3) Dudden, I, pp. 88-89.

يخطط للغزو ، ولكنه قبل أن يقدم عليه حرص على أن يؤمن ظهره بسحق الجيبداي واستئصال شأفتهم (١) .

ومن العجيب ، أن بايان خان الآفار أبدى موافقته على الشروط التي تضمنتها هذه الاتفاقية ، وشرعت جيوشه وجيوش ألبوين في تطبيق الجيبداي من الشرق والغرب . وما أن وصلت الأنباء إلى كونمووند ملك الجيبداي بأن الآفار قاموا باقتحام جبال الكربات الشرقية ، في حين عبر اللومبارديون نهري الدانوب والثيس للإطباق عليه من الغرب ، استصرخ حايه الإمبراطور البيزنطي جستين الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨) لنجده ، ولكن الأخير كان مقيدا بالسياسة البيزنطية المألوفة ، الرامية إلى ترك البرابرة يبيد بعضهم بعضا ، وأوقف منهم موقف المتفرج السلبي (٢) . ومع أن كونمووند فقد الأمل في وصول نجدة إمبراطورية ، إلا أنه لم يفقد رباطة جأشه في هذا الموقف العصيب (٣) . إذ اجتمع بمحاربيه قائلا لهم : « دعونا نحارب اللومبارديين أولا ، فإذا تغلبنا عليهم ، أمكننا طرد الهون — أي الآفار — من أرض أجدالنا » . وسرعان ما التحم الشعبان — اللومباردي والجيبداي — في قتال عنيف ، انتهى بانتصار اللومبارديين الانتصارا ساحقا . ومما يذكر ، أنه أثناء القتال وقف ألبوين وكونمووند وجهًا لوجه في مبارزة فردية ، سقط فيها كونمووند صريعا . وفي سلوك هجمي لا يمت إلى الإنسانية بصلابة ، قطع ألبوين رأس خصمه بيديه ، وصنع من جمجمته كأسا لشربه (Scala) أحاطه بالذهب ، ثم قدم إليه مائتا بالنبيذ أثناء الاحتفالات التي أقامها بمناسبة انتصاره ، فاحتسأه جذلا ! (٤) .

(1) Villari, op. cit., II, p. 277.

(2) Hodgkin, V, p. 139.

(3) Hodgkin, V, p. 140; Dudden, op. cit., I, p. 89; Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, pp. 56-57.

(4) Paul., pp. 50-51; Hodgkin, V, p. 139; Gibbon, II, p. 99; Oman, p. 183.

والحق أن الهزيمة القاسية التي ذاقها الجييداي قد أودت بهم ، وألقت بهم في ركن النسيان • أما البقية الباقية ممن كتبت لهم النجاة ، فقد وقع البعض منها تحت وطأة اللومبارديين ، في حين أثر البعض الآخر البقاء في أرضه خاضعا للآفار الفظاع (١) • ومن المفارقات العجيبة أن روزاموند Rosamund ابنة كوثموند ، وكانت قد وقعت أسيرة في أيدي البويين قاتل أبيها ، أكرهت على الزواج منه في احتفالات أقيمت على عجل • هذا وقد اختارها لبوين زوجة له ، بعد وفاة زوجته الأولى كلوثأسند ، ابنة الملك لوثر الفرنجي (٢) •

وأخيرا نختم هذا الموضوع بالإشارة إلى أن الكارثة التي أنزلها البويين بالجييداي أكسبته شهرة واسعة ، جعلت منه بطلا من أبطال الأغاني الملحمية ، ونسجت حول شخصيته وشجاعته قصصا رائعة ، تناقلها المعاصرون • وعلى عهد الإمبراطور شارلمان (ت ٨١٤) ، كان البافاريون والاسكسون وقبائل جرمانية أخرى يرددون الأغاني التي تصف البويين بالشجاعة والبطولة (٣) • على أن طموح قاهر الجييداي لم يقف عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى أبعد من ذلك ، إلى ضفاف نهري البو والتيرير الخصبة ، حيث إيطاليا الرائعة ، ذلك الحلم الجميل الذي طالما دأب مخيلة الشعوب الجرمانية والمتبربرة •

(1) Paul., p. 52; Hodgkin, V, p. 140; Dudden, I, p. 140.

(2) Paul., p. 51; Gregory of Tours, The Hist. of the Franks, II, pp. 149-150.

(3) Paul., p. 52; Gibbon, op. cit., II, p. 99

الفصل الثاني

الومبارديون في إيطاليا

- غزو إيطاليا -
- مقتل البوين *
- فترة الشغور في الملكية اللومباردية *
- عودة الملكية اللومباردية *
- التحالف البيزنطي الفرنجي *
- أجيولف *

بالرغم من أن الإمبراطورية الرومانية في الجزء الغربي من أوروبا ، قد لفظت أنفاسها في القرن الخامس الميلادي (٤٧٦) على أيدي الجرمان ، ولم يعد لوجودها السياسي القديم بقاء ، إلا أن فكرة إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة ظلت راسخة في الأذهان طوال العصور الوسطى .
 دليل أن الأباطرة الشرقيين (البيزنطيين) اعتبروا أنفسهم امتدادا للأباطرة الرومان السابقين ، وما حدث في رأيهم سنة ٤٧٦ أنه لم يعد ثمة سوى إمبراطور واحد للإمبراطورية يحكم في الجزء الشرقي منها .
 هذا ولم تدم الإمبراطورية الغربية بعد زوالها بعض الأباطرة العظام الذين وضعوا نصب أعينهم العمل على إحيائها . ومن أولئك الأباطرة جستنيان ، الذي بذل قصارى جهده في سبيل إعادة الإمبراطورية إلى سابق العهدها بقوة موحدة ، ولكن الظروف كانت أقوى (١) .
 فمن أجل تحقيق هذا الغرض خاض عدة حروب في الغرب ، حيث استطاعت جيوشه بقيادة بليزاريوس القضاء على الوندال نهائيا في أفريقية سنة ٥٣٣ ، وبفضل قائده نارسييس أنهار القوط الشرقيون في إيطاليا ، ولم تقم لهم قائمة سنة ٥٥٢ ، ولم يكد جستنيان يفرغ من أمر القوط الشرقيون ، حتى وجه جهوده القضاء على القوط الغربيين في أسبانيا ، ولكن جيوشه لم تتمكن من الاستيلاء على أسبانيا كلها ، مكثية سنة ٥٥٤ باقتطاع بعض المدن الهامة في الجزء الجنوبي الشرقي منها (٢) .

ومما يذكر أن الانتصارات التي أحرزها جستنيان في الغرب الأوربي ، ألقت على عاتق الإمبراطورية البيزنطية أعباء ، زادت من جسامتها الضرائب الباهظة التي أنهكتها ، وأقفر خزائنها من المال .
 ومع ذلك لم يستطع جستنيان أن يتم العمل الذي بدأه ، وهو توحيد

(١) محمود الحويري : رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية ، ص

١٧٥ .

(٢) سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ، ج ١ ص ٩٨ -

١٠٣ .

الإمبراطورية الرومانية ، وإرجاع البحر المتوسط بحيرة رومانية كما كان من قبل ، فمازالت أجزاء من سواحله في أيدي مملكة الفرنجة * ومن سوء حظ الإمبراطورية آنذاك أن تعرضت جبهة الدانوب لأخطار جماعات بربرية جديدة ، مثل الجيبيداي والآفار واللومبارديين ، في الوقت الذي اشتد ضغط الفرس على الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية . ونتيجة لذلك صارت الإمبراطورية عاجزة عن القيام بمشاريع حربية أبعد مما قامت به ، مما جعلها تأخذ موقف المدافع عن أراضيها (١) . على أنه إذا كانت مشاريع جستنيان الحربية قد تعرضت للانتقاد لأنه ضحى بكثير من الأموال والأرواح في حروبه ضد الجرمان بالغرب الأوربي ، وهم الذين باقوا لا يؤذون الإمبراطورية ، باستثناء الرندال ، وأنه كان أخرى به أن يواجه جهوده الحربية ضد الفرس ، حيث كان يكمن الخطر الحقيقي على الإمبراطورية ، إلا أنه لو فعل ذلك ، لأدت سياسته إلى تخليه عن تراث الإمبراطورية وروحها (٢) .

والمهم هنا أن القبائل الجرمانية استغلت تدهور أحوال الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة جستنيان ، فاندفعت إلى التحرك من جديد على حدود الدانوب * وفي نطاق هذا التحرك ، رأينا كيف أن اللومبارديين والآفار دمروا مملكة الجيبيداي ، ومن ثم استولى الآفار على المناطق التي كان يشغلها الجيبيداي ، وصاروا جيران اللومبارديين * والواقع أن تدمير الجيبيداي لم يجعل اللومبارديين القوة البارزة في منطقة الدانوب ، إذ استطاع الآفار بما جبلوا عليه من شراسة ووحشية أن يفرضوا إرادتهم على معظم الأنحاء ، هذا في الوقت الذي عجزت الإمبراطورية البيزنطية عن حماية حدودها ، وأضعف عن كبح جماح زعيمهم بايان ، الذي كان فاتحاً آسيوياً من طراز أثيلا . فقد أمست أوروبا الوسطى

(1) Pirenne, Hist. of Europe, pp. 43-44; Cantor, Mediaeval Hist., p. 145.

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ص ٩٩ .

كلها فريسة سهلة في يده وأيدى حلفائه السلاف ، وامتدت غاراته بعيدا الى أطراف دولة الفرنجة في الغرب الأوربي (١) .

وعندئذ بات اللومبارديون في خوف من جيرانهم الآفار ، ورأوا العيش معهم في وئام أمرا بعيدا المنال . فعلى الرغم من أنهم حرصوا على التقرب إليهم ، والدخول معهم في تحالف ، إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن تلك السياسة لم تجد نفعا مع شعب قوى يفوقهم وحشية وضراوة . وإذا تعرض استقلال اللومبارديين وأمنهم لتهديد الآفار ، وبلغ بهم اليأس مبلغه ، رأوا أن الملاذ الوحيد يكمن في الرحيل عن بانونيا ، وتركها لقمة سائغة للآفار (٢) . ومن الأسباب التي أُلحِت أيضا على اللومبارديين بالرحيل ، ما شهدته مناطقهم من قحط وجفاف ، وما تبع ذلك من نقص الأراضي الصالحة للزراعة والرعى ، في الوقت الذي لم يتأت لهم الحصول على الزيادة المألوفة في الأرض (٣) .

وهكذا تطلبت الظروف أن يرحل اللومبارديون عن بانونيا ، بيد أن ألبوين لم يجهد فكره في البحث عن مكان ينفع وطنه لقومه ، وأمامه إيطاليا القريبة منه . إذ من المعروف أنه أبدى اهتماما جديا بغزوها منذ فترة طويلة ، وكن حروبه ضد الجيبيديي لم تمكنه من وضع اهتمامه موضع التنفيذ ، الى أن ظهر الآفار بقوتهم ، فلم يكن بد من الإقدام على الرحيل الى إيطاليا . والملاحظ أن التدهور السريع الذي أصاب إيطاليا ، نتيجة للحروب التي شهدتها وانتشار المجاعات والأوبئة ، قد هيأ لألبوين الجو المناسب لغزوها . وهنا نكرر القول أن السياسة الحربية التي انتهجها جستنيان في الغرب الأوربي ، بغرض

(1) Stphenson, Mediacval Hist., p. 95.

موس : تكوين أوروبا ، ص ٢١٣ .

(2) Lot, Les Invasions Germaniques, p. 278; Pirenne, p. 44.

(3) Lot, Pfister, Ganshof, Les Destinées de l'Empire en Occident, p. 211.

إعادة الإمبراطورية الى سابق مجدها ، قد عادت على إيطاليا بأوخم العواقب • ذلك أن تدمير قوة القوط الشرقيين واستئصال شأفتهم ، حرم إيطاليا من القوة القادرة على حمايتها ، ولو حدث أن تركوا رثائهم ، لمساعدتهم اللومبارديون شمال إيطاليا (١) ، بعد موته بثلاث سنوات •

ومن الطريف أن بولس الشماس يروى أن القائد العظيم نارسييس قاهر القوط الشرقيين ، هو الذى شجع اللومباردين على غزو إيطاليا • ذلك أن أهالى إيطاليا قد اتهموه بالجهش واغتصاب الأموال لنفسه ، الى حد أنه كدس من الذهب والفضة والتحف الثمينة ما يفوق أية ثروة خاصة • وقد عبروا عن استيائهم من نارسييس فى رسالة بثوا بها الى الإمبراطور جستين الثانى (٥٦٥ - ٥٦٨) بقولهم : « كان حكم القوط الشرقيين أفضل لنا من حكم الإغريق (البيزنطيين) ، لأن الخصى نارسييس يفرض نفوذه علينا بقسوة وضغط شديدين ، فى حين لا يعلم مولانا الإمبراطور شيئا عن ذلك ، وعلى هذا إنما أن يحررنا مولانا من قبضته ، أو أننا سنخون مدينة روما وأنفسنا مع الوثنيين (بقايا القوط الشرقيين) (٢) • ويستطرد بولس قائلاً بأن الإمبراطور انزعج اذ ذلك ، فبادر بخلع نارسييس فى سنة ٥٦٧ ، وعين بدلا منه البريتور (نائب الإمبراطور) لونجينوس Longinus (٥٦٥ - ٥٧٨) ، وهو رجل ضعيف يقل مقدرة عن نارسييس • ويال إن الإمبراطورة صوفيا بعثت الى نارسييس على سبيل السخرية رسالة تضمنت أنه ينبغي عليه التخلّى عن قيادة الجيوش ، ويترك للرجال مهمة حمل السلاح وخوض المعارك ، ويرجع الى مكانه اللائق به - بوصفه خصيا - بين وصيفات القصر ، ليمسك مغزلا بدلا من الدفاع عن الإمبراطورية • فرد عليها نارسييس قائلاً : « سوف أغزل لك خيوطا

(1) Lot, The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Age, p. 269, 286; Bark, Origins of the Medieval World, p. 25.

(2) Paul the Deacon, pp. 58-59; Gregorovius, Hist. of the City of Rome in the Middle Ages, I, p. 500.

(قيودا) لا تستطيعين حلها بسهولة طرأ على عمرك » (١) • وكان أن انسحب نارسيس إلى نابولي ، وصار يعلو بالانتقام لكرامته السيئة ، ولما قبل به من عقوق ونكران • ومن هناك أوفد رسلا إلى اللومباردين ، لحثهم على مغادرة حقول بانونيا الجرداء وغزو إيطاليا الخصبة • وحتى لا يتردد اللومباردين في قبول دعوته ، أرسل إليهم عينات من جميع أصناف الفاكهة الإيطالية ، وفي ذلك إشارة لما تتميز به إيطاليا من خيرات (٢) •

وقد أخذ المؤرخ ددن برواية بولس ، وعلق عليها بقوله بأن خاع نارسيس من منصبه كان خطأ فادحا من الإمبراطور ، في وقت باتت الإمبراطورية أشد ما تكون حاجة إلى خدماته لحماية حدودها الشمالية من الغزو واللومباردي ، وكأن عمى قد أصابه مما جعله لا يقدر الأمور بحكمة ، ولا يدرك عواقبها ، إذ لولا ذلك لما وجد اللومبارديون الطريق منهجا إلى إيطاليا (٣) •

والواقع أن ما رواه بواس الشمس عن خيانة نارسيس للإمبراطورية البيزنطية ، وأكد ددن وغيره ، ليس إلا ترديدا للأساطير اللومباردية ، لا يتفق مع الواقع التاريخي بأي حال • ذلك نارسيس قد أصاب فوق الثمانين من عمره ، راقدا على فراش المرض في قصره بنابولي ، وفي شغل شاغل عن التفكير في استدعاء اللومباردين لغزو إيطاليا ، في الوقت الذي كانوا في غنى عما يعرفهم بخصوبة إيطاليا وثرواتها ، وقد خبروها تماما عندما استدعاهم جستنيان من قبل في حروبه ضد القوط الشرقيين تحت قيادة نارسيس سنة ٥٥٢ (٤) • وفي أغلب الظن أن ثمة قائدا

(1) Paul., p. 59; Gregorovius, p. 500; Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, II, p. 100.

(2) Paul., p. 60.

(3) Dudden, Gregory the Great, I, p. 89.

(4) Oman, Dark Ages, p. 184; Barker, Justinian, p. 301.

آخر كان يحمل الاسم نارسييس وقت اعتلاء جستن الثاني عرش
الإمبراطورية سنة ٥٦٥ •

وعلى أية حال ، ما إن وافت سنة ٥٦٨ . حتى كان البوين قد
تجهز للزحف على إيطاليا ولكنه قبل أن يغادر إقليم بانونيا قرر
التنازل عنه — كما أسلفنا القول — لحلفائه الآفار ، شريطة أن يعيده
إليه إذا اقتضت الضرورة عودته من إيطاليا (١) ولا شك أن اتفاقا
من هذا النوع مع شعب غادر عنيف بطبيعته مثل الآفار ، كان عديم
الجدوى (٢) • وفي ٢ أبريل سنة ٥٦٨ ، انطلقت جموع اللومباردين
الى إيطاليا بقيادة ألبوين ، رجالا ونساء وأطفالا ، ومعهم عبيدهم
وماشيتهم وعرباتهم (٣) • ومن سوء حظ إيطاليا آنذاك ، أن يضم جيش
ألبوين عدة عناصر من شعوب بربرية مختلفة الطبائع والنزعات ،
وميلّة بفطرتها الى إحداث الفتن والفوضى ، ولا يتورع زعماءها عن
إطلاق العنان لها بارتكاب الأفعال الهمجية ، وأعمال النهب والسلب •
إذ كان هناك عشرون ألف سكسوني تصحبهم زوجاتهم وأطفالهم ،
انطلقوا في صورة هجرة عامة ، وبقايا الجيودالي ، والبلغاريين ، والبلغاريين ،
والسامارتيين ، والسويقي ، وقبائل أخرى من نوريكوم وبانونيا (٤) •

ومن الملاحظ أن غالبية هذه القبائل كانت مسيحية على المذهب
الآريوسي المناهض للمذهب الكاثوليكي ، أما البقية الباقية منها فقد
احتفظت بوثنيتها • وثمة اختلاف حول أعداد المحاربين الذين انطلقوا
بزعامة ألبوين ، حيث قدرهم المؤرخون بين عشرين ألفا ومائة وعشرين

(1) Paul., p. 62.

(2) Oman, op. cit., p. 184.

(3) Paul., p. 62; Gregory of Tours, Hist. of the Franks, I, pp. 179-180.

(4) Paul., p. 80; Hodgkin, Italy and her Invaders, V, p. 156; Dudden, I, p. 89.

ألفا ، بيد أنه إذا كان عدد المحاربين السكسون قد بلغ عشرين ألفا ، فمن المستبعد مطلقا أن تقف جموع المحاربين عند الحد الأدنى في تقدير المؤرخين ولا تتجاوزه ، وفي الغالب الأعم أن ألبوين كان يضم تحت قيادته عددا من المحاربين يتراوح بين ستين ألفا وسبعين ألفا ، وهو عدد ضخم حتى لو وضعنا في الاعتبار حجم الخسائر المتوقعة خلال الغزو من ناحية ، وضرورة وضع حاميات في المدن التي ستقع في يد ألبوين من ناحية أخرى (١) .

على أن ألبوين لم يسلك الطريق الذي سلكه ألا ريك ملك القوط سنة ٤١٠ م إلى إيطاليا ، إذ اقتحما من أضعف نقطة بها وهي الجهة الشمالية الشرقية . وكان أن اجتاز جبال الألب الجوليانية عبر ممر بريديل ، ثم واصل زحفه عبر التلال إلى أن ظهرت إيطاليا أمامه . ولما هبط بجموعه سهول البندقية لم يصادف أية مقاومة ، ووجد في انتظاره على ضفاف نهر بيافي Piave فيلكس أسقف تارفسيوم (تريفيسو) ، الذي توسل إليه ألا يمس كنيسته بأذى ، فأجابه إلى طلبه ، وأصدر براءة تتضمن حماية الكنيسة وامتيازاتها (٢) ثم واصل ألبوين تقدمه ، فاستولى على فيشنزا Vicenza وفيرونا ، وبذلك انعزلت منطقة الحدود في جنوب التيرول عن رافنا . واحتفظت القسوات الامبراطورية بمعدن بادوا التي تحيط بها المستنقعات ، ومونسليتشى Monselice ، ومانتوا . أما أكويليا فقد فر أهلها وأسقفها — حاملا معه كنوز الكنيسة — طلبا للنجاة ، إلى المأوى الطبيعي الذي هيأته لهم مستنقعات جرادو في دلتا نهر إيزوننتسو Isonzo ، تاركين المدينة نهبا لمصيرها المحتوم (٣) .

(1) Villari, The Barbarian Invasions of Italy, II, p. 279.

(2) Paul., p. 68.

(3) Hodgkin, V, pp. 158-160; Dudden, op. cit., I, pp. 89-92; Lot, Pfister & Ganshof, p. 211; Gibbon, II, p. 100.

وقبل أن يغادر ألبوين البندقية ، خشى أن تتعقبه قبائل الآفار أو أى قبائل مغامرة أخرى ، فحرمه من ثمة انتصاراته • ولهذا استقر رأيه على تأسيس دوقية فريولى ، حيث عهد بها الى ابن أخته جراسولف Grasulf قائد الفرسان ، واختار له جماعة من المحاربين اللومبارديين انتقاهم بعناية من أولئك الذين تجرئ في عروقهم أنبل الدماء ، وأمره بحراسة التلال الشرقية التي اجتاحتها بجموعه دون أية صعوبة تذكر ، بالإضافة الى صد أية محاولة يراد بها غزو إيطاليا ، والحفاظ على البندقية (١) وعلى هذا الأساس ، ضمن ألبوين السيطرة على مركز استراتيجى هام ، يعتبر من الناحية العملية أحد بوابات إيطاليا ، في الوقت الذى حرص على تغطية انسحابه في حالة الضرورة • والحق أن ألبوين حالفه التوفيق في إيطاليا ، ذلك أن الفرنجة في الغال (فرنسا) كانوا منهمكين آنذاك في منازعاتهم وحروبهم الأهلية ، في حين عجز البيزنطيون ، بسبب النقص في الرجال والأموال ، عن إبداء مقاومة فعالة من شأنها إيقاف عمليات الغزو (٢) •

واصل ألبوين زحفه على المدن الإيطالية في سهل البو ، فاجتاح في العام التالى (٥٦٩) ولاية ليجوريا ، ولم يكده يصل الى مدينة ميلان التى كانت مقرا لبعض أباطرة الرومان في العهود الماضية ، حتى لاذ رئيس أساقفتها بالفرار الى جنوة ، تاركا المدينة تفتح أبوابها للغازى في ٣ سبتمبر من نفس العام (٣) • ولم تلبث ولاية الألب الكوتية الممتدة من جنوب ليجوريا حتى البحر التيرانى ، أن حذت حذو ميلان (٤) ولم تستعص عليه غير مدينة تيكينوم Ticinum (بافيا) •

(1) Paul., pp. 65 - 66; Dudden, op. cit., I, pp. 92-94.

(2) Villari, II, pp. 279-280.

(3) Paul., p. 79; Hodgkin, V, p. 162; Dudden, I, pp. 94-95.

(4) Lot, Les Invasions., p. 278.

والواقع أن بافيا الواقعة في الزاوية المحصورة بين نهري تيشينو والبو ، كانت المدينة الوحيدة في الشمال الايطالى التى قاومت الغزو اللومباردى ، بسبب حصانتها ومناعة أسوارها ، كذلك يبدو أن حامية بيزنطية ضخمة كانت بداخلها آنذاك (١) وكان أهالى المدينة قد أغلقوا أبوابها في وجه البويين ، فحاصرها ، ولكنها قاومت بصلابة لم يعهدها البويين ، وهو المعروف بسرعة الملك ، فثارت ثائرتة ، وأقسم أنه سيفتك بأهلها وحاميتها حالما تسقط في يده . على أنه بعد حصار طويل دام ثلاث سنوات (٥٦٩ - ٥٧٢) توصل في النهاية الى الاستيلاء على المدينة . إذ انهارت شجاعة الحامية ، وفقد الأهالى القدرة على الصمود ، وانتشرت المجاعات والأوبئة بينهم ، الأمر الذى دفع الجميع بعد أن استبد بهم اليأس الى أن يفتحوا أبواب المدينة للغزاة ، بغض النظر عن المصير الذى ينتظرهم . ومن حسن حظ المدينة أن البويين لم يبر بقسمه ، فعفا عن سكانها بحجة أنهم مسيحيون ، وكان أن هرعوا الى القصر الذى يقيم به البويين ، معبرين عن فرحتهم وسعادتهم ، فالحياة غالية ولو كانت تحت وطأة بربرى عنيف (٢) . وبسقوط بافيا فقدت الامبراطورية البيزنطية الإقليم الذى عرفت سهوله منذ ذلك الحين الى وقتنا الحاضر بلومبارديا . ويعتبر سقوط هذه المدينة التاريخ الحقيقى لبداية حكم البويين فى ايطاليا خاصة بعد أن اختارها عاصمة لمملكته الجديدة ، واتخذ لنفسه لقب « سيد ايطاليا » Lord of Italy (٣) .

ومما يذكر أن البويين لم يتوقف عن مواصلة الغزو خلال حصار بافيا . اذ عهد لبعض ضباطه المخلصين باحكام حصارها ومراقبة مداخلها ومخارجها ، وأخذ ينتشر بقواته فى شمال ايطاليا ووسطها ، الى أن فرغ من اخضاع وادى البو كله لسيطرته فى سنة ٥٧٠ ، دون أن يواجه

(1) Dudden, I, p. 95.

(2) Paul., pp. 80-81; Hodgkin, V, pp. 163-164; Oman, op. cit., p. 185.

(3) Hodgkin, op. cit., V, pp. 161-162.

أى مقاومة من الأهالى أو الحاميات البيزنطية . وفى العام التالى عبر بجيوشه جبال الابنين ، حيث أمكنه الاستيلاء على توسكانى وأميريا ، وبعد هذا لم يحرز أى تقدم . وفى نفس العام أيضا اندفع نيبلان لومبارديان جنوبا ، وهما فاروالد Farwald وزوتو Zoto فاستطاع الأول إخضاع ولاية سبوليتو وبذلك قطع خطوط المواصلات بين روما ورافنا ، حين استولى الآخر على ولاية بنفنتوم فى جنوب إيطاليا ، ولكنهما استقلا بهاتين الولايتين ، وجعلا منهما دوقيتين قويتين ، صارتا شوكة فى حلق الملوك اللومبارديين فيما بعد (١) . كذلك استولى اللومبارديون على بولونا وإيمولا ، أما القلعة المنيعه التى كانت تحرس ممر فورلو Furlo Pass ، فقد جرى هدمها وتسويتها بالأرض ، خشية أن تقع مرة أخرى فى أيدي البيزنطيين ، ويتحكمون فى خطوط المواصلات بين شمال إيطاليا وجنوبها (٢) .

وعلى الرغم من أن القوات الامبراطورية عجزت عن الوقوف فى وجه الغزو اللومباردى ، مكتفية بالبقاء داخل أسوار المدن المنيعه ، فالواقع أن الامبراطورية البيزنطية لم تفقد نفوذها تماما فى إيطاليا ، وبعبارة أخرى ظلت محتفظة ببعض المدن الرئيسية : فى الشمال مدن بادوا ، ومانتوا ، وكريمونا ، وجنوه ، ورافنا ، وإقليم بنتابوليس بمدنه الخمسة على الساحل الغربى ، وفى الوسط مدن بيروجيا ، وروما والمنطقة المحيطة بها ، وفى الجنوب نابولى ، وسالرنو ، وبايستوم Paestum ، وكالابريا ، وبروتيوم (٣) .

(1) Hodgkin, V, p. 164; Dudden, I, p. 95; Lot, Les Invasions., p. 274; Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe, p. 284.

(2) Hodykin, V, pp. 164-165; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 211.

(3) Hodgkin, V, pp. 165-166; Dudden, I, pp. 95-96; Lot, Pfister & Ganshof, p. 211; Pirenne, p. 43.

ومن العرض السابق ، يتضح لنا أن معظم شمال إيطاليا قد عجز عن الصمود في وجه ألبوين ، فتهافت مدنه الواحدة بعد الأخرى في يده ، دون أية مقاومة تذكر من جانب الأهالي أو الحاميات البيزنطية ، باستثناء مدينة بافيا التي صمدت لحصار طويل ، ثم سقطت في النهاية كما رأينا . وعلى أية حال ، كان ألبوين لأسعد حظا من سابقه ألاريك ملك القوط الغربيين الذي اقتحم روما سنة ٤١٠ ، وأتيلا زعيم الهون الذي غزا إيطاليا ووصل الى أسوار روما سنة ٤٥٢ ، إذ لم يعترض طريقه قواد عظام على شاكلة ستليكو وأنتيوس ، ممن اعتمدت عليهم الامبراطورية الرومانية في حماية حدودها ودرء أعدائها البرابرة . ولو كان القائد الفذ بليزارىوس على قيد الحياة ، أو لو لم يتقاعد نارسيس مريضاً في ممتلكاته الخاصة ، لتغيرت أحوال إيطاليا الدفاعية تغييراً جذرياً . وعلى هذا خلت إيطاليا من حماتها ، اللهم إلا النائب الامبراطورى لونجينوس الذى بلغ من الضعف حدا جعله ينزوى وسط أخراش رافنا ، دون أن يحرك ساكناً . أضف الى ذلك أن الحروب التى شهدتها إيطاليا فى السنوات الأخيرة ، أو بالأحرى قبيل الغزو اللومباردى قد جنت عليها جناية ضخمة ، إذ خلفت وراءها الشقاء والجوع والأوبئة والطواعين ، وسلبت السكان حيويتهم ، حتى صاروا كأشباح هزيلة غارقة فى سبات عميق ، وأصبحت المدن شبه خاوية ، أما الريف فقد هجره معظم أهله الى نواح يتوافر بها الأمن والطمأنينة ، حتى لم يبق به إلا كلاب ضالة جائعة . وكان أن دهم اللومبارديون إيطاليا ، فزادوها شقاء على شقاء ، وبدأت الأمور وكأنما قد انتهت كل شئ . والخلاصة أنه خيم على البلاد سكون أبدي رهيب ، فلم يعد ثمة صوت يجوب فى أزقاتها وطرقاتها ، وسكنت أناشيد الرعاة ، وحلت محلها أصوات طبول الغزاة آتية من بعيد ، ناشرة الرعب والفزع بين الأهالي (١) .

(1) Dudden, I, p. 94; Wallace-Hadrill, Italy and the Lombards, p. 57.

وأخيرا ينبغي ألا ننسى أن اللومبارديين دخلوا إيطاليا بوصفهم أعداء علنيين وفاتحين ، على عكس القوط الشرقيين الذين دخلوها بزعماء ثيودريك العظيم (٤٨٩ - ٥٢٦) بوصفهم أصدقاء ، أى حلفاء (معاهدين) Foederati للامبراطورية . ولهذا لم يغيب عن بال بيزنطة أن اللومبارديين قد اغتصبوا إيطاليا ، وظل أباطرتها على مدى قرنين من الزمان يسعون بطرق شتى لاقتلاعهم من أرضها ، الأمر الذى ترتب عليه أن عاش اللومبارديون فى قلق وخوف ، وباتوا يكرهون بيزنطة كراهية مقبلة (١) .

مقتل ألبوين .

لم يهنأ ألبوين بالانتصارات التى أحرزها بإيطاليا فى زمن وجيز ، إذ شاعت الأقدار أن تكتب لـه نهاية حزينة ، فلم يمت فى معركة ، أو نتيجة لإصابة قاتلة ، بل مات على أيدي زوجته روزاموند . وقصة موت ألبوين أو نهايته الدرامية الأليمة ، عاشت فترة طويلة فى أغاني السكسون الملحمية ، ورددها المغنون البافاريون ، ومازالت ذكراهما باقية الى الآن وقتنا الحاضر (٢) ، شاهدة على إحدى صجور الغدر والقسوة التى حفلت بها الملاحم الجرمانية .

وتروى الساجة اللومباردية أن ألبوين فى أحد الأيام الأخيرة من

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 57.

(2) Dudden, op. cit., I, pp. 95-96.

ويرى جريجورى التورى أن روزاموند كانت تكره البون قاتل أبيها ، وظلت تتحين فرصة للانتقام منه . وكان أن تأمرت مع خادم لها ، وضع السم لسيدة ، مما أدى الى موته . وقد حاولت الملكة الفرار مع خادمها . ولكنها فشلت فى محاولتها ، إذلقى القبض عليها وجرى قتلها . وقد أخذ طومسون بهذه الرواية ، انظر :

Gregory of Tours, The Hist. of the Franks, II, p. 149; Thompson, The Middle Ages, I, p. 168.

شهر مايو سنة ٥٧٢ ، كان يجلس مع رفاقه من كبار النبلاء في قصره بفيرونا ، يشربون ويستمتعون بأطياب الطعام • ودار الحديث بينهم حول الشجاعة التي أبدوها خلال غزوهم لإيطاليا • ولما فرغ الرفاق من حديثهم ، وجاء دور الملك ، أخذ يحكى لهم كيف قهر كونوند ملك الجيبيدای ، وأراداه قتيلا بسيفه ، ثم شكل من جمجمته كأسا لشرابه • وهنا التفت ألبوين الى ساقيه ، وأمره في مرح صاخب أن يأتيه بهذا الكأس ، وبعد أن ملأه بالنبيذ أمر زوجته في سخرية لاذعة أن تشربه كله ، فامتثلت مكرهة ، وحتى لا تبدى ضيقها افتعلت ابتسامة على وجهها ، وإن كانت في داخلها قد أضمرت الانتقام لكرامتها الجريحة بقتل ألبوين ، الذي لم يكفه أنه سحق قومها ، ومثل بأبيها ، وأجبرها على الزواج منه (١) • وبداة اتصلت الملكة بهلمكيس Helmechis حامل سلاح الملك وأخوه بالرضاعة (أو بالتربية) ، وأخذت تحرضه على الاشتراك معها في التخلص من ألبوين ، وخشية أن يتراجع وعدته بالزواج منها وتقدير عرش الملكة اليه • ولما كان العرض مغريا وافق هلمكيس ، ولكنه أبى يلطخ يده بدم أخيه (الملك) ، وأشار عليها أن تضم إليها بيريديو Peredeo أقوى أبطال اللومبارديين صاحب القوة الجسمانية الخارقة ، ليقوم بهذا العمل • وكان أن وصل بها التفكير في الوسيلة التي تهوئ بيريديو في المؤامرة بأن أغرته بجمالها ، وباعت شرفها له • وعندئذ خبرته بين أمرين ، إما أن يقوم بقتل الملك ، وإما أن يقتله الملك بعد أن دنس شرفه ، فاختر بيريديو البقاء حيا (٢) • ولم تلبث المؤامرة البشعة أن صارت موضع التنفيذ • إذ كان من عادة ألبوين التوجه الى مخدعه وقت الظهيرة ، لينال قسطا من الراحة والنوم ، فاستغلت الملكة فرصة هدوء القصر في هذه الآونة

(1) Paul the Deacon, pp. 81-82; Hodgkin, op. cit., V, pp. 168-169; Gibbon, II, p. 101; Oman, op. cit., p. 185; Villari, II, p. 282.

(2) Paul., p. 82; Dudden, I, p. 96.

موعدا لتنفيذ المؤامرة ، وأُخذت جناح الملك من الحراس والخدم . أما سيف زوجها الذي اعتاد الحاجب أن يعلقه فوق فراش الملك ، فقد حرصت روزاموند هذه المرة على ربطه بإحكام بطريقة تعوق انتزاعه من غمده . ويبدو أن البوين بعد أن استرخى في فراشه ، أحس بحركة غير عادية في جناحه ، فقفز من فوق سريره ، وأسرع إلى تناول سيفه ، ولكنه لم يستطع أن يخرج من قرابه : وفي هذه اللحظة فاجأه الحاجب القوي بضربات من سيفه أردته قتيلا ، بعد أن دافع عن نفسه بشجاعة (١) . وهكذا انتهت حياة البوين كما رواها بولس الشفاس ، فمات ميتة غادرة . أما روزاموند فقد هداً بالها ، بعد أن انتقمت لقومها وأبيها ، وردت الإهانة التي ذلت كبرياءها أمام كبار النبلاء .

ولا شك أن مصرع البوين بهذه الصورة المروعة قد أثر تأثيرا بالغاً في قلوب الزعماء والمحاربين اللومبارديين . فحملوا جثمانه باجلال وحزن عميقين ، وقاموا بدفنه أسفل درجات سلم القصر ، ويروى بولس الشفاس أن جيزالبرت دوق فيرونا في القرن الثامن ارتكب عملاً أحمق ، عندما فتح القبر ، وأخرج منه سيف البوين وذخائره ، وأخذ يتباهى جذلاً بأنه « رأى البوين ! » (٢) .

وعلى أية حال ، انهارت الآمال التي بناها المتآمرون . إذ ارتفعت صيحات الغضب العالية في المملكة اللومباردية ، منددة بهذه الجريمة الشنعاء ، ومطالبة بالتأثر من مرتكبيها . وهنا أحس هلمكيس وروزاموند أن أصابع الاتهام أخذت تشير إليهما ، وخوفاً على حياتهما اتصلا سرا بالنائب الامبراطوري لونجينوس في رافنا ، يلتمسان اللجوء إليه ، فوافق مرحباً ، ورتب أمر فرارهما على إحدى السفن البيزنطية عبر نهر

(1) Paul., pp. 82-83; Hodgkin, V, pp. 169-171; Villari, op. cit., II, pp. 282-283.

(2) Paul., p. 83; Dudden, I, p. 97; Oman, op. cit., p. 186.

البو ، حيث استقلها تحت جناح الظلام حاملين معها الكنوز الذهبية ، كما أخذت روزاموند طفلتها ألبسويندا من ألبوين معها (١) .

وفي رافنا عقد روزاموند وهلمكيس قرانهما ، ولكن حدث ما لم يكن متوقعا . وفي هذا الصدد يشير بولس الى أن الملكة الفاتنة وكنوزها راقتا في عيني لونجينوس ، الذى عرض عليها ان تتلخص من زوجها لتصبح زوجة له وبالتالي تحمل لقب « سيدة رافنا » . ويبدو أن دماء الغادر كانت تجرى في عروق روزاموند ، بدليل أنها انسأقت لرغبة لونجينوس . وكان أن انتهزت فرصة انتهاء زوجها من حمامه الرومانى . وقدمت اليه السم في كأس شراب منعش . ولما فرغ هلمكيس من احتساء نصفه ، أحس بها دبترته زوجته ، وفي التو أمسك بسيفه ، ووجه سنده الى صدرها ، ثم أمرها أن تشرب بقية الكأس ، والا عاجلها بضربة قاتلة ، وفي كلتا الحالتين كان الموت في انتظارها ، فشربت الكأس (٢) . وهكذا مات الخائن معا ، ووصلت المأساة التى بدأت فصولها في فيرونا الى خاتمتها في رافنا . أما الطفلة البسويندا ، فقد أرسلها لونجينوس الى القسطنطينية ، ومعها كنوز أمها وذخائرها .

أما ثالث المتآمرين وهو بيريديو الحاجب ، فقد أشار بولس الشماس الى أنه أتى الى رافنا في صحبة هلمكيس وروزاموند . وبعد موتها أرسله لونجينوس مع الطفلة ألبسويندا الى القسطنطينية . وهناك أظهر قوته الخارقة بقتل أسد ضار في جلبة المصارعين Hippodrome . مما جعل الامبراطور البيزنطى يتوجس خيفة من قوته ، فأمر بسمل عينيه . ولكن « شمشون القرن السادس » عول على الانتقام ، فأخفى سكينين حادين في طيات ثوبه ، وأبدى رغبته في مقابلة الامبراطور ،

(1) Paul., p. 84; Hodgkin, V, pp. 171-172; Gibbon, op. cit., II, pp. 101-102.

(2) Paul., pp. 84-85; Hodgkin, V, p. 172; Dudden, I, p. 97.

متذرعاً بأن لديه سرا لا ييوح به لغيره • على أن الامبراطور أفلت من محاولة اغتياله ، إذ عهد لاثنين من مستشاريه المقربين بالوقوف على هذا السر • فلما اقترب بيريديو منهما أخرج فجأة السكينين ، وعاجلها بطعنيتين نافذتين أودت بحياتهما (١) •

ونستخلص من هذا الرواية الأسطورية أن بولس الشماس — على ما يبدو — قد خلط بين المصادر التي استقى منها معلوماته • إذ لو أغفلنا الجانب الأسطوري منها ، لوجدنا — كما أجمعت المصادر المعاصرة — أن ألبوين قد لقي حتفه على أيدي أتباعه بقصره في فيرونا ، بعلم زوجته وموافقتها ، هذا في الوقت الذي أغفلت المصادر حقيقة الدور الذي لعبه بيريديو في التآمر على قتل سيده (٢) • ويرى المؤرخ رنكه Ranke أن رواية بولس تدل على أن نزاعاً خطيراً احتدم في صفوف اللومبارديين ، جعلهم ينقسمون الى حزبين ، أحدهما كان في جانب البيزنطيين ويعمل لمصلحتهم ، والآخر كان وطنياً لا يؤيد هذا الاتجاه ، وهو الذي أعلن سخطه على مقتل ألبوين ، ونجح في احباط مشاريع روزاموند وخططها (٣) •

ومهما يكن من أمر ، فقد اجتمع المحاربون اللومبارديون في عاصمتهم بافيا ، لاختيار خليفة لألبوين ، الذي لم يترك وراءه ولداً ، فوقع اختيارهم على كيف Cleph دوق برجامو ، وهو من أصل نبيل ومن أقوى دوقات المملكة (٤) • ومن الملاحظ أنه أساء التصرف في شؤون الحكم ، إذ عمد الى سفك دماء العديد من نبلاء الرومان ، وقام بنفى بعضهم الى خارج ايطاليا (٥) • وعلى حين أنه استكمل غزو الشمال الايطالى حتى الأطراف الجنوبية

(1) Paul., pp. 85-86; Dudden, I, pp. 181-182; Gibbon; II, p. 102.

(2) Paul., pp.82-83, n. 1.

(3) Villari, II, p. 283.

(4) Paul., p. 86.

(5) Ibid.

لتوسكاني ، بيد أنه لم ينعم بالحكم طويلا ، إذ لقي حتفه على أيدي أحد خدمه في حوالي منتصف سنة ٥٧٤ ، كان قد أساء إليه وألحق به ظلما (١) .

فترة الشغور (٥٧٤ — ٥٨٤) :

عقب مقتل كليف ، اجتمع الزعماء اللومبارديون في بافيا ، وهم الذين يعرفون في التاريخ بأسم « الدوقات اللومبارديين » Lombard Dukes لا اختيار شخصية من بينهم تتولى العرش ، أو تقوم بالوصاية على القاصر أو ثاري (٢) . وفي هذا الاجتماع تفاقمت حدة الخلاف بين الدوقات ، وانفضوا دون الوصول إلى اتفاق . والمهم أنهم لم يعملوا على نبذ خلافاتهم وجمع كلمتهم باختيار ملك طيلة عشر سنوات (٥٧٤ — ٥٨٤) ، وهي فترة عرفت في تاريخهم بفترة انقطاع الملكية أو « فترة الشغور » .

والمعروف أن هؤلاء الدوقات خلال المراحل الأولى من الغزو ، وضعوا أيديهم على الأقاليم التي انتزعوها من الامبراطورية البيزنطية ، واستقلوا بها عن السلطة المركزية في بافيا ، وهو وضع شاذ لا نجد له نظيرا في الممالك الجرمانية الأخرى ، وعلى سبيل المثال مملكة القوط الغربيين في أسبانيا ، أو مملكة الفرنجة في الغال (٣) . ويكشف لنا تاريخهم وقتئذ أن نفوذهم قد تراوح بين القوة والضعف ، فمن بين الدوقات الخمسة والثلاثين الذين اقتسموا السيادة على المناطق اللومباردية ، برز عدد ضئيل وهم : والاري دوق برجاسو ، وألكيس Alichis دوق بريسيكيا ، وإيرون Euin دوق ترنت ، وجيزولف دوق فريولي ، وفروالد دوق سبوليتو ، وزوتو دوق بنفنتوم ، ويأتي زابان في مقدمتهم جميعا ، بوصفه دوق بافيا عاصمة المملكة اللومباردية (٤) .

(1) Hodgkin, V, pp. 181-182; Gibbon, II, p. 102; Oman, op. cit., p. 186.

(2) Paul., p. 86; Hodgkin, V, p. 182; Dudden, I, p. 158.

(3) Hodgkin, V, p. 185.

(4) Paul., pp. 86-87; Hodgkin, V, pp. 185-186; Dudden, I, p. 158.

ولعل في احتفاظ الدوقات اللومبارديين بالسلطة في أيديهم ، وبقاء عرش مملكتهم شاغرا طيلة عشر سنوات ، وما نجم عن ذلك من فوضى وبعثرة للجهود ، كان فرصة مواتية في يد بيزنطة للاطاحة باللومبارديين ، كما فعلت من قبل مع البرابرة الذين تعاقبوا على إيطاليا ، ولكن أحوالها المنهارة آنذاك وقفت حائلا دون ذلك ، الأمر الذي جعل اللومبارديين قادرين على الوقوف ضد القوات الامبراطورية الضعيفة في إيطاليا من ناحية ، والاحتفاظ بالأقاليم التي صارت في حوزتهم من ناحية أخرى (١) .

على أن اللومبارديين من جانبهم أضاعوا فرصا ثمينة ، إذ لو أنهم عملوا على طرح منازعاتهم بعيدا ، وحصروا اهتمامهم في توحيد قواهم وتماسكهم ، لاستطاعوا بقليل من الجهد اتمام غزو شبه الجزيرة كلها . وليس أدل على ذلك من أن فروالد دوق سبوليتو استطاع الاستيلاء في سنة ٥٧٩ على ميناء كلاسييس الواقع على البحر الأدرياتي على مسافة ثلاثة أميال من روما ، وبعد أن جرده من كنوزه ترك به حامية لمومباردية ، حدث هذا في الوقت الذي لم يتحرك النائب الامبراطوري لونجينوس ، فيما عدا أنه تأهب للدفاع عن رافنا (٢) . ومن جهة أخرى ، عزل الدوقات اللومبارديون أنفسهم داخل دوقيتهم الصغيرة خلال فترة الشغور ، وراحوا يشنون حروبا هزيلة ضد بعضهم البعض من ناحية ، وضد جيرانهم البيزنطيين من ناحية أخرى . وبذلك أضاعوا فرصة تأسيس مملكة موحدة قوية .

وفي وسط الفوضى التي عاشها اللومبارديون ، انغمس دوقيتهم في القيام بسلسلة من الحملات الفاشلة ضد جيرانهم الفرنجة في جنوب الغال . ولا يخفى أن هذه السياسة قد أملأها الطيش والاندفاع ، إذ

(1) Loī, Les Invasions., pp. 278-279.

(2) Paul., pp. 111-112; Dudden, I, p. 159.

لم يكن ثمة داع لإثارة غضب جار قوى كان يوسع أن يطارده هؤلاء الدوقات في عقر دارهم جنوبى الألب ، ويستولى على ما تحت أيديهم من أقاليم ، كان واجبهم آنذاك أن يعملوا على تثبيتها ، ولكن شاء حظهم السعيد أن الفرنجة كانوا منشغلين بأمورهم الداخلية (١) . وكان الدوقات اللومبارديون في أعقاب غزوهم ايطاليا بين سنتى ٥٦٩ و ٥٧١ ، قد اجتازوا جبال الألب ، وأغاروا على بورجنديا التابعة للفرنجة في المنطقة الواقعة بين الرون وجبال الألب ، حيث قتلوا العديد من الأهلالي بما فيهم القائد أماتوس ، ثم رجعوا بثقلين بالغنائم (٢) . ولكنهم عندما عاودوا الاغارة على بورجنديا في العام التالى (٥٧٣) لم يكن الأمر سهلا كما ظنوا . هذه المرة ، إذ حل القائد العظيم مامولوس Mammolus محل أماتوس . ولما التقى بهم بالقرب من مدينة إمبرون Embrun ، أنزل بهم هزيمة ساحقة ، أسفرت عن سقوط العديد منهم قتلى ، وعودة فلولهم تجر أذيال الهوان (٣) .

ورغم الهزيمة التى لحقت بالدوقات اللومبارديين ، إلا أنه في بداية فترة الشغور (٥٧٤) خرجت ثلاث جماعات لغزو بورجنديا ، وقد اتخذت الجماعة الأولى بقيادة الدوق آنو Anno طريق إمبرون ، حيث تقدم الى إقليم أفينون ونصب معسكره به ، أما الجماعة الثانية بقيادة زابان دوق بافيا ، فقد وصلت مدينة فالنس ، وألقت الحصار عليها ، في حين بلغت الجماعة الثالثة بقيادة الدوق رودان جرينوبل ، وفرضت الحصار عليها أيضا . وفي هذه الأثناء استطاع آنو أن يخضع إقليم آرل والمدن المحيطة به لسيطرته ، ثم توغل بعيدا حتى وصل ستونى فيلد Stony Field بالقرب من مرسيليا ، وشرع في حصار مدينة

(1) Villari, II, pp. 281-282.

(2) Gregory of Tours, I, p. 113, II, p. 149; Paul., p. 96; Lot, Les Invasions., p. 279; Dill, Roman Society in Merovingian Age, p. 221.

(3) Paul., pp. 96-97.

أكس Aix ، بيد أنه لم يلبث أن انسحب من الحصار ، بعد أن دفع له سكانها اثنتين وعشرين رطلا من الفضة (١) . ولما وصلت الأخبار الى القائد مامولوس ، انطلق بجيوشه الى جرينوبل ، فوجد رودان قد بدأ في الهجوم عليها ، وعندئذ التقى معه في معركة أنزلت به خسائر فادحة ، جعلته يلوذ بالفرار مدحورا الى زابان ، الذي كان كان منهكما في حصار فالنس . ويبدو أن الدوقات الثلاثة أحسوا ازاء الهزيمة التي تعرضوا لها بصعوبة موقفهم ، إذ فجأة تركوا غنائمهم وارتدوا الى إمبرون . على أن ما مولوس استطاع اللحاق بهم ، وهناك اشتبك معهم في معركة انتهت الى هزيمتهم هزيمة حاسمة ، جعلتهم يعودون بفلولهم الى ايطاليا (٢) .

وكانت النتيجة لهذه الهزائم المتكررة التي أصابت اللومباردين بالغة الأهمية . إذ أنها مدت الحدود البورجنديّة فوق جبال الألب ، وباتت مملكة الفرنجة منذئذ في منأى عن أى تهديد لومباردى (٣) . ومن الواضح أيضا أن الحملات الفاشلة التي قام اللومبارديون بها ضد مملكة الفرنجة ، أقامت جسرا من العداءة بين الجانبين ، عملت بيزنطة على استغلاله لصالحها ، إذ أمكنها التحالف مع الفرنجة ضد اللومبارديين (٤) .

عودة الملكية اللومباردية :

ولا شك أن وقوع اللومبارديين تحت سيطرة دوقاتهم ، وما ترتب عليه من انغماسهم في تيار الفوضى والمنازعات ، وبقائهم دون ملك يقود دفتهم ، ويرعى شؤونهم ، كل ذلك جعلهم على شفى الانهيار ، وهدد كيانهم بالفناء . ومما يذكر هنا أن قبائل السكسون التي رافقت ألبيين

(1) Gregory of Tours, II, p. 153; Paul., pp. 100-101.

(2) Gregory of Tours, II, pp. 153-154; Paul., p. 101.

(3) Dill, p. 206.

(4) Dudden, I, p. 160.

في زحفه على ايطاليا ، قررت الانسحاب نهائيا من هذا القطر والعودة الى اوطانها شمالي الألب . ويرجع السبب في ذلك الى أنها أرادت الاحتفاظ بمؤسساتها ونظمها وتقاليدها ، ولكن اللومبارديين عارضوا هذا الاتجاه بشدة ، ومن ثم بدأت في رحلة العودة بعد أن حصلت على موافقة مملكة الفرنجة باجتياز أرضها (١) ، وبذلك حرم اللومبارديون من مساندة قوة حربية ضخمة . ويمكننا القول أن الطريق وقتئذ أضحى ممهدا أمام بيزنطة لتعزيز حامياتها المرابطة بايطاليا ، ودفعها للهجوم على الدوقات اللومبارديين وجماعاتهم القليلة ، ولكن بيزنطة لم يكن في وسعها أن توفر الجند ، بسبب ضعفها وجسامة الأعباء الملقاة على كاهلها ، بل وصل الأمر بالامبراطور جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨) الى التخلي عن مشاريع سلفه جستينان في الغرب الأوربي ، لانشغاله بجماعات الآفار والسلاف التي اجتاحت أوروبا ، وتجدد خطر الفرس على الحدود الشرقية ، وبعبارة أخرى أولت بيزنطة اهتمامها بالشرق ، في حين احتل الغرب المرتبة الثانية من مشاريعها (٢) .

وفي وسط هذه الظروف ، أضحت الأقاليم الامبراطورية بايطاليا في وضع بالغ الصعوبة ، اذ لم تسلم من غارات اللومبارديين وتهديداتهم المستمرة ، في حين انقطعت خطوط مواصلاتها مع رافنا الى حد بعيد . ومع هذا لم يفقد السكان الرومان الأمل في بيزنطة ، وظلوا يترقبون مساندتها . وعند ذلك عزل الامبراطور جستين الثاني نائبه في ايطاليا لونجينوس ، وعين بدلا منه أحد أقصاريه وهو باديواريوس Baduarius لمواجهة اللومبارديين ، فخرج على رأس حملة ضخمة رست في نابولي ، ولكنه خلال مروره بكمبانيا اصطدم باللومبارديين ، فأوقعوا به هزيمة مات على اثرها متأثرا بجراحه في سنة ٥٧٦ (٣) . ويبدو أن اليأس لم

(1) Paul the Deacon, p. 98.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 212.

(3) Villari, II, p. 286.

يستبد بالسكان الرومان ، وقرروا أن يتصلوا اتصالا مباشرا بجستين الثانى طلبا للمساعدة ، فبعثوا اليه بسفارة تحمل معها ثلاثة آلاف رطل من الذهب هدية ، بغرض ارسال قوة حربية كفيلة بحماية البابا ومدينة روما من ضغط الغارات اللومباردية ، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، اذ أصيب جستين الثانى بالجنون وأبعد عن العرش ، وخلفه تيبيريوس (٥٧٨ - ٥٨٢) • ولما كان الأخير منهما فى حروبه ضد الفرس ، فقد أوصى أعضاء السفارة بتقديم الذهب للدوقات اللومبارديين ، ليكون وسيلة اغراء لاقف اعتداءاتهم على الممتلكات الامبراطورية ، أما اذا أخفقوا فى استمالة هؤلاء الدوقات ، فعليهم اعطاء الذهب للفرنجة لحثهم على التدخل فى ايطاليا وكبح جماح اللومبارديين (١) ، وهكذا ظهر عجز البيزنطيين واضحا عن استرداد هيبتم فى ايطاليا •

على أن الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) لجأ الى وسيلة عملية أكثر نفعا مما لجأ اليه سلفه ، إذ أعاد تنظيم الادارة الرومانية فى شبه الجزيرة الايطالية ، باقامة نظام الاكسارخية ، وبمقتضاه جمع الإكسارخ(٢) Exarch فى يده السلطتين العسكرية والمدنية ، وتعزيزا لمركزه خلع

(1) Ibid, pp. 286-287.

(٢) رغم أن القائد نارسيس كان يجمع فى يده السلطتين العسكرية والمدنية ، الا أنه لم يحمل لقب اكسارخ . اذ أطلق هذا اللقب لأول مرة على سمراجدوس ، وبمقتضى السلطة العسكرية المخولة ، صارت الفرق العسكرية فى ايطاليا تحت نفوذه المطلق ، بإمكانه اعلان الحرب وعقد اتفاقيات السلام . وقد بلغت سلطاته المدنية مدى واسعا ، اذ صار مسئولا عن الشؤون القانونية والادارية والمالية ، كذلك كان له حق التدخل فى الامور الدينية ، فيما عدا التصديق على انتخاب البابا . هذا وقد اقام الاكسارخات فى رافنا .
أنظر :

Dudden, op. cit., I, pp. 180-181.

عليه موريس لقب « باتريكيوس » بطريق واكسارخ ايطاليا

• (١) Patricius et exarchius Italiae

والى جانب ذلك ، أحسن موريس استغلال فرصة تدهور العلاقات بين اللومبارديين وجيرانهم الفرنجة لاغرائهم على محاربة اللومبارديين ، والحيلولة دون توسعهم على حساب بيزنطة • وبمعنى آخر يمكن القول أن فكرة ضرب اللومبارديين بالفرنجة التى سيطرت على ذهن سلفه تييريس (٢) ، قد حدث به الى التحالف مع الفرنجة ، كما سنرى بعد قليل •

وعلى أية حال ، بدأ الدوقات اللومبارديون يعون أن انقسامهم على أنفسهم ، وانحدارهم الى مهاوى الفوضى فى غياب السلطة المركزية ، نذيرا بضياهم ، خاصة أن بيزنطة عدوهم الأول حرصت على توطيد علاقتها بالفرنجة من أجل القضاء عليهم • ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان أهالى ايطاليا من الرومان باتوا أكثر تلهفها على الاطاحة بهم ، لما قاسوه من غارتهم الفاضحة واعتداءاتهم المتكررة • وازاء هذا الوضع رأى اللومبارديون أن يغيروا سياستهم غير المتماشية ، فعقد الدوقات اجتماعا لهذا الغرض فى ربيع سنة ٥٨٤ ، أجمعوا فيه على أن عودة الملكية والالتفات حولها ، هى الحل الحاسم الذى لا يتوافر غيره ، وكان أن وقع اختيارهم جميعا على أوثارى (٥٨٤ - ٥٩٠) وريث كليف ملكا عليهم (٣) • والملاحظ فى هذا الاجتماع ، أن اللومبارديين تخلوا عن مبدئهم الجرمانى القديم القائم على انتخاب الملك كقائد أعلى وقت الحرب فقط ، واتفقوا جميعا على أن تأخذ الملكية صفة الدوام (٤) ولما كان

(1) Diehl, Hist - of the Byzantine Empire, pp. 47-48; Diehl & Marçais, Hist. du Moyen Age, III, p. 222; Thompson, The Middle Ages, I, p. 168.

(2) Thompson, op. cit., I, p. 169; Oman, op. cit., p. 192.

(3) Paul., p. 113; Hodgkin, V, p. 231; Dudden, I, p. 160.

(4) Gregory of Tours, I, p. 179.

النظام الملكى يستلزم دخلا مناسباً يفي بنفقات البلاط والحاشية والموظفين ، وهى مظاهر ملوكية لا بد منها ، فقد وافق الدوقات على التنازل عن نصف ممتلكاتهم فى دوقياتهم الى أوثارى ، وكانت هذه الممتلكات قد آلت اليهم من كبار النبلاء الرومان بطريق الاغتصاب أو المصادرة (١) . والى جانب ذلك أطلق الدوقات على أوثارى لقب فلافيوس Flavius ، وهو لقب رومانى الأصل ، لم يعد قاصرا عليه ، بل استخدمه خلفاؤه من بعده (٢) . والمواقع أن هذا اللقب يحمل فى طياته دلالة عميقة ، إذ كان من الألقاب المحببة لنفوس الرومان ، الذى يثير خيالهم بذكرى أمجاد الأسرة الفلافية الشهيرة فى التاريخ الرومانى ، وقد درج الأباطرة الشرقيون الذين أعقبوا هذه الأسرة على استخدامه ، وما لبث الملوك والحكام الجرمان أن خلعوه على أنفسهم ، وعلى سبيل المثال أودواكر الذى صار سيد ايطاليا على إثر سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ ، وريكارد الأول ملك القوط الغربيين فى أسبانيا (٥٨٦ - ٦٠١) (٣) . ولا شك أن الدافع الأساسى الذى يكمن وراء هذا اللقب ، هو اضافة الشرعية على الوجود اللومباردى بايطاليا (٤) ، بالإضافة الى أن أوثارى استهدف به كسب ود رعاياه الرومان واللومباردين على حد سواء (٥) . والجدير بالذكر أن أوثارى خلع على نفسه لقباً آخر وهو « الرجل المتفوق » ، فضلا عن لقبه الأصلى « ملك الشعب اللومباردى » Rex Gentis Longobardarum (٦) . وعلى أية حال ، فقد أنهت عودة الملكية الى اللومباردين على يد أوثارى سنوات الفوضى

(1) Villari, op. cit., II, p. 290.

(2) Paul., pp. 113-114.

(3) Hodgkin, V, p. 234.

(4) Ibid.

(5) Lot, The End of the Ancient World, p. 287.

(6) Ibid, p. 237.

والتشتت ، وانعقدت الآمال عليه في تحقيق ايطاليا اللومباردية الموحدة ،
ولكن الفرص الحاسمة ، كما سنرى — كانت قد ولت وضاعت •

والحق شخصية الملك الشاب أوثارى ، بما تميزت به من قوة
وحيوية ومقدرة ، عادت عليه بشهرة واسعة ألهمت خيال قومه ومشاعرهم ،
وجعلت الأساطير تحوم حوله • وقد بدأ حكمه باخماد الفتن والاضطرابات
التي سادت قومه ، وأوقف الحملات الفاشلة على جارته مملكة الفرنجة ،
وبذل جهدا متواصلا لتوحيد الأقاليم اللومباردية تحت نفوذه ، وذلك
باخضاع الدوقات الخارجين عليه ، خاصة دوقى بنفنتو وسبوليتو •
ويقال انه بعد أن فرغ من تلك المهام ، واصل زحفه منتصرا خلال المناطق
التي تؤلفها هاتان الدوقيتان ، ثم اندفع الى ولاية بروتيوم ، ومنها
الى مدينة ريجيو Reggio الواقعة في أقصى الطرف الجنوبي لشبه
الجزيرة الايطالية ، حيث امتطى صهوة فرسه ، وانطلق الى غمار
البحر ، ولمس بحريته عمودا برز من بين الأمواج ، وقال : « ليكن هذا حد
مملكة اللومبارديين » ، ويروى بولس أن هذا العمود أطلق عليه عندئذ
« عمود أوثارى » (١) • وإذا كان من الثابت أن بروتيوم لم يقدر لها
في يوم من الأيام أن تسقط في أيدي اللومبارديين ، فالواقع أن هذه الأسطورة
ليست الا رمزا للأمل الذي كان يداعب اللومبارديين في اخضاع شبه
الجزيرة الايطالية كلها لنفوذهم (٢) • ويرى البعض أن هذه الأسطورة
لا أساس لها من الصحة ، إذ كان من المستحيل على أوثارى أن يتغيب
عن مقره في شمال ايطاليا ويتوغل بعيدا ، في الوقت الذي كان الامبراطور
البيزنطي يحث الفرنجة على استئناف الحرب ضد اللومبارديين (٣) •

(1) Paul., pp. 145-146; Hodgkin, V, pp. 235-236; Dudden, I, pp. 166-167; Gibbon, II, p. 105; Mann, The Lives of the Popes, I, pp. 12-113.

(2) Oman, op. cit., p. 193;

موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣٣٥ •

(3) Villari, op. cit., II, p. 291.

وفي هذه الأثناء ، حدث أن فر الدوق اللومباردي دركتولف
 Droculti لاجئاً الى رافنا البيزنطية * ويبدو أنه كان قد وقع
 من قبل أسيرا في أيدي القوات البيزنطية ، خلال إحدى المعارك التي
 دارت بينها وبين اللومبارديين ، نقل على اثرها الى رافنا * ومثل
 العديد من زعماء الثبرابرة ، بهرته الحضارة البيزنطية رغم تداعياها آنذاك ،
 فارتبط بالبيزنطيين وحالفهم ضد قومه * وعلى أية حال ، لم يلبث أن
 زحف بقواته الى مدينة بريسيلو Bresceilo (بركسيلوم) - وهي
 مدينة لومباردية صغيرة على نهر البو الأوسط - حيث نجح في الاستيلاء
 عليها * وكان غرضه من ذلك اعاقة خطوط مواصلات اللومبارديين خلال
 الطريق الايميلي العظيم Aemilian way ، الذي يربط مدن بارما
 وبلاسنتيا ومودينا بعضها البعض ، في حين يمكنه الابصار بسفنه
 أعلى وأسفل نهر البو ، والحفاظ على طريق مواصلاته مع البحر
 الأدرياتي (١) * غير أن أوثاري لم يقف ساكنا ، إذ تقدم على رأس
 جيوشه صوب هذه المدينة ، وضيق عليها الخناق الى أن سقطت في
 يده ، ثم أمر بهدمها وتسويتها بالأرض ، أما دركتولف فقد اضطرته
 الهزيمة للفرار بفلوله الى رافنا (٢) *

وحوالي هذا الوقت أيضا ، انشغل أوثاري بمسألة وراثة العرش
 من بعده * ولما كانت أسعد أمانيه أن يخلفه ولد من صلبه ، فقد صح
 عزمه على الزواج (٣) * والحق أن قصة زواج أوثاري من الأميرة
 البافارية ثيوديلندا أمركان من الممكن ألا نُسغل الأذهان به ، لولا
 المكانة الرائعة التي احتلتها في قلوب رعاياها اللومبارديين من ناحية ،
 ودورها الفعال الذي انعكس على مستقبل أحوالهم السياسية والحضارية
 من ناحية أخرى *

(1) Hodgkin, V, pp. 242-244.

(2) Paul., pp. 118-119.

(3) Villari, II, p. 292.

ووفقا لما أورده بولس الشماس ، أراد أوثارى زوجة له ، فأرسل الى تشلدبرت ملك الفرنجة طالبا يد أخته ، فوعده خيرا ، ولكنه ما لبث أن نكث وعده بعد أن وصلته سفارة من قبل القوط الغربيين في أسبانيا تطلب بدورها يد أخته للملك ريكارد الأول ، فوافق مرحبا ، وقد دفعه الى ذلك أن القوط الغربيين آنذاك قد صاروا مثل الفرنجة على المذهب الكاثوليكي ، في حين ظل اللومبارديون على آريوسيتهم ، شأنهم في ذلك شأن غالبية الشعوب الجرمانية (١) . وعندئذ أرسل أوثارى سفارة الى جاريبالد دوق بافاريا الذي يدين بالتبعية لملك الفرنجة ، طالبا يد ابنته الجميلة ثيوديلندا ، فأجابه الى طلبه مرحبا (٢) ويرى البعض أن السبب الذي من أجله طلب أوثارى يد ثيوديلندا كان سياسيا بالدرجة الأولى ، ومن شأنه أن يخدم مصالحه ، إذ كانت العلاقات بينه وبين مملكة الفرنجة آنذاك قد أخذت طابعا عدائيا ، الأمر الذي جعله يضع في اعتباره الافادة من دوقية بافاريا المتاخمة لأراضي تلك المملكة (٣) . وان كان المؤرخ هودجين يرى أن الدافع القوي لزواج أوثارى من ثيوديلندا ، يتمثل في ارتباطها ببنت ليتنجي اللومباردي العريق ، فهي تنحدر من جهة أبيها الى شعب الماركوماني المحارب ، ومن جهة أمها الى ملوك اللومبارديين القدماء ، فأمها ابنة الملك واكو ، الذي حكم مدة طويلة في بانونيا (٤) .

ومن الطريف أن أوثارى كان يتحرق شوقا لرؤية خطيبته ليحكم عليها بنفسه . ولهذا الغرض اختار بعض أتباعه المقربين ، وأوفدهم في سفارة الى بافاريا برئاسة شيخ طاعن في السن ، وانضم هو الى عضويتها مخفيا شخصيته تحت اسم مستعار . وعند وصول السفارة الى بافاريا

(1) Paul., p. 136; Gregory of Tours, II, p. 397.

(2) Paul., pp. 137-138.

(3) Villari, II, pp. 292-293.

(4) Hodgkin, V, p. 285.

استقبلها جاريبالد بحفاوة بالغة ، وفي الحفل الذي أقامه على شرفها ، وقف الشيخ العجوز وألقى خطبة كال فيها المديح للأميرة ثيوديلندا ، ثم تقدم أوثارى دون أن يكشف النقاب عن هويته ، وأفصح لجاريبالد أن مملكته قد كلفه بمطالعة وجه الأميرة ، لينقل اليه صورة صادقة عن أوصافها (١) . فأذعن الدوق لطلبه ، وأمر باحضار ابنته ، فلما وقع بصر أوثارى عليها عجب بها ، ووجه حديثه للدوق قائلاً : « ان ابنتك جديرة حقاً بأن تكون ملكتنا ، ويسرنا أن نتناول كأس شراب من يدها » . وامتثلت الأميرة طائعة ، ولكن مراعاة منها لأصول الضيافة ناولت أول الأمر كأساً لرؤس السفارة ، ثم ناولت أوثارى من بعده ، وعندما أعاده فارغاً لمس أصابعها ، فغلب وجهها حمرة الخجل ، ولما انفردت بمربيبتها أخبرتها بما حدث ، فردت عليها بقولها : « لا بد أنه الملك الذي طلب يدك ، إذ لا يجزئ أحد على فعل هذا الأمر غيره ، وعليك بكتمانه ، لأنه حقاً الرجل الجدير بك ملكاً وزوجاً » . وأخيراً استأذنت السفارة جاريبالد في العودة ، وغادرت بافاريا برفقه بعثة شرف بافاريا . ولم يكد أوثارى يصل حدود إيطاليا ، حتى هب فوق فرسه جذلاً ، وقذف فأسه بقوة على ساق شجرة ، وصاح قائلاً : هكذا يضرب أوثارى ضربته » ، وعندئذ عرفت بعثة الشرف المرافقة أنه أوثارى ملك اللومبارديين (٢) .

وعلى أية حال ، ما ان وصلت أنباء الخطوبة لتتسلل دبرت ملك الفرنجة ، وأدرك ماستجره من تحالف بين اللومبارديين والبافاريتين ، يشكل خطراً على مملكته ، ثارت ثائرتة (٣) . وبأمر بانفاز جيش ضد دوقية بافاريا ، نجح في الاطاحة بجاريبالد ، وعندئذ لاذت ثيوديلندا بالفرار

(1) Paul., p. 139.

(2) Ibid, pp. 139-140.

(3) Villari, II, p. 293.

مع أخيها الى ايطاليا • ولما بلغت سهل لوجودى جازدا الواقع بالقرب من فيرونا ، أرسلت الى أوثارى تنبئته بوصولها ، فأتى من فوره ترافقه حاشية ضخمة ، حيث عقد قرانه عليها في ١٥ مايو سنة ٥٨٩ (١) •

التحالف البيزنطى الفرنجى :

أشرنا فيما سبق الى التغيير الذى أحدثه الامبراطور موريس فى ادارة ايطاليا البيزنطية ، بأن جمع السلطتين العسكرية والمدنية فى يد شخصية واحدة هو الاكسارخ ، واستتبع ذلك بعزل النائب الامبراطورى لونجينوس سنة ٥٨٥ ، وعين مكانه سماراجدوس — أول اكسارخ بايطاليا — لما اشتهر به من شجاعة ومهارة فى التنظيم • ولم يكد سماراجدوس يصل رافنا ، واستكشف فساد الادارة البيزنطية وضعفها ، وحاجته لوقت غير قصير لاعادة الأمور لنصابها ، يتهيأ خلاله لمواجهة اللومبارديين ، اقترح على أثارى عقد هدنة بينهما مدتها ثلاث سنوات (٥٨٥ — ٥٨٨) فلم ييخل عليه بذلك (٢) •

بيد أن اللومبارديين نقضوا الهدنة من جانبهم قبل انتهائها بعام واحد • ذلك أن ايوين دوق ترنت انقض فجأة على ولاية استريا البيزنطية ، ولجأ الى حرقها ونهبها ، ثم أعقب ذلك بعقد هدنة قصيرة الأجل مع الاكسارخ مدتها سنة واحدة ، ورجع مثقلا بالغنائم الى مليكه أوثاوى (٣) • والواقع أن ما حدث لا يعنى أن الاكسارخ قد غص النظر عما قام به الدوق ، إذ فى سنة ٥٨٩ نجح فى استرجاع ميناء كلاسييس الهام من فروالد دوق سبوليتو ، بعد أن ظل فى قبضته عشر سنوات (٤) •

(1) Paul., p. 140.

(2) Dudden, op. cit., I, p. 161.

(3) Paul., pp. 134-135.

(4) Hodgkin, V, pp. 246-247; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 212 - 213.

في هذه الأثناء بدأ الامبراطور موريس في تنفيذ سياسته الرامية الى التحالف مع الفرنجة ، وعقد أواصر الصداقة معهم ، بقصد تطويق اللومبارديين . وفي هذا الصدد لم يرفض الفرنجة يد الصداقة الممدودة اليهم ، خاصة اذا كانت مليئة بالأموال والهدايا . وفي الحين نفسه لم ينس الفرنجة دينهم القديم مع اللومبارديين ، وبعبارة أخرى لم ينسوا غاراتهم الناهبة المتكررة على حدود مملكتهم الجنوبية (١) . ومن ثم تبادل الفريقان — بيزنطة والفرنجة — السفارات ، ودارت المفاوضات بينهما حول القيام بعمليات حربية مشتركة ضد اللومبارديين (٢) .

وعلى أية حال ، استطاع موريس أن يغري تشلدبرت الثاني ملك الفرنجة بشن هجوم على اللومبارديين في مقابل خمسين ألف قطعة من الذهب (صولدى) . وكان أن عبر الملك الفرنجي جبال الألب في سنة ٥٨٤ على رأس جيش ضخم ، وباغت اللومبارديين بهجوم شل حركتهم ، جعلهم يتراجعون الى أسوار مدنهم الحصينة للاحتماء بها ، ثم دارت مفاوضات بين الجانبين ، انتهت الى انسحاب ملك الفرنجة من إيطاليا بعد أن نفحه اللومبارديون مبالغ ضخمة وهدايا ثمينة (٣) . وعندما وصلت الأخبار لموريس بما حدث ، طالب تشلدبرت الثاني باعادة الأموال التي أرسلها اليه ، ولكنه رفض (٤) . وفي العام التالي (٥٨٥) عبرت حملة فرنجية أخرى جبال الألب ، بيد أنها سرعان ما انسحبت من إيطاليا مثل سابقتها ، بعد أن لوح لها اللومبارديون بالمال والهدايا (٥) .

ويبدو أن موريس لم ييأس من الفرنجة ويصد وجهه عنهم ، رغم أنهم تقاعسوا عن الوفاء بما التزموا به ، بدليل أنه أرسل سفارة من

(1) Dudden, I, pp. 161-162.

(2) Paul., p. 126.

(3) Paul., p. 117; Villari, op. cit., II, p. 288, Thompson, op. cit., I, p. 169, 206; Gregory of Tours, II, p. 122, 174.

(4) Paul., pp. 117-118.

(5) Dudden, I, p. 162.

قبله يطلب انفاذ جيش آخر الى ايطاليا لغزو اللومبارديين . وما لبثت تشلدبرت الثانى أن جهز حملة ثالثة فى حوالى سنة ٥٨٧ ، بيد أنها لم تكد تجتاز جبال الألب ، حتى دب النزاع داخل صفوفها . ويعود السبب فى ذلك الى أن قبائل الأليمانى التى انخرطت فى سلك هذه الحملة هذبت بالتوقف عن مواصلة الزحف ، ما لم تحصل على حصة معينة من الغنائم المتوقع الحصول عليها ، وما لم تستقل بالأقاليم التى ستنتزعها لصالحها . ولكن الفرنجة رفضوا الانصياع لمطالب قبائل الأليمانى ، فانسحبت الأخيرة من ايطاليا ، الأمر الذى ترتب عليه فشل هذه الحملة فشلا تاما (١) .

وفى أوائل صيف سنة ٥٨٨ أنفذ ملك الفرنجة حملته الرابعة الى ايطاليا ، ولكن أوثارى تمكن من هزيمتها هزيمة ساحقة ، أسفرت عن وقوع العديد من الفرنجة قتلى وأسرى ، فيما عدا قلة ضئيلة استطاعت الفرار بصعوبة . ومن الأسباب التى أدت الى فشل هذه الحملة ، انتشار الفوضى داخل صفوفها ، وتفاقم النزاع بين قوادها ، فى الوقت الذى أحس اللومبارديون أن وجودهم بايطاليا بات مهددا بالفناء ، فحاربوا ببسالة ، وهذا ويعتبر الانتصار الساحق الذى أحرزه أوثارى على الفرنجة أهم حدث فى عهده (٢) . والجدير بالذكر أن الامبراطور هوريس أخذ يصب جام غضبه على الاكسارخ سماراجدوس لتأخره عن تقديم المساعدة الحربية للفرنجة ، فضلا عن السياسة الدينية التى نهجها هذا الاكسارخ بايطاليا ، وكادت أن تهدد الكنيسة بانشقاق حقيقى . ونتيجة لذلك استدعاه الى القسطنطينية ، وعين بدله رومانوس فى سنة ٥٨٩ (٣) .

(1) Paul., p. 126; Hodgkin, V, pp. 258-259; Gibbon, II, p. 104.

(2) Hodgkin, op. cit., V, pp. 260; Villari, op. cit., II, p. 292.

(3) Villari, II, p. 292.

ويرى المؤرخ ددن أن سماراجدوس دهمه مرض وبيل سنة ٥٨٩ ، استلزم سفره الى القسطنطينية .

Dudden, I, p. 161.

ونأتى الى آخر الحملات التى وجهها تشلدبرت الثانى الى ايطاليا اللومباردية وأخطرها على الاطلاق ، ونعنى بها الحملة الخامسة سنة ٥٩٠ . ويبدو أن الفشل الذى منيت به الحملات الأربعة السابقة ، زاد من غضبه ورغبته فى القيام بعمل حاسم ضد اللومباردين . ولهذا جهز حملته هذه المرة بعناية فائقة ، كما اتفق مع الاكسارخ الجديد رومانوس (٥٨٩ — ٥٩٦) على القيام معا بهجوم على بافيا عاصمة اللومبارديين ، والقضاء القبض على أوثارى (١) . ويبدو أن رومانوس أراد أن يثبت وجوده فى ايطاليا قبل أن تصل الجيوش الفرنجية ، إذ بدأ بهجوم واسع على الأراضى اللومباردية ، أسفر عن استيلائه على مدن مودينا وبلتينو ومانتوا (٢) .

وفى تلك الأثناء ، أخذت الحملة الفرنجية طريقها الى ايطاليا ، وقد جرى تقسيم جيشها الضخم الى ثلاث مجموعات كبيرة ، الأولى بقيادة أودوفالد Audovald ، والثانية تحت زعامة أولو Olo ، والثالثة على رأسها شدين Chedin (٣) . ورغم ضخامة هذا الجيش ، إلا أنه منذ بداية تحركه يكشف لنا الظروف المختلفة التى تحكمته فى توجيهه . إذ كان فى الواقع يفتقر الى التنظيم ، ويعوز قوادة قوية الشخصية والبراعة ، فى الوقت الذى كان ضباطه قليلى الخبرة والتدريب . وأبلغ دليل على ذلك ، أنه ما كاد هذا الجيش ينطلق من شامبنى ، لم يتورع عن ارتكاب كثير من أعمال العنف والقتل والفوضى والنهب فى مئزر عاصمة مملكة الفرنجة قبل أن يصل جبال الألب ، وكأنه قد جهز للقيام بأعمال عدائية ضد بلده (٤) . ولم يلبث الجيش الفرنجى أن عبر جبال الألب الى ايطاليا ، وأخذ ينهب ويخرب المدن الآمنة الواقعة

(1) Dudden, I, p. 162; Oman, p. 192.

(2) Hodgkin, V, p. 271; Dudden, I, p. 162; Thompson, I, p. 169.

(3) Paul., pp. 141-142.

(4) Gregory of Tours, II, p. 430; Dill, Roman Society, pp. 206-208.

في طريقه ، الى أن توزعت مجموعاته الثلاثة ، فمسكر أودوفالد أمام أسوار ميلان ، وزحف أولو الى بيلتزونا Bellinzona ، وهبط شدين وادي الأديج ، حيث هدد فيرونا (١) . وبينما كان أولو محاصرا لبيلتزونا أصابه رمح أراده قتيلا ، فانسحب رجاله من الحصار ، وانضموا الى المجموعتين الأخرتين (٢) .

وكان أن اشتبك الفرنجة بقيادة أو دوفالد مع اللومبارديين في معركة على الجانب الغربى من بحيرة لوجانو ، انتصر فيها الفرنجة ، ولكنهم عندما اقتحموا معسكر اللومبارديين فوجئوا به خاليا الا من مخيمات منصوبة ونار موقدة (٣) . ذلك أن اللومبارديين وجئوا أنفسهم عاجزين عن حشود الفرنجة الضخمة التى تساندها القوات الامبراطورية فى ايطاليا ، وعندئذ لم يجدوا وسيلة للخلاص سوى اخلاء معسكرهم ، والاحتفاء بمدنهم المنيعه ، بهدف انهك عددهم وتشتيت قواه . فأغلق أو ثارى على نفسه فى بافيا ، ولجأ الدوقات اللومبارديون الى تزويد قلاعهم بالمؤن ، والانتظار داخل أسوارها حتى ينجلى الموقف (٤) . ولعل أهم سبب دفع اللومبارديين الى اتخاذ هذا الاجراء ، ما تردد من أنباء عن وصول قوات امبراطورية لتعزيز موقف أودوفالد . وكان الاكسارخ رومانوس قد أبلغ أودوفالد أن قواتا امبراطورية فى طريقها اليه خلال ثلاثة أيام ، وحال وصولها ستعطيه اشارة باشعال نار من أجد القصور القائمة فوق قمة تل مجاور (٥) . وإذ كان أودوفالد يعلق آماله على هذه القوات ، ومضت ستة أيام دون أن تظهر فى الأفق الاشارة المتفق عليها ، فقد

(1) Gregory of Tours, II, p. 340; Hodgkin, V, pp. 267-268; Dudden, I, p. 163.

(2) Paul., p. 142.

(3) Gregory of Tours, I, pp. 430-431; Hodgkin, V, p. 268.

(4) Dudden, I, p. 163.

(5) Paul., pp. 142-143.

دفعه اليأس من وصولها الى أن يحل معسكره ، وينسحب خائبا بقواته الى بلاده (١) .

أما جيش شدين ، فقد نجح في الاستيلاء على عشر مدن في وادي الأديج ، واثنيتين في فال سوجانا Val Sugana ، وواحدة بالقرب من فيرونا (٢) . ولكن فيرونا استعصت عليه ، إذ استطاعت أن تقاوم الحصار الذي فرضه شدين عليها طوال ثلاثة شهور ، قاسى جنده خلالها مناخا لم يألوه ، كما أن المجاعات والأوبئة انتشرت بينهم ، وفشلت الدوسنطاريا بالآلاف منهم ، وازاء تلك المصاعب اضطر شدين الى رفع الحصار ، وشرع في الانسحاب من ايطاليا في أغسطس من نفس العام (٥٩٠) . وفي أثناء العودة سقط العديد من الجند من شدة الاعياء والتعب ، واضطر الكثير منهم الى بيع ملابسه وأسلحته في سبيل الحصول على الخبز ، في حين لم يجد البعض وسيلة تخلصه من آلامه الا بالانتحار ، واجمالا لم يعد باقيا من هذا الجيش الا قلة قليلة ، استطاعت الوصول بمشقة الى الحدود الجبلية ، حيث اختفت عن الأنظار وسط الثلوج (٣) .

وهكذا فشلت محاولات الفرنجة في القضاء على اللومبارديين ، تلك المحاولات التي جرت الوبال على ايطاليا ، فأقفرت سهولها ، ونهبت مدنها وقراها ، وتلفت محاصيلها ، ووقع كثير من رجالها ونسائها أسرى في أيدي الفرنجة . وهنا نلاحظ أن اللومبارديين لم يتأثروا كثيرا بسبب حملات الفرنجة ، وبمعنى آخر لم تلحق بهم خسائر جسيمة ، إذ احتفظ الملك أوثارى بكنوزه سليمة في بافيا ، وتحصن الدوقات داخل أسوار مدنها الحصينة ، في حين وقع الغرم كله على السكان الرومان التوسع ، اذ عاملهم

(1) Gregory of Tours, II, p. 431; Dudden, I, p. 163.

(2) Paul, pp. 143-144.

(3) Gregory of Tours, II, pp. 431-432; Hudgkin, V, pp. 268-269; Dudden, I, pp. 163-164; Dill, Roman Society.. p. 206.

الفرنجة معاملة الأعداء ، مع أنهم أتوا الى ايطاليا بغية تخليصهم من اللومبارديين (١) •

ومن الواضح أن التحالف البيزنطي لم يقيم على دعائم راسخه منذ بدايته ، إذ كانت تزلزله في الواقع الشكوك المتبادلة بين الطرفين ، واتهام كل منهما للآخر بالعمل لمصلحته (٢) • وينبغي ألا يفوتنا أن مملكة الفرنجة آنذاك كانت تمر بدور انحلال بطيء ، الأمر الذي سهل على أوثاري إسقاط عرى هذا التحالف • ومع ذلك ، فقد لقي بعض الهزائم على أيدي القياات الامبراطورية بقيادة الاكسارخ رومانوس ، ففضلا عن سقوط مدن مودينا وألتينو ومانتوا في يده كما أسلفنا ، استطاع أيضا أن يعيد الى الامبراطورية مدن بارما وريجيو وبياكزا الهامة ، وكان بوسعه أن يواصل انتصاراته على اللومبارديين ، ولكن انسحاب الفرنجة من ايطاليا لم يضع حدا لها فحسب ، بل لم ينقض وقت طويل حتى عادت هذه المدن الى حوزة اللومبارديين (٣) ، كما سنفى بعد قليل •

وابجلا كان التحالف البيزنطي الفرنجي مقضيا عليه بالفشل ، بدليل أن أوثاري عمل على قطع جذوره تماما عندما أرسل سفارة من قبله الى ملك الفرنجة يطلب عقد اتفاقية صلح وسلام معه قبل نهاية صيف عام ٥٩٠ ، فوافق ملك الفرنجة ، في الوقت الذي وصلت الأخبار بوفاة أوثاري فجأة في عنفوان شبابه في بافيا في ٥ سبتمبر من نفس العام (٤) ، ولم يكن قد مضى على زواجه من الأميرة البافارية ثيوديلندا الا سنة وبضعة أشهر •

(١) Dudden, op. cit., I, p. 164.

(٢) موس : المرجع السابق ، ص ٢١٥ — ٢١٦ •

(٣) Dudden, I, p. 165.

(٤) Gregory of Tours, II, p. 432; Hodgkin, V, p. 275.

أجيلولف (٥٩٠ - ٦١٦) :

مات أوثارى دون أن يترك ولداً يخلفه على العرش ، وكان من المحتمل أن تظهر فترة شغور أخرى في المملكة اللومباردية . ولكن الدوقات اللومباردين كانوا قد أفادوا تماماً من التجربة المريرة التي عاشوها من قبل . وفي هذه المرة تنازلوا عن حقهم في اختيار ملك جديد ، وتركوه لثيوديلندا . ويرجع السبب في ذلك الى أنهم كانوا يجلون مكانتها ويكون لها اسمى حب ، لحصافتها وخصالها الحميدة ، ومن ثم استقر رأيهم على أن تظل ملكة عليهم بمنحها الحق في اختيار زوج لها من بين الدوقات جديراً بشغل العرش ، خلفاً لأوثارى . وكان أن وقع اختيارها على أجيلولف الثورنجي Agilulf دوق تورين ، لما تميز به من قوة وشجاعة (١) . والواقع أن أهم ما تميزت به ثيوديلندا آنذاك هو حماسها الزائد للكاتوليكية وترسيخها بين قومها ، ولذلك يقتترن اسمها بانتشار المذهب الكاثوليكي في تاريخ مملكة اللومباردين (٢) . ورغم جهودها ومثابرتها في هذا الشأن ، ألا أنها لم تنجح في التأثير على زوجها السابق أوثارى باعتناقه ، بل بلغ الأمر به أن أصدر مرسوماً في ربيع سنة ٥٩٠ ، منع بموجبه تعميم أبناء اللومباردين على المذهب الكاثوليكي . كذلك فشلت جهودها الرامية الى اقناع زوجها الثاني أجيلولف بالعدول عن المذهب الآريوسي ، مع أنها صاحبة الفضل الأول في وصوله الى العرش (٣) .

وعلى أية حال ، له يكد أجيلولف يتبواً عرش المملكة اللومباردية ، حتى وجه اهتمامه الى تعزيز روابط السلام والصداقة بينه وبين جيرانه الفرنجة . ولهذا الغرض بعث بسفارة الى البلاط الفرنجي ضمت ايوين دوق ترنت وأجنيلوس أسقفها ، الذي عهد اليه بصفة خاصة مهمة

(1) Paul., p. 149; Hodgkin, V, p. 281; Oman, op. cit., p. 193.

(2) Gregory of Tours, I; p. 180; Dudden, II, p. 3.

(3) Hodgkin, V, pp. 286-287.

التفاوض مع الفرنجة حول اطلاق سراح الأسرى اللومبارديين ، الذين ساقهم شديدين معه في أعقاب حملته على ايطاليا سنة ٥٩٠ هـ . وكان أن نجحت السفارة في مهمتها ، فعقد ايوين اتفاقية صلح مع الملك الفرنجي (١) ، قدر لها أن تدوم قرنا ونصف قرن ، لم يتعكر صفوها الا عندما استنجدت البابوية بالفرنجة لانقاذها من خطر اللومبارديين (٢) ، كما سنرى في الأحداث التالية .

وفي الوقت الذي فرغ أجيلولف من تسوية أموره مع الفرنجة ، خرج عليه بعض الدوقات الذين رفضوا قبوله ملكا عليهم ، بحجة أن أصله الثورنجي غريب عنهم ولا يمت اليهم بصلة ، وأنه لولا ثيوديلندا لما ارتقى العرش . ومن أولئك الدقات ميمولف الذي تحصن بموقعه المنيع بجزيرة سانت جوليان في بحيرة أورتا ، بيد أن أجيلولف تمكن من أسره وقتله ، وأيضا أولفاري دوق تريفيزو ، حيث زحف عليه أجيلولف بجيوشه ، وشدد عليه حصارا انتهى بوقوعه أسيرا في يده . أما جيدولف دوق برجامو أقوى الدوقات الخارجين عليه ، والذي كان — على ما يبدو — يتطلع الى العرش اللومباردي لما لدوقيته من أهمية ، فضلا عن قرابته من الملك السابق ، فقد سار اليه أجيلولف على رأس جيوشه ، وأرغمه على طاعته (٣) .

بعد أن نجح أجيلولف في اخماد ثورات الدوقات الخارجية عليه ، واطمأن الى جانب الفرنجة ، لم يعد باقيا أمامه الا حسم الموقف مع الامبراطورية البيزنطية في ايطاليا . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ ظهرت قوة جديدة على مسرح الأحداث الإيطالية ، لم تتفق أهدافها مع أهداف اللومبارديين ، وقدر لها أن تلعب دورا فعالا في حلبة الصراع الدائر بين اللومبارديين والبيزنطيين ، انعكست آثاره على مصير ايطاليا العصور الوسطى .

(1) Paul, p. 151; Dudden, II, p. 6.

(2) Hodgkin, V, pp. 344-345; Dudden, II, p. 6.

(3) Hodgkin, op. cit., V, p. 347.

الفصل الثالث

صراع القوى السياسية في إيطاليا في القرن السابع

(اللومبارديون والبابوية والدولة البيزنطية)

- نهوض البابوية •
- اللومبارديون والبابوية •
- خلعاء أجيلولف •

ومن الملاحظ أنه باعلاء أجيلولف عرش المملكة اللومباردية في سنة ٥٩٠ ، كانت الخريطة السياسية لشبه الجزيرة الإيطالية موزعة بين اللومباردين والبيزنطيين • وقد كانت الممتلكات البيزنطية على النحو الآتي (١) :

— في شمال إيطاليا : استريا ، وجرادو ، والبندقية ، والساحل الليجورى ، وبادوا ، ومانتوا ، ومونسليتشى ، وكريمونا ، وبياكزا ، وبارما ، وريجيو ، ومودينا التى ظلت في حوزة الامبراطورية حتى سنة ٥٩٠ • بالإضافة الى رافنا ، وبنتابوليس بقسميها : بنتابوليس الساحلية بمدينة الخمسة ريميني ، وبيسارو ، وفانو ، وسنجاليا ، وأنكونا ، وبنتابوليس الداخلية بمدينة جيسى Jesi ، وجوبيو ، وكاجلى ، وفوسمبرون Fossombrone ، وأربينو •

— في وسط إيطاليا : بيروجيا ، والدوقية الرومانية Ductatus Romanus الممتدة من تودى وكيفيتا فينشيا شمالا الى جاتيا Gaeta ، وتشمل هذه الدوقية من الناحية الفعلية كل ولاية لاتيوم Latium تقريبا •

٣ — في جنوب إيطاليا : نابولى ، وسالرنو ، وبابستوم ، وأجروبولى ، وكالابريا ، وبروتيوم ، وجزر سردينيا وكورسيكا وصقلية • من الواضح أن ادارة تلك الممتلكات المتباعدة كان فوق طاقة إكسارخ رافنا ، خاصة بعد أن حرره اللومبارديون حرية الاتصال برا بمعظمها (٢) •

أما الممتلكات اللومباردية فقد كانت على النحو الآتى (٣) :

(1) Dudden, op. cit., I, p. 167; Mann, The Lives of the Popes, Part I, pp. 13-14.

(2) Oman, Dark Ages, p. 191.

(3) Dudden, I, p. 167.

١ — الجزء الشمالى من ايطاليا ، وقد خضعت كل أراضيه للسيطرة اللومباردية ، فيما عدا الأراضى التابعة لبيزنطة ، وفي هذا الجزء تقع بافيا عاصمة المملكة اللومباردية •

٢ — وفي الوسط دوقية سبوليتو القوية ، التى دأبت على تهديد بنتابوليس فى الشمال ، والأقاليم البيزنطية فى الغرب •

— وفى الجنوب دوقية بنفنتوم •

ومن الواضح أن الممتلكات اللومباردية كانت تقع فى داخل شبه الجزيرة الايطالية ، فى حين تركزت الممتلكات البيزنطية على السواحل والأنهار الملاحية ، باستثناء بيروجيا • ووجه الأهمية هنا أن البيزنطيين احتفظوا بتفوقهم فى المواصلات البحرية ، حيث استطاعت أساطيلهم الوصول الى أية مدينة امبراطورية على الساحل دون عقبات • إذ لو أن اللومباردين وجهوا عنايتهم لبناء أسطول قوى ينافس الأسطول البيزنطى ، لحرمت المدن الامبراطورية من أخص مصادر عونها ، وسهل أمر سقوطها فى أيدي اللومباردين (١) • ولكن اللومباردين بطبيعتهم كانوا أمة غير بحرية (٢) •

نهوض البابوية :

وإذا كانت خريطة ايطاليا السياسية فى نهاية القرن السادس قد توزعت بين قوتين هما البيزنطيون واللومبارديون ، فانه من الأهمية بمكان الاشارة الى أن روما التليدة عاصمة أباطرة الرومان فى الأزمنة

(1) Dudden, op. cit., I, p. 167.

(2) Oman, op. cit., p. 190.

الخالية ، ومقر الكرسي البابوي صاحب السيادة العليا على الكنيسة في الغرب الأوربي ، قد بدأت في الظهور كقوة سياسية ثالثة احتلت مكانا في خريطة إيطاليا آنذاك •

وبدأة لم تستطع البابوية تحقيق هذه السياسة في سهولة ويسر ، فالواقع أنها تحملت من أجلها سنوات طويلة من التحدي والمقاومة • وقد نبئت فكرة زعامة روما الحربية على العالم المسيحي في القرن الخامس في ذهن البابا إنوسنت الأول (٤٠٢ - ٤١٧) ، وبعده بسنوات قليلة شغل الكرسي البابوي ليو الأول أو العظيم (٤٤٠ - ٤٦١) ، الذي شاعت الظروف أن تضعه كواحد من الأسماء العظيمة في تاريخ البابوية ، وذلك عندما زحف آتيليا زعيم الهون بجحافلهم على روما سنة ٤٥١ ، مما جعلها وشيكة السقوط في يده ، ولكنه انسحب من أمام أسوارها عائدا الى مقر امبراطوريته في هنغاريا ، بعد أن أقنعه ليو العظيم بأن اقتحامه روما سوف لا يعود عليه بنفع (١) •

ويعتبر البابا ليو العظيم أول من تمسك بمبدأ الزعامة البابوية على سائر جميع الكنائس المسيحية ، ولم تعارضه في هذا الاتجاه سوى الكنيسة الشرقية • وقد ظهر نفوذه واضحا في مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ ، عندما انتصر رأي القائل بأن للمسيح عليه السلام طبيعتين ، فهو إله من طبيعة أبية ، وبشر من طبيعة أمه • كما تمسك بمبدأ تفوق الكرسي البابوي على جميع أسقفيات الغرب الأوربي • ويتمثل ذلك بوضوح عندما طالب هيلاري الآرلي Hilary of Arles

بتفوق كنيسة الغال على ما عداها ، ورفض الاعتراف بشرعية الكرسي البابوي في روما ، عندئذ أعفاه ليو من منصبه ، ووقف الامبراطور فالنتينان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥) الى جانب ليو ، في مرسوم شهير أصدره

(1) Workman, The Papacy and Temporal Powers, p. 2489.

سنة ٤٤٥ أعلن بموجبه إنكار دعوى هيلارى ، ولم يؤيد البابا في زعامته الدينية فحسب ، بل أصر على وجوب الاحتكام اليه في حالة نشوب أى خلاف في كنيسة الغسال (١) .

ولا شك أن أحوال الجزء الغربى من الامبراطورية ساعدت على علو مكانة البابوية ، خاصة أنها غدت القوة الوحيدة الباقية في هذا الجزء ، وسط عواصف الغزوات البربرية التى داهمتها ، واقامت ممالك لها على أنقاضه . ومما يذكر أن الجرمان دأبوا على احترام الكنيسة الغربية الكاثوليكية ، ولم يتعرضوا لها بالأذى . ويدل على ذلك أنه عندما استقر ثيودريك ملك القوط الشرقيين بقومه — وهم على المذهب الآريوسى — في ايطاليا في القرن الخامس ، عامل رعاياه الرومان الكاثوليك معاملة طيبة مفعمة بالتسامح ، فلم يفرق بينهم وبين قومه في الامتيازات ، كما أنه لم يتدخل في شئون البابا أو طريقة انتخابه ، ويمكن القول أن البابوات حصلوا من ملوك القوط الشرقيين على نوع من الاعتراف ، بوصفهم ممثلين شرعيين لسكان ايطاليا الرومان الكاثوليك (٢) . ولكن المزايا التى تمتع البابوات بها خلال حكم القوط الشرقيين ما لبثوا أن حرموا منها على عهد جستينيان ، إذ بعد أن أطاح بالقوط الشرقيين أحكم قبضته على الكنيسة الغربية وفرض نفوذه على البابوات ، بوصفه الوريث الشرعى للامبراطورية الرومانية . والى جانب ذلك عامل البابوات معاملة أوتوقراطية ، فحاكمهم حسب مشيئته ، وزج بالبعض منهم في غياهب السجون . والخلاصة أنه طالما كان النفوذ الامبراطورى قويا في ايطاليا ، بقيت سلطة البابا محدودة الى حد كبير (٣) .

(1) Workman, op. cit., pp. 2484 - 2485.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 214; Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages, p. 43.

(3) Oman, op. cit. p. 199.

ولكن أوضاع البابوية سرعان ما تغيرت في أعقاب المرحلة الأولى من الغزو اللومباردي ، الذي مزق إيطاليا الى قوتين سياسيتين كما أسلفنا . ذلك أن نواب الامبراطور البيزنطي في إيطاليا أدركوا أن روما العريقة لم تعد مقرا مناسباً لهم ، على النقيض من رافنا التي تميزت بمناعتها وسط الأعراس ، الى جانب قربها من الحدود اللومباردية . ومنذ ذلك الوقت أغلق النائب الامبراطوري — أو الاكسارخ — على نفسه في رافنا ، في حين فوض سلطاته المدنية والعسكرية في الأقاليم المبعثرة الخاضعة لنفوذه الى موظفين ، كان دوقا روما ونايولي أعلاهم قدرا . ومما لا شك فيه أن اتخاذ رافنا قاعدة للنفوذ الامبراطوري ، ترك آثارا بعيدة المدى على مستقبل الأحوال السياسية في إيطاليا ، يأتي في مقدمتها أن دوق روما بوصفه علمانيا أقل شأنًا من البابا صاحب السلطة الدينية العليا ، جعل الأخير يصول ويحول في روما دون منافس (١) . ومن حسن حظ البابوية آنذاك أن الأباطرة البيزنطيين قد انشغلوا عن إيطاليا بحروبهم في الجبهة الشرقية ، وألقوا على عاتق الاكسارخات مهمة التصدي للومبارديين ، دون أن يعملوا على ترويضهم بالامدادات الكافية من الجند أو الأموال . هذا في الوقت الذي تعذر على الاكسارخات الاتصال بروما الا بصعوبة بالغة : فالطريق البري المؤدى اليها دأب دوق سبوليتو على قطعة باستمرار ، في حين كان الطريق البحري شاقا وطويلا . ونخرج من هذا كله الى أن روما تركت وحيدة دون مدافع ، عليها أن تحل مشاكلها بنفسها في حدود مواردها وامكاناتها المتاحة ، دون انتظار الأية مساعدة سواء من الامبراطور أو الاكسارخ . وقد عبر البابا جريجوري العظيم عن ذلك في كتاباته قائلاً أن روما ظلت تعيش في خطر داهم فرضه اللومبارديون عليها فترة بلغت سبعا وعشرين عاما (٥٧٢ — ٥٩٩) ، اضطرت خلالها للنهوض بأعبائها . وفي وسط هذه الظروف ، بدأ البابوات يمارسون

(1) Oman, op. cit., p. 198.

سلطتهم العلمانية (الزمنية) على روما وضواحيها ، وأنزلوا الحكام المدنيين الى مرتبة ثانوية ضئيلة الأهمية (١) . وبمعنى آخر اتسع نفوذ البابوية ، وبات من المؤكد أنها أصبحت إحدى القوى السياسية الحاكمة في إيطاليا ، الى جانب البيزنطيين واللومبارديين .

و شاء حسن طالع البابوية في أواخر القرن السادس أن يقود دفتها شخصية عظيمة لعبت دورا بارزا في تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ونقصد بهذه الشخصية البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) ، الذى قدر له أن يقف في مفترق الطرق بين حضارتين : حضارة رومانية عظيمة أمست في طور السبات أو الاحتضار ، وحضارة جديدة آخذة في النمو قامت على أكتاف العالم البربرى النشيط . وبمعنى آخر ، كان جريجورى حلقة وصل بين التقاليد الرومانية في العصور القديمة ، وبين التقاليد الرومانية الجرمانية في العصور الوسطى .

ولد جريجورى العظيم حوالى سنة ٥٤٠ ، في أسرة من أعرق الأسر الرومانية النبيلة الثرية ، التى أنجبت أحد البابوات ، وكثيرا من أعضاء السناتو ، وأصحاب مناصب عليا في الكنيسة ودوائر الحكومة (٢) . وقد شهد في نعومة أظفاره روما العريقة وهى تخضع لحصار تلو حصار ، وقاسى مع سكانها المجاعات والأوبئة ، وكان جريجورى في السادسة من عمره عندما زحف ثؤتيلا ملك القوط الشرقيين على روما سنة ٥٤٦ وتركها نهبا لبرابرتة الأفظاظ ستة أسابيع كاملة (٣) . ولا نعرف عن فترة صباه إلا القليل ، من بينه أنه تلقى تعليمه على الطريقة الكلاسيكية التى لخصها مارتينوس كابيلا في مقولته عن الفنون الحرة السبعة ، التى تنقسم الى مجموعتين : المجموعة الثلاثية وتشمل

(1) Ibid, pp. 199-200.

(2) Hodgkin, V, p. 287; Oman, op. cit., p. 132.

(٣) اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص

النحو والبلاغة والجدل ، والمجموعة الرباعية وتشمل الموسيقى والحساب والهندسة والفلك ، فدرس الفنون الثلاثة الأولى ، أما بقية هذه الفنون ، فقد كان على غرار معاصريه لا يعرف عنها إلا القليل ، أو بالأحرى لا يعرف عنها شيئاً (١) .

وبينما كان جريجورى يخطو نحو الرجولة ، شاهد القوط الشرقيين رهم يتساقطون تحت ضربات جستنيان ، وفى سنة ٥٦٨ رأى جموع اللومباردين وهى تتثال فجأة فى شمالى ايطالى (٢) ، حيث كان يشغل وقتئذ أول وظيفة مدنية له فى روما . وفى سنة ٥٧٣ أسند اليه منصب البرايتورية (والى المدينة) Praefectus Urbi ، وهى أعلى وظيفة مدنية فى روما ، إذ كان صاحبها مسئولاً عن السلطة القضائية العليا فى نطاق مائة ميل من المدينة ، فضلاً عن تزويد المدينة بكميات القمح اللازمة لها ، والعناية بقنوات المياه ، والموظفين ، والشرطة ، والشئون المالية (٣) .

ومع أنه تسنم أعلى المناصب المدنية فى روما ، فقد كان فى الواقع مأخوذاً بنزعة دينية قوية منذ صغره ، جعلته يعزف عن هذه المناصب ، ويتخذ قرار خطيراً فى حياته ، ذلك أنه فى سنة ٥٧٥ وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ترك منصبه ، ووزع ثروته بين الفقراء ، وباع ضياعه الواسعة باستثناء قصر واحد فى تى كويليان حوله الى دير أهداه للقديس أندروز ، حيث التحق به راهبا على النظام البندكتى ، وفى هذا الدير مكث ثلاث سنوات (٥٧٥ - ٥٧٨) ، يستمتع خلالها

(1) Deanesly, A Hist. of the Medieval Church, p. 17.

(2) Stephenson, Medieval Europe, p. 132.

(3) Hodgkin, V, p. 288; Deanesly, p. 17; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 214.

بالهدوء والعزلة والسكينة والتأمل الروحي (١) .

ويرجع السبب في خروج جريجورى من عزلته الديرية في عام ٥٧٨ الى أن البابا بيلاجيوس الثانى (٥٧٨ - ٥٩٠) قام بتعيينه شماسا ، وفي ربيع العام التالى (٥٧٩) أرسله مبعوثا بايوييا (قاصدا رسوليا) لدى بلاط القسطنطينية ، لحث الامبراطور موريس على إنقاذ ايطاليا من عمليات النهب الواسعة التى دأب اللومبارديون على ارتكابها ، وكذلك دعمها بقوات عسكرية ومعونات مالية ، ولكنه لم يحقق إلا نجاحا ضئيلا في مهمته . ومما يذكر أن جريجورى ابان اقامته بالقسطنطينية لم يهجر أسلوب الرهبنة وتقاليدها ، مما جعل كثيرا من أهالى هذه المدينة يقبلون على الحياة الديرية (٢) . ومهما يكن من أمر ، فقد عاد الى روما بعد حوالى ست سنوات تسبقه شهرة واسعة ، ولم يلبث أن التحق بدير القديس أندروز سنة ٥٨٦ ، وفي هذه المرة لم يدخله كراهب عادى ، بل مقدما (رئيسا) اشتهرت قاعدته بالصرامة والتقشف . وليس من شك أن السنوات القليلة التى قضاها بالقسطنطينية كانت كافية بالقدر الذى يجعله يقف على ضعف الامبراطور موريس ، وعجزه عن علاج الموقف المتدهور فى ايطاليا (٣) .

وكان أن توفي البابا بيلاجيوس الثانى فى ٨ فبراير سنة ٥٩٠ ، من جراء الطاعون الذى اجتاح ايطاليا فى هذا العام . وعندئذ اشتدت رغبة الأهالى ورجال الدين فى أن يخلّغه جريجورى على الكرسى البابوى ، وقد عبروا عن ذلك باندفاعهم الى بوابة دير القديس أندروز الأمر الذى ترتب عليه أن انتخب جريجورى بابا فى سبتمبر من نفس

(1) Hodgkin, V, pp. 288-289; Deanesly, p. 18; Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, p. 60, in The Barbarian Invasions, ed. by Katherine Fisher.

(2) Deanesly, op. cit., p. 18.

(3) Hodgkin, V, pp. 292 - 298; Oman, op. cit., pp. 200-201.

العام (٥٩٠) ، وجرت مراسيم تكريسه دون تصديق من الامبراطور (١) ، بسبب الثغرات اللومباردية التي تسببت في قطع خطوط المواصلات ، وحالت دون وصول التصديق إلا في وقت لاحق (٢) .

وبارتقاء جريجورى منصب البابوية ، تغير شأن الكنيسة الغربية تغيراً شاملاً ، إذ أكد نفوذه على جميع أساقفة الغرب الأوربي ، ووجه عنايته لتلبية أية استغاثة تأتيه من الشرق البيزنطي ، وحارب الفرق الهرطقية مثل الدوناتيين Donatists بشمال أفريقيا ، وحرّم الاتجار بالناصب الكنسية (السيمونية أو السمعانية) التي كادت أن تحطم حياة الكنيسة الغربية كلها ، في ذات الوقت أنصبت صرامته الدينية على العلمانيين ، الذين كانوا يديرون أملاك الكنيسة ، فأعلن أنه لا يحق لأي علماني أن يدير جزءاً منها (٣) .

ولعل أهم عمل قام به جريجورى هو نشر المسيحية بين الوثنيين ، رتحويل عقيدة الكثير من الشعوب الجرمانية الآريوسية الى الكاثوليكية ، وأكثر ما يظهر ذلك في القوط الغربيين في أسبانيا على عهد ملكهم ريكارد (٤) الأول (٥٨٦ - ٦٠١) ، وفي بعثة القديس أوغسطين الصغير مقدم دير سانت أندروز ، التي أرسلها الى شعوب الأنجلو ساكسون المقيمة في كنت بانجلترا ، حيث استطاعت أن تحولهم من الوثنية الى المسيحية (٥) . أما في ايطاليا ، فهو صاحب الفضل المشهود في

(1) Lot, Pfister & Ganshof, *Lcs Destinées.*, pp. 19-20; Wallace-Hadrill, p. 61; Deanesly, op. cit., p. 19.

(1) Oman, p. 201.

(3) Deanesly, p. 201.

(4) Oman, p. 202; Wallace-Hadrill, p. 62; Orlone, *Outlines of Med. Europe*, p. 124.

(5) Paul the Deacon, pp. 129-131.

تدعيم جذور المذهب الكاثوليكي بين اللومبارديين ، من خلال تأثيره على ملكتهم ثيوديلند! •

ومع أن جريجورى لم يكن دارسا متعمقا ، إلا أنه فى الواقع كان صاحب الفضل الأول فى تبسيط العقيدة المسيحية لشعوب أوروبا العصور الوسطى على مدى ألف عام • وان كانت لغته التى استخدمها وهى لغة الفولجاتا سكرييتا Vulgata Scripta ، قد رأى فيها النقاد دليلا على الضعف الذى أصاب الحياة الأدبية فى غرب أوروبا ، صحيح أنه لا يطاول — من الناحية الفكرية — كمبريان أو أمبروز أو أوغسطين ، ولكنه كان يبرزهم وهو يعظ فوق المنبر (١) ، بالإضافة الى أن مؤلفاته تجاوزت سير القديسين ، الى الشروح والتفسيرات الدينية ، وخير دليل على ذلك ما جاء فى كتابه قاعدة راعى الكنيسة Liber Regulae Pastoralis الذى تناول فيه وظيفة رجل الدين وسلوكه الأخلاقى فى حياته الكنيسة ، ولهذا السبب اختار الملك ألفرد الكبير (٨٧١ — ٨٩٩) هذا الكتاب لترجمته الى اللغة الانجليزية (٢) • ولا شك أن جريجورى بثقافته الرومانية يمثل ذكريات عصر زائل ، بينما هو بصرامته الدينية وأفكاره البسيطة ، قد عجل ببناء المثاليات الروحية والحياة الفكرية للأزمنة القادمة فى غرب أوروبا • وهو أول قادة الكنيسة فى أوروبا العصور الوسطى ، تسلم — كما يقول عن نفسه — قيادة « سفينة الكنيسة العظيمة التى تسربت إليها الأمواج من جميع الجوانب ، وصارت أخشابها المتآكلة تصر وتئن وسط الأعاصير » (٣) ، فجعلها صالحة للإبحار •

(١) اسحق عبيد : المرجع السابق ، ص ١٨٢ •

(2) Wallace - Hadrill, p. 60; Hulme, The Middle Ages, p. 100; Hollister, Medieval Europe, p. 47.

(3) Hulme, op. cit., p. 100.

وصفوة القول ، أنه لم يكن ثمة رجل لائق لشغل منصب البابوية آنذاك من ناحية المولد والثقافة والمقدرة ، أكثر من جريجورى • إذ يكفى أنه خلال الأربعة العشر عاما التى قضاها فى منصبه ، كان لنباله أفكاره المقتترنة بحكمته العملية النادرة ، أعظم الأثر فى انتقال فكرة السمو البابوى من حيز النظرية الى صرح الواقع ، حتى يمكن القول أن البابوية آنذاك قد أضحت قوة عالمية (١) •

اللومبارديون والبابوية :

رأينا أن اللومبارديين لم يأتوا الى ايطاليا محالفين للامبراطورية البيزنطية ، ولكنهم دخلوها بوصفهم أعداء فاتحين ، هدفهم الاستقرار على حساب الأهالى التعساء ، ثم رأينا مدى الخراب الذى أصاب مدن ايطاليا وقراها على أيديهم ، حتى أن الكنائس لم تقفلت من عبثهم • إذ هدموا تسعين أسقفية ، وصادروا أموال الكنائس وممتلكاتها ، وضائقوا البابوات حنا الثالث (٥٦١ — ٥٧٤) ، وبندكت الأول (٥٧٥ — ٥٧٩) ، وبيلاجيوس الثانى (٥٧٩ — ٥٩٠) ، وقد دأب الأخير على ارسال استغاثات عاجلة الى القسطنطينية ومملكة الفرنجة لانقاذ البابوية من خطر التوسع اللومباردى الذى يهدد أملاكها فى وسط ايطاليا ، ولكن دون جدوى (٢) • ذلك أنه فى سنة ٥٨١ استتجد — لأول مرة — بالفرنجة لحمايته من اللومبارديين بوصفهم أعداء الكاثوليكية ، فى ذات الوقت بعث برسالة الى أسقف أوكسير Auxere ، جاء بها أن اللومبارديين يجدون لذة فى سفك دماء الأبرياء ، واهانة مخالفينهم فى العقيدة ، وطلب أن يبذل جهوده لمنع ملوك الفرنجة الكاثوليك من التحالف مع أعداء الكنيسة (٣) • وفى ٤ أكتوبر سنة ٥٨٤ كتب أيضا الى مندوبه جريجورى —

(1) Stephenson, op. cit., p. 133.

(2) Dudden, op. cit., I, pp. 158-159; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 214.

(3) Hodkin, V, pp. 229-240; Villari, op. cit., II, p. 287.

وهو الذى خلفه فى منصب البابوية - فى البلاط البيزنطى رسالة مشابهة ؛ طلب فيها أن يعطى الامبراطور مورييس صورة عن المتعاقب التى يعانىها رعاياه الآمنين على أيدي اللومبارديين ، ويحثه على انفاذ قوة لدفع أذاهم عن روما ، التى خلت من قوة كافية للدفاع عنها (١) .

وهكذا يتضح لنا أن وضع الكنيسة الغربية كان محفوظا بالأخطار والمصاعب ، عندما ارتقى جريجورى الأول منصب البابوية . ففى خارج أسوار روما كانت السيوف اللومباردية تفتك بالرقاب ؛ وفى داخلها اشتعلت ثورات الجند وفتنهم . وهنا نلاحظ أنه كان يوسع جريجورى امتصاص ثورات الجند بتوزيع أموال الكنيسة عليهم ، ولكنه وقف عاجزا عن التصدى لخطر اللومبارديين ، خاصة دوقى سبوليتو وبنفنتوم . فالأول وهو أخطر جار لروما وقتذاك ، قد دأب على قطع طريق المواصلات بين روما ورافنا ، ونعنى بذلك طريق فلامينيا *Via Flaminia* الذى يمر من خلال دوقيته ، أما الآخر وهو الذى تقع دوقيته فى الجنوب ، فقد كان مصدر تهديد مستمر لناپولى ، فى الوقت الذى أحكم قبضته على طريق المواصلات بين روما وبرنديزي (٢) .

وعلى أية حال ، شهدت سنة ٥٩١ موت زوتو دوق بنفنتوم ، وفاروالد دوق سبوليتو ، وقد خلف زوتو الدوق أريكييس *Arichis* فى حين خلف فاروالد الدوق أريولف *Ariulf* . وفى هذا العام أيضا نزل جفاف شديد بأرض ايطاليا ، أعقبته مجاعة شديدة الوطأة على الأهالى (٣) ، فى الوقت الذى ظل الطاعون يفتك بهم . والحق أن جريجورى لم يدخر وسعا فى إنقاذ روما من المجاعة ، إذ أمر أسقف صقلية بشراء كميات ضخمة من القمح ، جرى نقلها الى روما . وعلى الرغم من ذلك ، لم يتورع اللومبارديون عن القيام بشن

(1) Hodgkin, V, pp. 240-241; Villari, II, p. 288.

(2) Dudden, II, pp. 6-7; Deanesly, op. cit., p. 20.

(3) Paul., p. 151.

غارات على الأراضى الرومانية ، فنهبوا أديرة بروتى وطرّدوا رهبانها ، كما اقتحموا بعض جزر ساحل كمبانيا ، مما أدى الى فرار أعداد ضخمة من سكانها (١) . وليت الأمر يقتصر على ذلك ، إذ فى سبتمبر من نفس العام (٥٩١) وردت الأنباء الى جريجورى ، متضمنة أن أريولف دوق سبوليتو بصدد تجهيز حملة ضخمة يداهم بها روما أورافنا . والواقع أن جريجورى لم تفارقه يقظته وقتئذ ، إذ فضلا عن أنه تأهب للدفاع عن روما ، حشد قوات على الحدود لرصد تحركات أريولف ، وأمرها بالإغارة على ضواحي سبوليتو ، حال ظهور أول بادرة تؤكد صحة هذه التحركات ، ومن ثم يضطر أريولف للرجوع عن غرضه لحماية دوقيته . ولكن أريولف حول نظره عن القيام بحملته ، الأمر الذى هيا لجريجورى أن يقضى فصل الشتاء فى هدوء وسلام (٢) .

والى جانب هذا ، بدأ القلق يساور جريجورى على حدوده الشمالية ، التى كانت خطوطها الدفاعية عاجزة عن صد أى هجوم يقع عليها من قبل دوقية توسكانيا اللومباردية . ولما كانت مدينة نيبى البيزنطية Nepi الواقعة على بعد ثلاثين ميلا شمالى روما ، تعد أضعف نقطة فى هذه الحدود ، وتشكل خطرا على روما (٣) ، وتحت ضغط الحاجة الى حمايتها ، أقدم جريجورى على اتخاذ خطوة جريئة تتصف بالجرأة والشجاعة ، إذ عين حاكما عسكريا عليها من قبله . ولا يخفى أن عجز بيزنطة عن إرسال نجدات الى ايطاليا ، هو العامل الفاصل فى اتخاذ هذه الخطوة ، الأمر الذى جعله يتحمل مسؤولية الدفاع عن روما ، وقد مكنته موارده المالية الضخمة ، ونفوذه العظيم ، ونشاطه الزائد ، من تحمل هذه المسؤولية وتأمينها (٤) .

(1) Dudden, II, pp. 8-9.

(2) Ibid, pp. 9-10.

(3) Ibid, pp. 10-11; Deanesly, op. cit., p. 22.

(4) Dudden, II, p. 11.

ومما يشهد بحرصه البالغ على دفع أى خطر خارجى عن روما ، ما حدث فى صيف العام التالى (٥٩٢) * إذ تجددت مخاوفه من قبل دوشية سبوليتو ، ومن ثم كتب الى قواته المراقبة على الحدود بما يجول فى خاطره ، وزودها بتعليماته السابقة المتضمنة ضرب مؤخرة جيش أريولف (١) * وكان الأخير قد خرج على رأس حملة استطاعت الاستيلاء على مدن سوترى ، وبومارزو ، وتودى ، وأميليا ، وكانتيانو ، وأورتا ، وبيروجيا التى تعتبر مفتاح الطريق بين روما ورافنا ، ثم ظهر فجأة أمام أسوار روما فى يوليو سنة ٥٩٢ (٢) * وفى الوقت نفسه ، وبالاتفاق مع أريولف ، أغار أريكيس فوق بنفنتوم على كمبانيا ، ثم انطلق بقواته صوب مدينة نابلى ، التى كانت تموج بالفوضى آنذاك ، وليس بها حاكم أو قائد يحميها ، وخشية أن تقع فى أيدي أريكيس ، لم يتردد جريجورى فى تعيين قائد عسكرى من قبله يدعى قنسطنطيوس للدفاع عنها ، وأمر الحامية بطاعته (٣) *

ومن الواضح أن ما قام به جريجورى بتعيين قائد عسكرى لمدينة نابولى ومن قبلها مدينة نيبى ، كان عملا بالغ الجراءة ، يعتبر فى الواقع تعديا على حقوق بيزنطة ، ومن العجيب أن هذا العمل لم يلق أية معارضة من قبل الاكسارخ بوصفه صاحب السلطتين العسكرية والمدنية فى ايطاليا * وعلى أية حال ، لم يكتف جريجورى بما قام به فى هذا الصدد ، فقد دفعه تدهور أحوال بيزنطة وعجزها عن أحكام قبضتها على ايطاليا ، الى التفكير فى عقد صلح مع أريولف دوق سبوليتو ، ويمكننا أن نستشف ذلك من مضمون الرسالة التى بعث بها البابا الى رئيس أساقفة رافنا سنة ٥٩٢ ، اذ جاء بها أن الاكسارخ رومانوس بقواته الضعيفة لا ينوى الدخول فى حرب مع اللومباردين ، كما أن قناعته —

(1) Ibid, pp. 11-12.

(2) Ibid, p. 16.

(3) Ibid, pp. 12-13; Mann, The Lives of Popes, I, p. 104.

أى جريجورى - باليأس من وصول نجدات من القسطنطينية لدفع أذاهم ، قد رسخت في ذهنه تماما * ولا مراة أن تفكير جريجورى في الصلح كان نابعا من حرصه الشديد على تأمين سلامة مدينة روما ، ولهذا عقد اتفاقية سلام بينه وبين أريولف في يوليو سنة ٥٩٢ طبقا للموضع الراهن *Statu quo* (١) * وكانت نتيجة هذه الاتفاقية أن أحدثت أثرا سيئا في القسطنطينية ورافنا ، حتى أن الامبراطور موريس دمجها بالحماقة والطيش ، في حين رأى الاكسارخ ضرورة القيام بعمل يعجل بإبطالها ، فانطلق بقواته ، ولم يلبث أن استعاد المدن التي انتزعتها أريولف الواحدة بعد الأخرى (٢) ، الأمر الذى أدى الى فتح طريق المواصلات بين رافنا وروما من ناحية ، وفصل الممتلكات اللومباردية الجنوبية عن شمالها من ناحية أخرى (٣) *

وفي هذه الأثناء كان الملك أجيلولف مشغولا باخضاع بعض الدوقات الخارجين عليه ، فلما علم بما حدث من الاكسارخ وفقدان بيروجيا الحصينة بصفة خاصة ، ثارت ثائرتة وصمم على الانتقام ، وعلى الفور خرج من بافيا (٥٩٣) على رأس جيش كثيف زحف به جنوبا تجاه روما ، وفي الطريق إليها استرد مدينة بيروجيا ، ولم يلبث أن وصل روما وفرض الحصار عليها ، في حين كان البابا منهمكا في القاء عظاته عن النبی حزقيال ، فبادر بقطعها وتأهب للدفاع عن المدينة (٤) * ومن أعلى أسوارها شاهد الأسرى من الأهالى الرومان ، وهم يساقون كالكلاب ، وفي أعناقهم القيود ، ليبياعوا عبيدا في إقليم الغال (٥) *

(1) Dudden, II, pp. 13-16.

(2) Ibid, pp. 16-17.

(3) Mann, op. cit., I, p. 105.

(4) Dudden, II, pp. 17-21; Deanesly, op. cit., p. 22; Mann, op. cit., I, p. 105.

(5) Dudden, II, pp. 21-22.

ومن الملاحظ أن الحصار الذي فرضه أجيلولف على روما لم يستمر طويلا . ذلك أن أن البابا وقائد قواته الذي تمكن من دخول روما قبل أن يصلها أجيلولف بوقت قصير ، كانا على درجة من اليقظة والحرص وفرت لهما الصمود خلف أسوار المدينة ، ومن ثم ضاعت على أجيلولف فرصة مداومتها . وإذا كان أجيلولف غير راغب في البقاء طويلا تحت أسوار روما ، خشية أن تتفشى الحمى بين قواته من جهة ، ولاحتمال أن يستغل الاكسارخ فرصة غيابه عن أراضيه ويقوم بالاغارة عليها من جهة أخرى ، فقد أسرع الى فض الحصار وانسحب عائدا الى بافيا في أواخر صيف سنة ٥٩٣ ، مكتفيا بما أحرزه من انتصارات على الاكسارخ والغنائم التي حصل عليها (١) . وإلى جانب ذلك ، يبدو أن البابا أجرى مفاوضات مع أجيلولف ، ترتب عليها أن حصل الأخير على مبلغ ضخم من المال ثمنا لانسحابه . ويرى البعض أنه على الرغم من أن جريجورى جهز المدينة لمقاومة الحصار الذي فرضه أجيلولف عليها ، فقد أحس بثاقب نظره أن المدينة بأسوارها الضعيفة وحاجتها للرجال والمؤن ليست في مأمن من السقوط ، ولذلك عمل على اتقاها بجهوده الخاصة ، وكما قابل البابا ليو العظيم آتتلا من قبل وأقنعه بالعدول عن اقتحام روما ، كذلك فعل جريجورى نفس الشيء ، إذ تقابل مع الملك البربرى على درجات كنيسة القديس بطرس ، واستطاعت حكمته أن تتغلب على أطماع أجيلولف ، فانسحب من الحصار وعاد بقواته شمالا في سنة ٥٩٤ (٢) .

وإزاء الخطر الذي تعرضت له روما ، سيطرت على جريجورى فكرة إنها الحرب بين اللومباردين والامبراطورية البيزنطية ، والتوسط بينهما في عقد اتفاقية سلام شامل . وتنفيذا لهذه الغاية ، اعتمد البابا أساسا على صداقته للملكة الكاثوليكية ثيوديلندا ذات النفوذ الواسع على

(1) Ibid, p. 22.

(2) Mann, op. cit., I, pp. 106-107.

شعبها في التأثير على زوجها أجيلولف ، وبذل جهودها في إرساء دعائم السلام . ومما يذكر ، أنه خلال المفاوضات التي جرت بين البابا والاكسارخ رومانوس حول عقد اتفاقية السلام مع اللومبارديين ، رفض الأخير شروطها على الإطلاق (١) .

ولما تيقن البابا من أن رومانوس يقف حجر عثرة في طريق السلام ، بدأ يفكر جدياً في عقد اتفاقية سلام منفردة من جانبه مع اللومبارديين . وفي ضوء هذا التفكير حاول أن يدفع رومانوس مرة أخيرة للانضمام الى هذه الاتفاقية ، وذلك بالتلميح له أن بوسعه عقدها دون الرجوع الى بيزنطة ، ويبدو ذلك واضحاً من رسالة بعث بها جريجورى الى صديق له في رافنا في مايو سنة ٥٩٥ ، حثه فيها على مضاعفة جهوده مع رومانوس واقتناعه بمصافحة يد السلام الممدودة له ، خاصة أن أجيلولف أظهر ميلاً الى السلام ، أما اذا تمسك رومانوس بعناده وصلفه ، فليس أمامه — أى جريجورى — الا عقد الصلح مع أجيلولف نفسه ، وليس مع دوق تابع مثل أريولف (٢) . وقد أثارت هذه الرسالة سخط الامبراطور موريس ، فبعث في يونيو من نفس العام برسالة عنيفة اللهجة الى جريجورى اتهمه فيها بالخيانة والحماسة ، مما جعل البابا يرد عليه رداً صارماً لم يألفه الامبراطور من أحد رعاياه من قبل . والجدير بالذكر أنه رغم الموقف الجامد الذي وقفه موريس من مفاوضات السلام ، فقد ظل جريجورى على علاقته الودية معه ، وعلى النقيض من ذلك كان موقفه من رومانوس ، إذ اعتبره سبب المتاعب التي يعانيها من جهة ، والعقبة الكأداء في طريقه من جهة أخرى (٣) .

(1) Dudden, op. cit., II, pp. 23-24.

(2) Dudden, II, p. 25; Mann, op. cit., I, pp. 108-109.

(3) Dudden, II, pp. 25-26; Stephenson, op. cit., p. 133.

والحقيقة أن الخلاف بين روما ورافنا قد أضحى على مر الأيام أمرا لا يطاق . ويتبدى هذا الخلاف أن كلا من البابا جريجورى والاكسارخ رومانوس أخذ يكيل التهم للآخر بعرقلة خطته ومشاريعه . ومن الثابت أن ثمة أخطاء وقع فيها الاثنان ساهمت في إيجاد هذا الخلاف ، من ذلك أن جريجورى كان يتدخل في أمور رومانوس . في الوقت الذى لم يقدر الأخير بوصفه ممثل الامبراطورية البيزنطية في ايطاليا خطط جريجورى حق قدرها ، وبدلا من أن يتم التنسيق بينهما للعمل ضد اللومبارديين ، راح كل منهما يقلل من شأن الآخر ، مما جعل الوفاق بينهما مستحيلا (١) . وكان أن مات رومانوس في نهاية عام ٥٩٦ (أو بداية ٥٩٧) ، ولم يكد البابا يخفى غبطته بموت غريمه وتعيين كالفنقوس Callinicus مكانه ، وعلى النقيض من سلفه اتخذ موقفا وديا ازاء البابا ، ساعد على اقالة مفاوضات السلام من عثرتها (٢) .

وأخيرا ، انتهت مفاوضات السلام المتعثرة بالنجاح في خريف سنة ٥٩٨ . ذلك أن المندوب البابوى في بافيا أبلغ جريجورى أن الملك أجيلولف والاكسارخ كالفنقوس قد وافقا على شروط السلام المقترحة ، على أن الاتفاقية لم تصبح سارية المفعول الا في العام التالى (٥٩٩) ، نظرا لأن دوقى سبوليتو وبنفنتوم القويبين — أريكيس وأريولف — قد ماظلا بعض الوقت في التعاون مع مليكهما . ومهما يكن من أمر ، فقد وقعت اتفاقية السلام بين الأطراف الثلاثة البيزنطيين والبابا جريجورى واللومبارديين ، بعد سبع سنوات . ولا شك أن جريجورى كان أول من تهلك فرحا لها ، بعد أن أرى جهوده المغذية طيلة هذه السنوات متوجة بالنجاح . وقد عبر عن فرحته في رسالة شكر بعث بها الى أجيلولف

(1) Dudden, II, p. 32.

(2) Dudden, II, pp. 32-33; Mann, op. cit., I, p. 110.

بروتوكول فيربيلفيا - مذهب اليد الطولى قد كتب زوجيوا على توقيع اتفاقية
السلام (١)

وينبغي الانتباه هنا الى ان موريس وأجيلولف قد اختارا وقتا
مفاسدا ليعقد المباحثات الدبلوماسية . إذ قيل ان تروم مبادءة على
مخاضه ، الجنوب وديليا ، هام فتوقفت غاراتهم على ولايات الجنوب
الجنوبيه . وبناصريا بالمرام مرتين ، وقوتولوا بجيدا حتى وصلوا
نيسالونيكيا . بعد سار من ذلك تحرك الإفرار من بافونيكيا صوب الغرب
الأوربي . اغاروا على نورجيا ، واشتبكوا في حروب ضد مملكة الفرنجة
انفي سان المذهب ، يمزقوسا آنذاك ، ونتيجة لتلك الأخطار التي تعرضت
لوسا الإمبراطورية البيزنطيه ، لم يكن أمام موريس الا توقيع اتفاقية
الصلح مع اللومبارديين . حيث ناب الاكسارخ كالنقوس عنه في
توقيعها (٢) . وعلى الجانب الآخر ، كان أجيلولف أشد حاجة الى
السلام مع جيرانه في ايطاليا ، وقد أعطاه السلام فرصة حاسمة ،
جعاته يتفرغ لاختضاع الدوقات الخارجين عليه لطاعته . وينبغي
ألا يفرقنا أن البابا جريجوري الذي قام بدور حماسة السلام بين
البيزنطيين واللومبارديين ، قد ربح الكثير من وراء اتفاقية السلام ،
ذلك أن الطرق صارت آمنة ، واستطاعت رسله أن تتحرك خلالها
في أمن ويسر أنى اتجهت ، ناقلة تعاليم الكنيسة وأوامره (٣) .

وإذا كانت اتفاقية السلام قد حددت مسار العلاقات بين قوى
ايطاليا السياسية الثلاثة البيزنطيين واللومبارديين والبابوية ، فقد
أملت في الواقع سياسة الأوضاع القائمة في ايطاليا . وبمعنى آخر
جاءت هذه الاتفاقية لأول مرة بعد مضي ثلاثين عاما على الغزو

(1) Dudden, II, pp. 36-37; Mann, I, pp. 110-111.

(2) Lot Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 213; Hodgkin, V, p. 422.

(3) Hodgkin, V, pp. 423-424.

اللومباردي . بمشابهة اعتراف سريع من الامبراطورية والبابوية بوجود
الكيان اللومباردي في ايطاليا . نشأته في ذلك شأن مملكة الفرنجة في
الغال ، ومملكة القوط الغربيين في اسبانيا .

على أن السعائم الذي سعى اليه جريجوري الأول طويلا . وبذل
جهدا مضنيا في سبيل الوصول اليه ؛ مما لبث أن نقضه الاكسارخ
كالنقوس دون أن تتوفر لديه أسبا بذلك . إذ في ربيع سنة ٦٠١ تحين
الأخير فرصة خروج دوقيتي ترنت وشريلوي القويقتين على أجيلولف ،
وانقض على مدينة بارما . وكان من بين الأسرى الذين ساقهم معه
رافنا ابنة الملك زوجها . وهنا خطر على ياله أن يستخدم ابنة
أجيلولف كوسيلة يضغط بها على أبيها لتعديل شروط اتفاقية السلام
لصالح البيزنطيين (١) . ولكن الآمال التي بناها على فعلته الغادرة
لم تتحقق . إذ جن جنون أجيلولف خشية أن يصيب ابنه اذى . وبادر
بعقد تحالف دائم مع خان الآفار ، تلاه بالزحف على رأس جيشه على
الممتلكات البيزنطية ، فاستولى على بادوا المنيع ودمرها ، كما دمر
استريا الواقعة الى الجنوب من بادوا ، وأخيرا لوقع الهزيمة بالاكسارخ
تحت أسوار رافنا ، الأمر الذي جعل ايطاليا تحت رحمته . وفي يوليو
سنة ٦٠٣ انطلق أجيلولف بجيوشه من ميلان ، وقد انضمت اليه
أعداد ضخمة من السلاف أرسلها اليه حليفه خان الآفار ، ولقي الحصار
على كريمونا حتى سقطت في يده وسواها بالأرض ، وفي ١٣ سبتمبر
استولى على مانتوا بفتح ثغرات في أسوارها . (٢) . ولا جدال أن
الانتصارات التي أحرزها أجيلولف على القوات الامبراطورية بين سنتي
٦٠١ و ٦٠٣ قد وسعت من حدود مملكته ، وأضافت اليها رصيда جديدا

(1) Paul the Deacon, p. 165; Oman, op. cit., p. 194; Hodgkin, V, pp. 429 - 329; Dudden, II p. 39.

(2) Paul., pp. 167-171; Hodgkin, V, pp. 429-423; Dudden, I, p. 111; Mann, op. cit., I, p. 111.

من الأراضي ، ونتيجة لذلك لم يعد باقيا في شمال رافنا مدينة امبراطورية هامة ، إذ صار وای البوكلية في أيدي اللومبارديين ، وانقطعت الطرق البرية المؤدية الى البندقية •

وفي وسط المصاعب التي أحاطت بالبيزنطيين في إيطاليا ، سقط موريس من عرشه سنة ٦٠٢ ، وخلفه فوقاس Phocas ، كما جرى استدعاء الاكسارخ كالنقوس الى القسطنطينية ، وحل محله للمرة الثانية أقدر الذين تولوا هذا المنصب ، وهو سماراجدوس • صحيح أنه كان رجلا عنيدا ، ولكنه لم يخل من حصافة سياسة ويعد نظر ، بدليل أنه بعد أن درس الموقف البيزنطي في إيطاليا ، أدرك أن قوته الحربية أعجز من مواجهة اللومبارديين (١) • ولذلك أعاد الى أجيلولف ابنته ، وعقد معه هدنة في سبتمبر سنة ٦٠٣ مدتها ثمانية عشر شهرا (٢) •

وهكذا كانت الأيام الأخيرة من حياة جريجورى العظيم يرفرف السلام عليها • ومع أنه صار آنذاك على غراش المرض عاجزا عن التحرك ، ولا يستطيع الكلام إلا بصعوبة ، فقد ألقى رسالته الأخيرة التي بعث بها الى ثيوديلندا يزجى فيها الشكر على جهودها من أجل السلام ، ويحثها على مواصلة هذه الجهود مع زوجها ، إذ كان يأمل قبل موته أن تستقر علاقات المودة بين الأهالى الرومان واللومبارديين (٣) ، خاصة أن أداوالد Adalwald طفل أجيلولف الوحيد قد جرى تعميده على المذهب الكاثوليكي في كنيسة القديس يوحنا المعمدان في مونزا (٤) • والجدير بالذكر هنا أن أجيلولف ظل على مذهبه الآريوسى ، في الوقت الذى عامل رعاياه الرومان الكاثوليك بتسامح ، الأمر الذى جعل العدواة

(1) Hodgkin, V, p. 433; Dudden, II, pp. 39-4; Mann, op. cit., I, pp. 111 - 112.

(2) Paul the Deacon, p. 171.

(3) Dudden, II, p. 40; Mann, op. cit., I, p. 112.

(4) Paul., p. 170.

التقليدية بين اللومبارديين والرومان ، والتي زاد الخلاف المذهبي من مراتبها ، تبدأ تدريجيا في الذوبان (١) .

وأخيرا توفي جريجورى فى روما فى ١٢ مارس سنة ٦١٤ ، تاركا لخلفائه نفوذا روحيا واسعا ، وسلطة زمنية لم يحصل اليها أسلافه . والحق أنه رغم السنوات الصعبة التى شهدتها بابويته ، كان السلام حلمه الكبير ، ومن أجله دأب على حث أصدقائه وأعدائه جميعا على السير فى طريقه . والملاحظ أنه خلال سعيه للسلام ، لم يقدم تنازلات من جانبه ، ولم يحد عن إخلاصه لبيزنطة رغم الجحود التى قابلت به جهوده المخلصة . وصفوة القول أنه صاحب الفضل فى الحفاظ على روما وسط عواصف الفوضى ، فلم يفرط فيها للبرابرة ، وظلت فى نظره سيدة العالم ، ولا يخامرنا الشك فى أن مصيرها خلال سنوات بابويته ، اعتمد عليه وحده (٢) .

بقى أن نشير الى أن اللومبارديين تعرضوا فى عهد أجيلولف لتهديد خارجى واجه دولتهم من جانب السلاف والآفار على الحدود الشمالية الشرقية . إذ أثار السلاف المتاعب لإيطاليا وأجبروا دوقية فريولى على دفع الجزية لهم . أما الآفار فقد كانوا أشد خطرا على اللومبارديين من السلاف ، فرغم الاتفاقيات المتكررة التى عقدها أجيلولف معهم ، اندفع خانهم الى شمال إيطاليا فى سنة ٦١٠ ، وذبح جيزولف دوق فريولى فى معركة دارت بينهما ، ثم اجتاح البندقية ورجع بالعديد من الأسرى ، ومن حسن حظ أجيلولف أن غزوات الآفار وغاراتهم على الحدود اللومباردية لم تستمر ، إذ انصرفوا عنها الى شبه جزيرة البلقان . وعلى الصعيد الداخلى ، شهدت مملكة اللومبارديين على عهد أجيلولف مرحلة استقرار ، الداخلى بعد أن قضى على شوكة الدوقات الثائرين . واليه يرجع الفضل

(1) Dudden, II, pp. 40-42.

(2) Ibid, II, p. 42.

في ازدياد رقعة أراضيه على حساب البيزنطيين ، إذ لم يعد باقيا في
 اديليم إلا رافنا والجبال المحيطة بها ، والبندقية وأبوايا ، وكالابريا ،
 ونابولي ، وصقلية ، وروما وضواحيها ، وجنوه بما في ذلك المنطقة الواقعة
 خلف ساحلها (١) . وقد كانت الفرصة واثية له لغزو بقية إيطاليا ، ولكنه
 لم يفعل . ويعزو البعض سبب ذلك الى أنه قارب سن الشيخوخة آنذاك ،
 ونوق هذا أكثر أن يمنح قومه فرصة للدوء والسلام (٢) . ومهما يكن
 من أمره ، فإن عهد أجيولف بالنسبة للمبارديين يمثل دور النضج ، إذ
 في نهايته بلغوا ثأوا بعيدا في الحصار ، وصاروا على المذهب الكاثوليكي ،
 وأخذوا بعد استقرارهم في وطنهم الجديد يهتمون ببناء الكنائس
 والقصور ، بدلا من السعي الى تدميرها (٣) .

خلفاء أجيولف :

مات أجيولف وخلفه على العرش ابنه الوحيد أد الوالد (٦١٦ -
 ١٢٦ -) تحت وصاية أمه الملكة شيوديلندا (٤) ذات السمعة الطيبة بين
 قومها ، وفي عهده قامت ثورة في كمبريا ، ولقى الأكسارخ حنا (٦١١ -
 ٦١٦) مصرعه خلال ثورة قام جنده بها من جراء تأخر رواتبهم . على
 أن الأمر الذي يثير الانتباه أن الأكسارخ إلوثريروس
 (٦١٦ - ٦١٩) انتبذ فرصة الحصار الذي فرضه الآفار على القسطنطينية ،
 وأعلن نفسه امبراطورا في إيطاليا سنة ٦١٩ ، على أساس فصل إيطاليا
 عن الامبراطورية البيزنطية ، وإقامة إمبراطورية غربية جديدة . ثم كان
 أن زحف على روما بقصد تتويجه واتخاذها عاصمة له ، ولكنه لقي
 حتفه على أيدي جنده قبل أن يصلها . ولا شك أن هذه المحاولة رغم

(1) Lot, Les Invasions, p. 280; Hoyt & Chodorow, p. 77.

(2) Oman, op. cit., pp. 194-195.

(3) Ibid, p. 195.

(4) Paul., p. 190.

انتقائها بالفشل ، فقد دلت بصورة قاطمة على ضعف النفوذ البيزنطى بايطاليا (١) . والواقع أن الامبراطورية البيزنطية كانت تمر بفترة من أحلك فترات تاريخها في أوائل القرن السابع ، حتى صارت على وشك الانهيار . إذ في خلال السنوات العشرة الأولى من حكم الامبراطور هرقل (٦١٥ - ٦٤١) حقق الفرس انتصارات ضخمة في الجبهة الشرقية . ففي سنة ٦١٢ استولوا على أنطاكية ، أشامية وتبصرية ، وفي عام ٦١٤ استولوا على دمشق ، وفي العام التالى (٦١٥) احتلوا بيت المقدس . وحملوا معهم الصليب المقدس والمقننات والخزائن السيجية ، واستولوا على مصر في عام ٦١٧ ، كما تقدموا في آسيا الصغرى حتى خلتونية . هذا في الوقت الذى ظهر الآفار - كما أسلفنا - أمام القسطنطينية سنة ٦١٩ (٢) .

وعلى أية حال ، عندما بلغ الملك أد الوالد سن الرشد أصيب بالجنون ، فأقصاه اللومبارديون عن العرش واختاروا مكانه أريوالت (٣) . دوق تورين (٦٢٦ - ٦٣٩) زوج أخت سلفه جند برجا ابنة أجيلاف ووثيوديلندا ، ولا نعرف عن هذا الملك أى معلومات (٤) ، باستثناء أنه كان على المذهب الأريوسى بخلاف سلفه (٥) .

وعقب وفاة أريوالت ، خلفه على العرش روثارى Rothari (٦٣٩ - ٦٥٢) ، الذى تزوج من جندبرجا أرملة سلفه . وقد استهل الملك حكمه بقتل الكثير من النبلاء المعارضين له ، كما أنه تصرف بقسوة مع زوجته

(1) Paul, p. 176; Diehl & Marçais, Hist du Moyen Age, III, p. 151; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées, p. 219.

(2) Diehl, Hist. of Byzantine Empire, pp. 40-41; Villari, II, p. 331.

(3) Paul, pp. 191-192.

(4) Otaan, op. cit., p. 196.

الى حد أنه سجنها بقصره في بافيا خمس سنوات ، ولا نعرف الأسباب التي دفعته الى ذلك ، وإذ كان روثارى آريوسيا ، على حين كانت زوجته كاثوليكية ، فمن المحتمل أن الخلافات المذهبية - أو لى دوافع أخرى - جعلت الوفاق بينهما مستحيلا . وأخيرا أطلق سراحها بفضل كلوفيس الثانى ملك الفرنجة ، حيث كرست بقية حياتها للعبادة وأعمال الخير (١) .

ومما يجدر ذكره أن روثارى سار على سياسة أجيلولف التوسعية ، فحاض حروبا مريرة ضد البيزنطيين في ايطاليا استغرقت معظم عهده . فاستولى على منطقة ليجوريا الممتدة من نيس الى لونا (لوى) بها فيها عاصمتها جنوه سنة ٦٤١ ، كما استولى على مدينة أودرزو على ساحل البندقية ، على أن أعظم انتصار حققه كان في سكولتينا بالقرب من مودينا ، حيث ألحق بالاكسارخ اسحق هزيمة حاسمة راح ضحيتها ثمانية آلاف جندي ، إرتد على إثرها بفلولة الى رافنا (٢) . وهنا ينبغي الاشارة الى أن هرقل امبراطور الدولة البيزنطية كان في شغل شاسل بمتاعبه الجسيمة على الجبهة الشرقية ، ونعنى بذلك موجة الفتوح العربية الواسعة بغية نشر الدين الاسلامى ، الأمر الذى دفع هذا الامبراطور الى سحب القوات التي خلفها أسلافه في ايطاليا ، تاركا بذلك الاكسارخ في رافنا لا حول له لا قوة ، عاجزا عن اقرار الأمور .

والحق أن أهمية روثارى لا ترجع الى الانتصارات الحربية التي حققها فحسب ، بل في المقام الأول الى أنه شكل القانون اللومباردى . ففي سنة ٦٤٣ أصدر مجموعة القوانين العرفية الخاصة باللومبارديين التي لم يسبق تدوينها من قبل بمقتضى مرسوم Edictum Rothari ووافق عليها مجلس الشعب اللومباردى Witan . وهى في الواقع ليست إلا مجموعة بدائية تتناول أحوال شعب جرمانى يعيش على الفطرة

(1) Villari, II, pp. 337-338.

(2) Paul., pp. 199-200.

في أعماق الغابات الجرمانية ، أكثر منها صورة لشعب مستقر في قلب إيطاليا . ورغم أن الجزء الأكبر منها يتعلق بالفدية والتزامات الأتباع نحو سادتهم ، وتنظيم حقوق الوراثة ، والبعد عن العنف المسلح ، وترتيب المبارزات الشرعية ، دون أن تحوى شيئاً من حياة المدن والكنيسة ، فإن أهمية هذه المجموعة عظيمة من حيث دلالتها التاريخية ، علاوة أنها أول قانون مدون للومبارديين (١) .

وتجدر الملاحظة هنا أن الملكة اللومباردية في نهاية عصر روثاري قد بلغت أقصى اتساع لها على وجه التقريب ، واستقرت خريبتها السياسية في شكلها النهائي . ويرجع السبب في ذلك الى أنها ضيقت طاقتها وجهدها في منازعات وحروب أهلية طويلة وجودها ، مما جعلها عاجزة عن مد حدودها على حساب البيزنطيين الى أبعد مما وصلت إليه (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقد مات روثاري وخلفه ابنه رودوالد Rodoald (٦٥٢ - ٦٥٣) ، الذي كان على النقيض من أبيه أرعن فاسقا منحلا ، لقي نهاية عنيفة بعد بضعة أشهر من حكمه ، إثر طعنة خنجر من زوج غاضب لوث رودوالد شرفه (٣) . ثم تولى الحكم من بعده أريبرت الأول Aripert I دوق أستي (٦٥٣ - ٦٦٢) ، وهو ابن جندوالد شقيق ثيوديلندا التي عرفت بتقواها ، ومازال اسمها يشغل الأسماع بسيرتها العطرة . وكان جندوالد قد عبر جبال الألب مع أخته من بافاريا قبل ذلك بما يزيد عن نصف قرن (٤) ، وباتخاذها إيطاليا وطناله ، صار في نظر اللومبارديين لومبارديا . ومما يسترعى الانتباه

(1) Oman, op. cit., pp. 196-197.

(2) Oman, p. 272.

(3) Paul., p. 202.

أن أريبرت الأول لم يشن حرباً على جيرانه البيزنطيين خلال سنوات حكمه ، ولا نستبعد ذلك من رجل عرف بـ «نبي» وإصلاحه الكنيسة الكاثوليكية ، واقترب اسمه ببناء العديد من الكنائس ، والنسابة باقتلاع بقايا الآريوسية من مملكته (١) . وفي عهده أيضاً ظهرت بصمات الحضارتين اليونانية واللاتينية واضحة على المجتمع اللومباردي ، ويتمثل ذلك في حركة إحياء الدراسات التنميمة في مدينة ميلان (٢) .

والجدير بالذكر أن أريبرت قبل موته أوصى أن يخلفه على العرش ولداه جودبرت ، Godeb وبرتشارت Perctari ، وهو أمر لم يحدث من قبل في مملكة اللومبارديين (٣) . صحيح أن عادة تقسيم المملكة بين أبناء الملك المتوفى من الحقائق الأساسية في تقاليد الشعوب الجرمانية ، وعلى رجة الخصوص الفرنجة ، ولكننا بالنسبة للومبارديين كانت أمراً غريباً عليهم لم يألفوه . وعلى أية حال استقر جودبرت في بافيا ، في حين استقر بركتارت في ميلان (٤) . ولا شك أنه كان من الصعب أن يستمر هذا الوضع بين الأخوين ، إذ بعد مضي سنة واحدة على وفاة أبيهما اندلعت الحرب الأهلية بينهما . ويهنا هنا أن جودبرت حرص على اكتساب جريموالد Grimwald دوق بنفنتوم القوى إلى جانبه ، فأرسل إليه جاريبالد دوق تورين يدعو إلى التحالف معه ضد أخيه ، ووعد في نظير ذلك بتزويجه من أخته . ولكن جاريبالد بدلاً من أن يقوم بمهمته على الوجه المطلوب ، وأخذ يسوّل له الأمر بالتقليل من شأن الأخوين ، وما آل إليه حالهما من ضعف شديد . فوافق جريموالد ، وبادر بالخروج من دوقيته على رأس قوة إلى بافيا ، حيث تغلب على جودبرت ، وقام

(1) Oman, op. cit., pp. 272-273; Deanesly, A Hist. of Early Med. Europe, p. 251.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 219; Deanesly, p. 251.

(3) Oman, p. 205.

(4) Paul., p. 205.

بقتله منتزعا العرش لنفسه (١) . وعندما سمع بركتارت بما حدث ، لاذ بالفرار الى الآفار في سكثيا بمنطقة الدانوب . ولكنه في زحمة الهروب السريع لم يستطع أن يأخذ معه زوجته وابنه كونبيرت (Cunibert) ، فقبض عليهم جريمو والد وأرسلهما سجينين الى بنفنتوم (٢) . ولم يلبث جريمو والد أن تزوج من أخت جودبرت ، ونادى بنفسه ملكا على اللومبارديين في بافيا سنة ٦٦٢م . حدث ذلك في الوقت الذي عهد لابنه رومو والد بحكم دوقيته بنفنتوم نيابة عنه (٣) .

وخلال تلك الفترة ، كان الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني (٦٤١ — ٦٦٨) قد أحرز انتصارا على السلاف ، وعقد هدنة مع المسلمين سنة ٦٥٨ — ٦٥٩ ، ثم خرج بأسطوله من القسطنطينية (٤) . دون أن يرضخ وجهته أو غرضه . ويرى البعض أنه أبحر بأسطوله ليتفقد أهم مراكز ممتلكاته الأوروبية (٥) . في حين يرى البعض الآخر أنه استهدف نقل مقر امبراطوريته الى صقلية ، التي يسيل الدفاع عنها ضد المسلمين (٦) . أما يوليس الشماس ، فقد أشار الى أنه خرج من عاصمته بغية كبح جماح اللومبارديين ، فرسا بأسطوله أولا في ثيسالونيكيا ، ثم توجه الى أثينا حيث ظل بها فترة طويلة ، ومنها أبحر الى تارانتو على الساحل الايطالي سنة ٦٦٣ ، ومن ثم انطلق مسرعا الى بنفنتوم ، وفي طريقه اليها جمع بعض المعلومات عنها ، وسقطت في يده بعض المدن دون شروط ، وأخيرا ظهر أمام بنفنتوم وفرض الحصار عليها (٧) .

(1) Ibid. pp. 205-206.

(2) Ibid. p. 206.

(3) Ibid. p. 209; Villari, op. cit., II, p. 348.

(4) Diehl & Marcais, III, p. 239; Lot., Les Destinées., p. 219.

(5) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 122.

(6) Villari, II, pp. 350-351.

(7) Paul., pp. 217-219; Ostrogorsky, op. cit., pp. 122-123; Villari, II, p. 351.

على أنه قبل أن يصل الامبراطور الى أسوار بنفنتوم أدرك صعوبة موقفه ، فبادر بارسال معلمه وأستاذه سيزوالد Seswald الى أبيه في بافيا لإبلاغه بالخطر الذي يتهدد به * وهنا لم يعبأ جريموالد بأمور مملكته ، وغادرها مسرعا على رأس جيشه لانقاذ دوقيته ، وفي أثناء سيره أخذ العديد من جنده ينفذون من حوله ، بعد أن راجت الشائعات عن عدم عودته الى بافيا مرة أخرى ، ولكنه لم يكثر لذلك ، وأرسل سيزوالد ليخبر ابنه أنه في الطريق لنجدته ، وينصحه بالثبات في وجه الامبراطور * وشاء سوء الحظ أن يقع سيزوالد في قبضته قنسطانز ، وتحت سلاح التهديد طلب اليه أن يخبر روموالد أنه ليس بوسع أبيه نجده ، ولكن سيزوالد رفض ، فقتله قنسطانز وأمر بالقاء رأسه من آلة منجنيق الى داخل أسوار بنفنتوم ، حيث استقبلها روموالد بالقبلات والدموع (١) * على أن الامبراطور بقواته القليلة ونقص موارده المالية ، سرعان ما استبان له صعوبة البقاء طويلا تحت أسوار بنفنتوم ، ولذلك اضطر الى الانسحاب والعودة الى نابولي (٢) *

وفي ٥ يوليو سنة ٦٦٣ اتجه قنسطانز لزيارة روما ، وهي أول زيارة يقوم بها امبراطور منذ سقوط الامبراطورية في الغرب سنة ٤٧٦ ، وقد استقبله البابا فيتاليان (٦٥٧-٦٧٢) على رأس رجال كنيسته ، على بعد ستة أميال من أسوار المدينة ، قدم له فروض الطاعة والولاء (٣) * وبعد أن مكث الامبراطور بروما اثني عشر يوما ، قرر أن يغادرها في ١٧ يوليو ٦٦٣ الى نابولي ومنها الى صقلية (٤) ، بيد أنه قبل أن يغادر إيطاليا عمل على تقوية نفوذ رئيس أساقفة رافنا باستقلاله عن البابوية ،

(1) Paul., pp. 219-220.

(2) Ostrogorsky, p. 123.

(3) Ibid.

(4) Paul., p. 224.

كما ترك وراءه في جنوب إيطاليا القوات التي صاحبته خلال حملته (١) .
ومما يذكر أنه بعد مضي بضع سنوات واجه الامبراطور مؤامرة خطيرة
في سيراكيوز قضت عليه مخنوقا في حمامه في ١٥ سبتمبر سنة ٦٦٨ ،
وخلفه على العرش ابنه قنسطنطين الثالث (٦٦٨ - ٦٨٥) (٢) . ويهمننا
من هذا أن روموالد استغل فرصة وفاة قنسطانز الثاني ، وقيام ثورة
في جزيرة صقلية أثارت المتاعب للامبراطورية ، وخرج على رأس قواته
للقضاء على القوات التي خلفها قنسطانز وراءه ، فعجزت عن الصمود
أمامه وولت هاربة ، هذا في الوقت الذي نجح في الاستيلاء على مدن
ترنت وبرنديزي وكالابريا البيزنطية (٣) .

ولم يكد الملك جريموالد يفرغ من متاعبه مع البيزنطيين ، حتى عول
على الرجوع الى بافيا لاحكام سيطرته على المملكة ، فضلا عن مكافأة
الذين وقفوا الى جانبه خلال نزاعه مع الامبراطور البيزنطي ، والانتقام
من الذين تخلوا عنه . ومن أولئك الذين كافأهم على موقفهم المخلص منه
ترانساموند دوق كابوا ، فزوجه من ابنته ، وأسند اليه دوقيه
سبوليتو (٤) . وكان أن وجه جريموالد انتباهه النيل من لويوس Lupus
دوق فريولي ، وهو أحد الذين انتهزوا فرصة خروجه من بافيا لانقاذ
بنفنتوم من الحصار البيزنطي ، ورسخ في ظنه أنه لن يعود الى عاصمته
مرة أخرى ، فخرج عليه ، مما جعل جريموالد لا يعتقر له فعلته ،
فزحف عليه بجيوشه ، وألقى به هزيمة فادحة انتهت بمصرعه . وبعد أن
فرغ من أمر لويوس ، سار جريموالد بجيوشه الى مدينة فوريموبولي
البيزنطية الواقعة على بعد عشرين ميلا الى الجنوب من رافنا ، وكان

(1) Diehl & Marçais, III, op. cit., p. 239; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 219-220.

(2) Villari, op. cit., II, p. 352.

(3) Oman, p. 274; Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., p. 221.

(4) Paul the Deacon, pp. 226-227.

سكان هذه المدينة قد ألحقوا بجيشه أضرارا رهو في طريقه الى بنفنتوم . فضلا عن أنهم ضايقوا رسله في ذهابهم الى بنفنتوم وعودتهم منها . وهنا استغل جريموالد فرصة حلول عيد الفصح ، وانشغال الأهالي بالاحتفالات فداممها وأطلق العنان لجنده لنهبها وسلبها (١) . والواقع أن استيلاءه على هذه المدينة يعتبر المكسب الاقليمي الوحيد الذي حصل عليه من البيزنطيين .

أما عدوه اللدود بركتارت الذي فر الى الآفار لائذا بهم كما أسلفنا ، فقد حاول جريموالد أن يغري الآفار على تسليمه . ولكن محاولته باءت بالفشل . وهنا نلاحظ أن بركتارت أقدم على القيام بخطوة جريئة ، إذ أرسل تابعه المخلص أنولف *Unulf* لبافيا لابلاغ جريموالد برغبته في العودة الى ايطاليا بمحض ارداته لسأمة وضيقه من العيش وسط الآفار الوثنيين من ناحية ، ولثقتة الزائدة في صدق عقيدة جريموالد التي تحول دون الغدر به بعد عودته من ناحية أخرى . وكان أن رجع بركتارت الى ايطاليا ، واستقبله جريموالد في قصره بترحاب . بيد أن الشكوك لم تلبث أن راودت جريموالد عندما عرف أن كثيرا من زعماء اللومبارديين أخذوا يتقربون اليه يلتمفون حوله ، فثارت ثائرتة وصمم على التخلص من بركتارت بقتله . وإذ علم بركتارت بما يدور حوله دبر خطة للهرب بمساعدة تابعه أنولف ، انتهت بنجاحه في عبور جبال الألب الى مملكة الفرنجة (٢) .

وفي هذه الأثناء أرسل ملك الفرنجة كلوثار الثالث جيشا اقتحم ايطاليا من ناحية جبال الألب الغربية غير أن جريموالد استخدم الحيلة في صد الفرنجة ، إذ تظاهر بالفرار أمامهم ، تاركا معسكره في ريفولى غنيمة لهم . وفعلا انطلت الحيلة على الفرنجة ، فدخلوا المعسكر الخالي وأخذوا

(1) Ibid, pp. 229-233.

(2) Ibid, pp. 209-210.

الى الراحة . ومن ثم باعترف جريموالد . وأحدث في صفوفهم منيعة مروعة
لم ينتج منها إلا القليل (١) . ثم كان أن عقدت اتفاقية سلام بين الفرنجة
واللومبارديين في عام ٦٧١ (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقد توفي جريموالد في نفس العام الذي أبرم
فيه اتفاقية السلام مع الفرنجة . ومع أنه استخدم طريقته المذمومة والعنف
في سبيل الوصول الى العرش ، فالواقع أن الانتصارات الحربية
التي أحرزها رفعت من شأنه في نظر قومه ، ونسجت قصصا عديدة حول
قوته وشجاعته . وليس من شك أنه كان محاربا قديرا ، ولكنه في نفس
الوقت كان يفتقر الى الحنكة والحصافة السياسية المطلوبة في رجل
الدولة ، بدليل أنه لم يفتنم فرصة انسحاب الامبراطور قنسطانز الثاني
من أمام أسوار دوقيته ثم وفاته بصقلية ، حيث كان بوسع اخضاع
الجنوب الايطالي لسيادته ، ولكنه بدلا من ذلك أسرع بالعودة الى بافيا ،
وأضاع وقته وجهده في عمليات انتقامية ثانوية وحروب غير حاسمة ، كان
في غنى عنها (٣) . ومما يذكر أخيرا أنه اعتنق مذهب الكنيسة الغربية —
على ما يبدو — في سنة ٦٦٨ ، وأضاف عدة فصول جديدة لمجموعة
قوانين روثاري (٤) .

وبعد وفاة جريموالد احتفظ أكبر أبنائه روموالت بدوقية بنفنتوم ،
في حين بقى ابنه جاريبالد تحت وصاية أمه ابنة الملك أريبرت في
بافيا . والجدير بالذكر أن اللومبارديين لم يختاروا أحد الأخوين ملكا
عليهم ، واستدعوا بركتارت لهذا الغرض (٥) . وكان بركتارت — كما
أسلفنا — قد فر لاجئا الى مملكة الفرنجة ، ثم عزم على مغادرتها الى

(1) Ibid. pp. 216-217.

(2) Ibid. p. 235; Villari, II. p. 358.

(3) Villari, II. p. 353.

(4) Paul., p. 236.

(5) Oman, p. 274.

انجلترا ، ولكنه رجع عن قصده عندما وصلتة أنباء موت جريموالد ، وما تبع ذلك من استدعائه لثولي العرش • وعلى أية حالة دخل بركتارت ايطاليا ، حيث استقبله الشعب اللومباردى وقادته وزعماءه بالطاعة والولاء ، وتوجوه ملكا عليهم فى بافيا (١) •

وفى هذه المرة حكم بركتارت (٦٧١ - ٦٨٨) سبعة عشر عاما قضاها فى سلام وهدوء ، فكما أسلفنا كان غير ميال بطبيعته للحرب ، بسبب تدينه وحماسه الشديد للكاتوليكية ، وقد عرف بعدالته وبره بالفقراء ، وهو الذى شيد دير سانت أجاثا الشهير St. Agatha وكنيسة العذراء الكبيرة خارج أسوار بافيا (٢) • ولا شك أن ملكا من هذا الطراز ، ممن وصفهم مؤرخو الكنيسة بمظاهر المجد والشرف ، لا يدخل فى عداد صناع التاريخ (٣) • إذ من المعروف أنه خلال عهده الطويل لم يرفع السلاح إلا مرة واحدة ، عندما خرج عليه ألاكيس (ألاهيس) دوق ترنت ، فبعد أن تغلب عليه واعتزم قتله ، سرعان ما تراجع عن عزمه بعد أن استعطفه الدوق ، وقدم اعتذارا لما بدر منه (٤) ، الأمر الذى كلف مملكة اللومبارديين الغزير من الدماء فى عهد خلفه •

وقد خلف بركتارت بعد وفاته ابنه كونبرت (٦٨٨ - ٧٠٠) • ومع أنه كان شجاعا كريما محبوبا من شعبه ، إلا أنه جمع الى جانب تلك الصفات الحميدة صفات أخرى تتناقضها تماما ، وهى التهاون والاستخفاف والانكباب على شرب الخمر ، مما شجع ألاكيس على الخروج عليه ، حيث نجح فى انتزاع أقاليم المملكة من يده ، فيما عدا قلعة وحييدة حصينة فى بحيرة كومتى بها كونبرت ، لم يستطع ألاكيس الاستيلاء

(1) Paul the Deacon, pp. 236-237.

(2) Ibid, pp. 237-238.

(3) Oman, p. 275.

(4) Paul., pp. 239-240.

عليها * على أنه لم تنقض بضعة أشهر على الاطاحة بكونبرت ، حتى ضاق اللومبارديون ذرعا — وخاصة رجال الدين — بالأكيس بسبب طغيانه واستبداده وكرهيته الشديدة للكنيسة ، ونتيجة لذلك أخذت المدن اللومباردية تنفض عنه تباعا ، واستغل كونبرت الفرصة لصالحه ، ففرج من قلعته المنيعه ، ولم يلث اللومبارديون أن التفتوا حوله ، وحدث اللقاء الحاسم بينه وبين الأكيس في كورناتى الواقعة على نهر أدا على بعد حوالى عشرين أميال الى الجنوب الغربى من برجامو ، وفى هذا اللقاء منى الأكيس بهزيمة ساحقة أسفرت عن سقوطه صريعا ، ومن ثم عاد كونبرت الى عرشه (١) * والواقع أن ثورة الأكيس لم تكن الوحيدة التى واجهت كونبرت ، إذ انشغل أيضا بالقضاء على ثورات أخرى قام بها بعض الدوقات الأقوياء * ونذكر منهم على سبيل المثال أنسفرت Ansfrit الذى خرج من قلعته فى راجوجنا الواقعة على بعد حوالى ثلاثين ميلا الى الغرب من كيفيدالى ، بهدف انتزاع العرش من كونبرت ، ولكنه رجع خائبا ، إذ استطاع كونبرت أن يقبض عليه فى فيرونا ، ويعاقبه بسمل عينيه (٢) *

وغنى عن البيان أن أعمال الملوك اللومبارديين إبان الربع الأخير من القرن السابع كانت بعيدة تماما عن الأهمية ، فكما رأينا شتتت بركناتر جهوده فى بناء الكنائس ، وشغل كونبرت معظم وقته فى اخماد الثائرين من دوقاته * وأخيرا نصل الى القول أن إيطاليا فى القرن السابع أضحت موزعة بين ثلاث قوى وهى : الدولة البيزنطية واللومبارديون والبابوية (٣) *

(1) Ibid, pp. 241-249; Villari, op. cit., II, p. 354.

(2) Paul., p. 252.

(٣) ذكر المؤرخ كانتور أن المسلمين فتحوا صقلية فى القرن السابع الميلادى ، وبالتالي صارت شبه الجزيرة الإيطالية فى نهاية هذا القرن مقسمة

=

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على خريطتها السياسية في نهاية هذا القرن ، استبان لنا ما كانت عليه من فوضى سياسية ، قدر لها أن تظل قائمة حتى القرن التاسع عشر . وتتمثل أملاك الدولة البيزنطية في الشمال الشرقي من استريا حيث تريست وجرادو ، في حين لاذ سكان البندقية بوسط البحيرات الضحلة في هرقله ومالامكو ، أما فريولي في داخل استريا فكانت تابعة للومبارديين ، وفي جنوب البو : رافنا وبولونيا ، وفي جنوب إيطاليا بنتابوليس بمدنها ، وفي أقصى الجنوب الإيطالي ظلت مدينتابروتيوم وأبوليو في أيدي البيزنطيين ، وكذلك دوقية نابولي . وقد تألفت دوقية روما من بقايا كمبانيا الرومانية ، وسابينيا ، وجنوب توسكانيا^(١) . أما بقية شبه الجزيرة الإيطالية ، ونقصد بذلك داخلها ، فقد بقي في أيدي اللومبارديين . وهنا نكرر القول أن السلطة الفعلية للملك اللومباردي كانت قاصرة على سهل البو فقط ، إذ أن دوقيات بنفنتوم وسالرنو في الجنوب ، وسبوليتو في الوسط ، وفريولي في الشمال الشرقي ، كانت جميعا مستقلة من الناحية العملية^(٢) .

=

بين أربع قوى وهي : البيزنطيون ، والبابوية ، واللومبارديون ، والمسلمون . وقد أخذت الترجمة العربية بذلك . والحقيقة أن المسلمين فتحوا صقلية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، وبالتحديد في سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، أما قبل ذلك فقد كانت غاراتهم تتوالى عليها ، باعتبار أنها إحدى مراكز الخطر البيزنطي الذي دأب على تهديد دولتهم الفتية . انظر :

Cantor, Medieval History, p. 145 (1929).

والترجمة العربية ، كانتور : تاريخ العصور الوسطى ، ج ١ ص ٢٧٣ .

(1) Lot, The End., pp. 287-288.

(2) Ibid, p. 288.

الفصل الرابع

« اللومبارديون في إيطاليا في القرن الثامن »

— ليوتبراند •

— التحالف بين البابوية والفرنجة •

— سقوط المملكة اللومباردية •

— محاولة إحياء المملكة اللومباردية •

توفي الملك كونبرت في نهاية القرن السابع ، وخلفه ابنه الصغير ليوتبرت Liutpert (٧٠٠ - ٧٠١) ، تحت وصاية مربية آنسبراند Ansprand . بيد أنه بعد مضي ثمانية شهور غرقت المملكة اللومباردية في لجة الفوضى ، واندلعت حرب أهلية جديدة أثارها أقرب الناس الى الملك - وهم أبناء عمومته - طمعا في العرش ، وكان أبرزهم راجنبرت وابنه أريبرت . وقد استطاع راجنبرت أن يهزم الوصي آنسبراند في نوفارا ، بيد أنه لم يهنأ بانتصاره طويلا ، إذ مات في أعقابها مباشرة ، ولم يلبث ابنه أريبرت أن نهج نفس السياسة ، فالتقى مع آنسبراند في موقعة أمام بافيا ، أسفرت عن هزيمة الوصي وفراره الى جزيرة كوماتشينا ، ووقع الملك الصبي أسيرا ، وفي الحين نفسه استطاع أريبرت أن يستولى على العاصمة ، حيث رفعه أتباعه ملكا تحت اسم أريبرت الثاني (٧٠١ - ٧١١) . وكان أول ما قام به الملك الجديد من أعمال أن انتقم من الذين وقفوا الى جانب آنسبراند ، وعلى وجه الخصوص روثاريت دوق برجامو ، إذ أرسل اليه جيشا ضخما حاصره في مدينته ، الى أن وقع في يده ، وأمر بقتله (١) . على أن أريبرت الثاني لم يهدأ بالا بقتل دوق برجامو ، إذ تخلص من الملك الشرعي الصغير الواقع تحت رحمته بقتله ، واستتبع جرمه الشنيع بارسال جيش ضخم الى جزيرة كوماتشينا للقضاء على الوصي آنسبراند ، ولكن الأخير استطاع أن يلوذ بالفرار الى دوقية بافاريا ، وعندئذ صب أريبرت الثاني جام غضبه على زوجة آنسبراند وأسرتة ، فأنزل بهم أشد أنواع الأذى والاضطهاد ، فيما عدا أصغر أطفاله ليوتبراند Liutprand ، الذي تركه وشأنه لأنه لا يشكل أى خطر عليه (٢) . والجدير بالذكر أن هذا الطفل الذي نجا من بطش أريبرت الثاني قدر له أن يصبح فيما بعد أعظم ملوك اللومبارد قاطبة .

وقد حكم أريبرت الثاني فترة تزيد على عشر سنوات ، انشغل

(1) Paul the Deacon, pp. 264-265.

(2) Ibid, p. 265; Villari, The Barbarian Invasions, II, p. 355.

خلالها بصد السلاف عن البندقية ، فضلا عن محاولة فرض سيطرته على دوقيتي سيولينو وبنفنتوم القويتين • أما بالنسبة الى موقفه من الامبراطورية البيزنطية والبابوية ، فقد فضل العيش معهما بسلام ، وبذلك وطد علاقته بالبابوية ، وفضلا عن أنه نفحها هبات سخية ، فقد أعاد الى البابا يوحنا السادس (٧٠١ - ٧٠٥) أحد الأقاليم الواقعة في منطقة الألب الكوتية والذي كان أسلافه قد انتزعوه منه من قبل (١) •

ولم يكد أريبرت الثانى يفرغ من متاعبه ، ويثبت عرشه وسط عواصف الفوضى والقلقل التى اجتاحت مملكة اللومبارديين فى السنوات الأخيرة ، وعلى حين بدت له الأمور مستقرة ، هبط الوصى آنسبراند على إيطاليا بجيش ضخم من البافاريين فى سنة ٧١١ • وفى أثناء زحفه على بافيا ، انضمت اليه آلاف عديدة من اللومبارديين الذين يضمرون الحب والولاء لببيت بركتارت ، ويؤثرونه على حكم أريبرت الذى لم يكن فى نظرهم غير مغتصب للعرش وسفاك للدماء (٢) • وسرعان ما خاض آنسبرت معركة مع أريبرت أريققت فيها دماء الكثيرين من الجانبين ، ومع أنها لم تكن حاسمة ، فقد أجبرت أريبرت على الارتداد الى داخل أسوار المدينة ، مما عاد عليه بأوخم العواقب • إذ فترت همة جيشه ، وأخذ أنصاره يتخلون عنه تباعا • وكان أن وجد أريبرت نفسه وحيدا ، فسقط فى يده ، ومن ثم قرر أن يحمل كنوزه ويهرب بها الى مملكة الفرنجة بغية الحصول على مساعدتها بالمال ، ولكنبه عندها حال عبور نهر تشينو سباحة ، وبسببه التيار بعيدا عن الشاطئ ، أعجزه ثقل الكنز الذى كان يحمله فوق ظهره عن مواصلة السباحة ، فمات غرقا ، تاركا العرش خاليا لمنافسه آنسبراند • غير أن الأخير لم يهنأ بالعرش إلا ثلاثة شهور

(1) Ibid, pp. 265-272; Oman, Dark Ages, p. 280.

(2) Oman, op. cit., p. 280.

مات على إثرها في ١٣ يونيو سنة ٧١٢ ، بعد أن أوصى أن يخلفه ابنه ليوتبراند (١) .

والحق أن ليوتبراند (٧١٢ — ٧٤٤) يعد أعظم الملوك اللومبارديين على الإطلاق . فبإرثائه عرش المملكة انتهى عصر من عصور الفوضى والاضطرابات التي شهدتها هذه المملكة . ويتمثل ذلك بوضوح في أنه جعل السلطة الملكية على دوقات الشمال حقيقة ملموسة ، وفرض طاعته على دوقات الجنوب ، ومن ثم مد نفوذه على جميع أنحاء المملكة . ولكنه جريا على سياسة أسلافه لأجيولوف وروثاري وجريموالد ، عقد العزم على إخضاع إيطاليا كلها لنفوذه ، وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف ، وضع نصب عينيه ضرورة تقليص أظافر البابوية من جهة ، والتوسع على حساب ممتلكات البيزنطيين في إيطاليا من جهة أخرى (٢) .

على أنه بعد أربعة عشر عاما على حكم ليوتبراند ، ظهرت مشكلة دينية كبرى القسطنطينية ، استمر أثرها قائما طوال عدة قرون في تاريخ غرب أوروبا ، فضلا عن شرقها . وتتمثل هذه المشكلة في الخلاف الذي ظهر حول مسألة عبادة الصور والأيقونات في الدولة البيزنطية ، إذ ظهر رأى ينادى بتحريم عبادتها وتقديسها ، في حين رأى المؤيدون لها أن تقديسها أمر طبيعي يفرضه احترام صاحب الصورة . وبانتشار عبادة الأيقونات في القرن الثامن ، تطلب الأمر من الامبراطور ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ — ٧٤١) علاجا سريعا لهذه المشكلة ، وذلك بإزالة جميع الأيقونات التي تمثل المسيح عليه السلام والقديسين . على أنه قبل أن يتخذ هذه الخطوة قدر خطورتها وتردد طويلا . وأخيرا وجد الفرصة مناسبة في سنة ٧٢٦ ، وذلك عند قيام ثورة بركانية عند ثيرا

(1) Paul., pp. 277-278; Oman, pp. 280-281; Villari, op. cit., II, p. 355.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées de l'Empire en Occident, p. 244; Lot, The End of the Ancient World, p. 290.

Thera ، فسرهما ليو بأنها علامة غضب من الرب على الدولة ، فأصدر مرسوما في السنة نفسها ينص على منع عبادة الصور والتمثيل ، وأخذ جنوده يرفعون الأيقونات الى أماكن عليا كي تكون بعيدة عن متناول الأيدي ، ولكنهم عندما حاولوا خلع الصورة الكبيرة للمسيح التي كانت معلقة عند مدخل القصر الامبراطوري حرص الرهبان الجماهير ، فثاروا ضد الامبراطور ، بيد أنه أخضع ثورتهم في سهولة (١) .

وعندما انتقلت أخبار هذه الحوادث الى خارج القسطنطينية ، نشبت القلاقل والاضطرابات ، فقامت ثورة في اليونان في العام التالي (٧٢٧) استلزمت تدخل الجيش الامبراطوري لاقمادها ، أما في ايطاليا ، فقد كانت المعارضة أشد وأقوى ، إذ وقف البابا جريجوري الثاني (٧١٥ - ٧٣١) ، ومن بعده جريجوري الثالث (٧٣١ - ٧٤١) موقفًا عنيدًا صلبًا من سياسة ليو الثالث اللاأيقونية . والحق أن البابوية كانت ناقمة على سياسة ليو الثالث المالية وتدخله في شئونها ، فالضرائب التي فرضها ليواصل الحرب مع المسلمين لم تسد نفقات الجيش الامبراطوري ، ولهذا كان فرض ضرائب جديدة أمرًا لا مفر منه ، وحوالي سنة ٧٢٥ فرض ليو ضرائب على ممتلكات الكنيسة أثقلت كاهلها بالأعباء ، وإلى جانب هذا كانت البابوية غير مستعدة لأن تقبل مرسوم ليو الخاص بتحريم عبادة الأيقونات (٢) . وقد رد البابا جريجوري الثالث على هذا المرسوم بإصدار قرار بانزال اللعنة على كل من ناصر أعداء هذه العبادة (٣) . وتطور الأمر الى حد أن ثارت

(1) Diehl, Hist. of the Byzantine Empire, p. 58;

— رنسيهان : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٢ .

— سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ، ج ١ ص ١١٦ - ١١٧ .

— عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٨ .

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 224-225;

— عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(3) Lot, Pfister & Ganshof, p. 225; Diehl & Marçais, Hist. du Moyen

Age, III, p. 265.

البندقية ورافنا وبنتا بوليس وروما ، ووقفت جميعا الى جانب البابا ، في حين ساندت صقلية وجنوب إيطاليا الامبراطور اللاتينى (١) . وعلى أية حال ، انفجرت غالبية أقاليم إيطاليا في ثورة عارمة واسعة النطاق بسبب سياسة ليو اللاتينية ، فقد ذبح إكزيلا راتوس دوق نابولي عندما حاول أن يطبق مرسومهم ليو في دوقيته ، كما طرد العديد من الحكام في الأقاليم البيزنطية ، واختار الأهالي حكاما جددًا أيقونيين بدلا منهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، إذ شرعت بعض المدن الأيقونية في اختيار امبراطور آخر في إيطاليا ، لولا أن البابا جريجورى الثانى منعها من ذلك ، وعلى الجملة يمكن القول ان الأقاليم البيزنطية الأيقونية قد انفصلت تماما عن القسطنطينية (٢) .

ومن الطبيعى أن يستغل ليتوتبراند النزاع الدائر بين البابوية والامبراطورية حول مشكلة عبادة الصور لصالحه ، وراح يمنى النفس بأن الطريق بات ممهدا أمامه لتوحيد إيطاليا كلها في قبضته . ومن ثم عبر بجموعه الضخمة نهر البو ، ولم يلبث أن هاجم الممتلكات البيزنطية ، فاستولى سنة ٧٢٨ على بولولنا ، ومعظم مدن إيميليا ، وأوزيمو ، وريميني ، وماتن البنتابوليس ، وكلاسييس ميناء رافنا البحرى ، ثم زحف على رافنا واقتحمها حتى سقطت في يده ، غير أن الأكسارخ أوتيشيوس Eutychius تمكن من الفرار الى البندقية التى تكفل بحيراتها الضحلة ملاذا آمينا ، ثم واصل زحفه ، وتوغل بعيدا في اللادوقية الرومانية حتى وصل نارنى ، مما أثار مخاوف البابا (٣) ، وجعل موقفه محفوفا بالأخطار . وقد حدث ذلك عندما كان البابا جريجورى الثانى منهمكا في اعداد رسائل عيفة اللهجة الى الامبراطور ليو الثالث ، قال في احداها : « ليس بوسعى الا أن استخدم معك أسلوبا خشنا يليق بعقلك اللفظ ، إذ لو حدث أن توجهت الى مدرسة

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ص ١١٨ .

(2) Oman, op. cit., pp. 281-282.

(3) Barry, The Papal Monarchy, p. 71.

لتعليم الصبية ، وظهرت أمامهم كمحطم للصور والأيقونات ، فان الصغار منهم سيقذفون بألواحهم فوق رأسك ، لأنه حتى الأطفال يمكنهم أن يلقيوا درسا قاسيا ، ما دمت ترفض الإصغاء صوت الحكمة » . ولم يكتف البابا بذلك ، بل هدده بالاعتزال والاستعانة باللومبارديين إذا أرسل جيشا ضده (٧٢٩) . والحق أن هذا التهديد كان أبعد ما يكون عن تفكير البابا وقتذاك ، إذ لم يكن ثمة ما يخشاه أكثر من وقوعه هو ومدينته روما تحت سيطرة اللومبارديين . وبعبارة أخرى من الأفضل أن يتعامل مع اكسارخ ضعيف في رافنا وامبراطور بعيد عنه في القسطنطينية ، بدلا من الانحدار الى منزلة أحد رعايا الملك اللومباردي (١) .

وعلى أية حال : استطاع جريجورى الثانى بدهائه ودبلوماسيته البارة أن يقنع ليوتبراند بالانسحاب من أمام أسوار روما ، في وقت كانت الظروف فيه مهيأة تماما لسقوطها . والواقع أنه كان سهلا على البابا أن يثنى ليوتبراند عن عزمه ، لما يعرفه عنه من تقوى وتدين . وشدة حماس للكاثوليكية ، بدليل أنه سلم مدينة سوترى التى استولى عليها من قبل البابا ، وهى أصلا تابعة للامبراطورية البيزنطية (٢) .

وعلى الرغم من أن ليوتبراند أظهر احترامه للبابوية وغمرها بكرمه ، فان جريجورى الثانى لم يقدر له هذا الصنيع ، إذ راح يخطط بذكاء لاحتباط مشاريع ليوتبراند التوسعية . ومن ذلك أنه انتهر فرصة خروج ليوتبراند من رافنا عائدا الى عاصمته ، وبعث الى البنادقة يطلب تخليص رافنا من اللومبارديين ، وما لبث أن ظهر أسطول بندقى ضخم أمام رافنا ، وجهت قواته هجوما خاطفا على المدينة ، وبمساعدة أنصار الامبراطورية داخل أسوارها ، انتهى الأمر باستردادها وعودة الاكسارخ

(1) Oman, pp. 282-283.

(2) Gregorovius, Hist. of the City of Rome in the Middle Ages, II, pp. 237-239.

أوتخيوس (١) . وفي تلك الأثناء ثار دوقا سيبوليتو وبنفنتوم على مليكهما ليوتبراند ، عقدا تحالفا ضده مع البابا في سنة ٧٢٩ (٢) .

وعندما علم ليوتبراند بمساح دث من الدوقين ثارت ثائرتة ، وصمم على إخضاعهما . ومن أجل ذلك عقد تحالفا « غير عادي » مع الاكسارخ أوتخيوس (٣) ، اتفقا بموجبه على التنسيق فيما بينهما ، بحيث لا يعرقل أحدهما خطط الآخر . وتبعاً لذلك سار أوتخيوس بجيوشه صوب روما لفرض طاعته على البابوية ، في حين زحف ليوتبراند بجيوشه ضد الدوقين الخارجين عليه ، ولم يكد يقترب من أراضيها حتى أعلن طاعتها وولاءها . ولما كان ليوتبراند في قرارة نفسه لا يرغب في تعزيز قوة الاكسارخ على حساب البابوية ، فقد تحرك بجيوشه تجاه روما حيث كان الاكسارخ يحاصرها حينئذ ، وعسكر بجيوشه في ساحة نيرون خارج المدينة (٤) . ولا جدال في أن الفرصة كانت متاحة في يد ليوتبراند للاستيلاء على روما هذا العام (٧٢٩) ، خاصة أن العلاقات بين بيزنطة والبابوية قد ساءت الى أبعد حد ، موقف الأخيرة من الحركة اللايقينية ، في الوقت الذي عدت فيه أنصارا أو حلفاء آخرين . وإزاء الخطر الحقيقي الذي هدد البابوية حينئذ ، اتخذ جريجوري الثاني خطوة جريئة ، إذ لم يتردد في دخول معسكر ليوتبراند ، مكررا الدور نفسه الذي قام به ليو العظيم عندما قابل أتيلا زعيم الهون بجحافلهم أمام أسوار روما ، فألقى خطبة رائعة جعلت ليوتبراند يركع جاثيا أمامه ، وما لبث البابا أن أخذه مجردا من ساحته الى قبر القديس بطرس ، حيث ألقى الملك النقي عباءته الملكية وسيفه وتاجه بعيدا ، وانتهى الأمر

(1) Gregorovius, II, p. 239; Lot, Pfister & Ganshof, p. 225; Lot, The End., p. 300; Universal Hist. of the World, Vol. 4, p. 2359.

(2) Oman, p. 283.

(3) Mann, The Lives of the Popes, I, p. 169.

(4) Oman, pp. 283-284.

باعتقد الصلح مع البابوية • ونتيجة لذلك انسحب ليوتبراند عائدا الى بافيا خلال الطريق الفلاميني الشهير ، تاركا وراءه الى الأبد تاج ايطاليا الموحدة (١) • وفي هذه الأثناء انتهز جريجورى الثانى فرصة السلام القائم بينه وبين ليوتبراند ، فدعا أساقفة ايطاليا الى حضور مجمع دينى فى روما فى سنة ٧٣٠ — أنزل فيه اللعنة على كل من حارب عبادة الصور والأيقونات (٢) •

وقد رد الامبراطور ليو الثالث على قرار اللعنة الذى أنزله البابا بالأيقونيين بمرسوم أصدره فى سنة ٧٣١ ، حرم البابوية بموجبه من أملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا ، كما سلخ الكراسى الأسقفية فى هذه المناطق عن نفوذ البابا الدينى والقضائى : وضمها الى بطريك القسطنطينية (٣) • وفى العام التالى (٧٣٢) أرسل ليو أسطولا ضخما لاحياء النفوذ البيزنطى فى ايطاليا ، فضلا عن القضاء القبض على البابا جريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) ، الذى خلف جريجورى الثانى ، وعرف أيضا بعداوته الشديدة للأيقونية ، ولكن كان من سوء طالع الامبراطور أن هبت عاصفة هوجاء فى البحر الأدرياتي حطمت أسطوله ، بحيث أن بقاياها التى وصلت رافنا كانت عديمة التأثير (٤) • وتعد هذه المحاولة آخر محاولة جادة قام بها الأباطرة البيزنطيين لاستعادة نفوذهم السليب فى ايطاليا الوسطى ، واضطروا بعدها الى ترك البابوات وشأنهم ، فى حين

(1) Gregorovius, II, pp. 240-242; Barry, The Papal Monarchy, p. 72; Workman, The Papacy and Temporal Power, p. 86.

(2) Oman, p. 284.

(3) Diehl, p. 59; Diehl & Marçais, III, pp. 266-267;

— سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .

— موسى : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(4) Oman, op. cit., pp. 284-285; Diehl & Marçais, op. cit., III, p. 267.

انزوى الاكسارخ في قلعته برافنا ، ولم يعد له شأن يذكر (١) .

وفي تلك الأثناء ارتبط ليوتبراند بصلات المودة والصداقة مع شارل مارتل رئيس البلاط والحاكم الفعلى في مملكة الفرنجة . ومما يؤكد متانة هذه الصلات أن شارل مارتل بعث بابنه بيبين عند بلوغه مرحلة الرجولة الى ليوتبراند ، ليقلده سيف الفروسية ويقص شعره طبقا لعادة جرمانية ، فشمطه برعايته ، وأعادته الى وطنه محملا بالهدايا . أضف الى هذا أنه عندما غزا المسلمون في الأندلس اقليم بروفانس في سنة ٧٣٧ ، وأغاروا على أكس Aix وآرل ، طلب شارل مارتل مساعدة اللومبارديين ، فاستجاب ليوتبراند على الفور ، وعبر بجيوشه جبال الألب ، حيث شارك في إبعاد المسلمين عن تلك الأماكن (٢) .

على أن السلام الذى عم ايطاليا بفضل اتفاقية الصلح التى عقدها ليوتبراند مع البابوية ، لم يقدر له البقاء طويلا . ذلك أنه في سنته ٧٣٨ ثار ترانسموند دوق سبوليتو على ملكه ليوتبراند مرة أخرى . وعلى الرغم من أن ليوتبراند لم يتعب كثيرا في اخماد هذه الثورة ، فقد استطاع الدوق أن يفر الى روما للاحتماء بالببا جريجورى الثالث (٣) . وعندئذ طالب ليوتبراند الببا بتسليمه تابعه الدوق ، بيد أنه رفض ، مما جعل ليوتبراند يغير سياسته الودية تجاه البابوية ، ويقف منها موقفا حازما ، ومن ثم زحف بجيوشه صوب روما ، وفي طريقه اليها استولى على أورتى ، وبومازو ، ومدينيتين في جنوب توسكانيا ، وأخيرا وصل روما وفرض عليها الحصار (٤) . ومن المؤكد أن جريجورى الثالث

(1) Oman, p. 285.

— سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(2) Paul the Deacon, pp. 296-297.

(3) Ibid, p. 299.

(4) Oman, op. cit., p. 285.

في هذا الموقف العصيب طرح بعيدا فكرة الاستتجاد بالامبراطور ليو الثالث بسبب النزاع الدائر بينهما حول عبادة الأيقونات • ولهذا قرر قراره على أن يستصرخ شارل مارتل رئيس البلاط وصاحب النفوذ الفعلي في مملكة الفرنجة في سنة ٧٣٩ ، كما أرسل اليه مفاتيح قبر القديس بطرس ، وخلع عليه لقب بطريق الرومان (حامى الرومان) Patricius (١) ، Romanorum وهو من الألقاب التي كان منحها من حق الامبراطور البيزنطى وحده ، وليس من حق البابا أن يخضعه على آخرين (٢) •

والواقع أن ما فعله جريجورى الثالث يعد أول سابقة من نوعها في تاريخ البابوية خلال العصور الوسطى ، إذ لم يحدث من قبل أن استعان أحد البابوات بقوة من خارج ايطاليا عدا الامبراطورية البيزنطية وريثة الامبراطورية الرومانية القديمة • وقد استاء ليوتبراند من هذا المسلك ، ولا سيما أن البابا وقف الى جانب دوق سبوليتو في ثورته ، وآواه عندما فر اليه • كما اتهم ليوتبراند بأنه زحف على روما لتدنيس مقدساتها

(١) في عهد الامبراطور قنسطنطين العظيم (٣٣٦ — ٣٣٧) كان لقب حامى الرومان أعلى رتبة بعد الامبراطور والقفصل • وقد منحه البلاط الامبراطورى احكام ولايات الامبراطورية من الدرجة الاولى ، في حين منح لبرابرة بهدف اشباع غرورهم واسترضائهم ، ومن بين أولئك الذين خلع عليهم هذا اللقب أودواكر ، وثيودوريك ، وسيجسموند البرجندى ، وكلفويس • وفي أوقات لاحقة منح لأمرأ مسامين وبلغاريين • وقد جرى العرف في القرنين السادس والسابع على ربط هذا اللقب بنواب الامبراطور (الكسارخات) • ولاشك أن قيام البابوية بخلع هذا اللقب على احدى الشخصيات أمر لا يستند الى حق شرعى ، إذ هو من حق الامبراطور البيزنطى وحده ، بيد أن البابوية استهدفت من وراء ذلك تأييدها وطاعتها والدفاع عنها ضد أعدائها اللومبارديين • انظر :

Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 40-41.

(2) Oman, pp. 285-286; Barry, p. 72.

وانتزع حقوق الكنيسة ، وهي مزاعم كاذبة يفندها أن ليوتبراند كان السند والمعين للبابوية ، إذ أنقذها من دمار محقق كاد اكسارخ رافنسا يلحقه بها قبل ذلك بثمانى سنوات . والحق أن البابا كان يكره الجنس اللومباردى كراهة مقيتة ، لا تنقل عن كراهته لمناهى عبادة الأيقونات فى القسطنطينية ، حتى أنه سماهم هراطقة . ومن الواضح أن شخصية ليوتبراند التقية المحبة للسلام إذا قورنت بمعاصريه ملوك الفرنجة لا تعدم أى وجه للمقارنة أو الموازنة ، ولهذا يدهش المرء عندما يقف على النعوت الظالمة التى أطلقها جريجورى وخلفاؤه على اللومبارديين ، من أنهم « جنس نتن ، كذابون ، فسقه غير أتقياء ، نهايون ، سفاكون للدماء » (١) . ومن العجيب أن كل هذا السخط والسباب يرجع الى أن ليوتبراند أراد معاقبة البابا لايوائه أحد الخارجين عليه !

ومما يجدر ذكره أن شارل مارتل رفض التدخل فى ايطاليا من أجل دوافع لا تتفق فى حقيقتها مع مزاعم البابا . إذ لم يشأ أن يدخل فى نزاع مع حليفه القديم ليوتبراند الذى قدم له العون فى حروبه ضد مسلمى الأندلس ، فى حين لازال منشغلا بغاراتهم المستمرة على الأقاليم الجنوبية من مملكته (٢) . بالإضافة الى أنه كان يعمل على حماية حدوده الشمالية من الفريزيين والسكسون والباڤريين والأليمانى وغيرهم (٣) . وأخيرا كان شارل مارتل على علاقة سيئة بكنيسة الفرنجة بسبب استيلائه على أراضيها (٤) . ولهذا كله لم يستجب لنداء البابا ، وإن كان قد استقبل سفارته بحفاوة وقبل لقب البطريق ، ثم أعادها محملة بهدايا قيمة ، وبرفقتها

(1) Oman, pp. 286-287.

(2) Oman, p. 287.

(٣) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ٤٧ — ٤٨ .

— موسى : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣١٨ .

(4) Lot, Pfister & Ganshof, p. 226.

سفارة من قبله كلفها بمهمة التوفيق بين البابا والملك اللومباردى ، دون أن تتدخل لصالح أحدهما على حساب الآخر (١) .

وعلى أية حال ، توفي شارل مارنل عاهل الفرنجة ، والامبراطور ليو الثالث الأيسورى ، والبابا جريجورى الثالث فى عام واحد هو ٧٤١ ، وقد خلف الأخير البابا زكريا (٧٤١ - ٧٥٢) . وهنا نلاحظ أن البابا الجديد ، بعد أن أوصدت مملكة الفرنجة أبوابها دون مساعدته ، وحرصا على مصالحه ، اضطر الى أن يسلك مسلكا طيبا تجاه ليوتبراند على النقيض من سلفه . وتبعاً لذلك دخل الاثنان فى مفاوضات ، وعد ليوتبراند البابا بموجبها بتسليمه المدن الأربعة التى استولى عليها ، مقابل أن يتخلى البابا عن الوقوف الى جانب ترانسموند دوق سبوليتو مستقبلا (٢) . ومع ذلك فإنه كان من الصعب التكهّن بما يجول فى خاطر البابا ، ومن المحتمل أنه جنح الى الهدوء وقتئذ ، ترقباً لفرصة أخرى تتيح له التآمر ضد اللومباردين .

وكان أن رجع ليوتبراند عن روما الى توسكانى ، ولكنه تأخر فى تسليم المدن الأربعة . وعندئذ لم يجد البابا زكريا مفراً من مغادرة روما فى ربيع سنة ٧٤٢ للاجتماع بليوتبراند وحثه على الوفاء بما تعهد به . ولما وصلت الأنباء الى ليوتبراند بذلك ، استقبله بنفسه فى ترنى Terni باقليم سبوليتو . وهنا استطاع البابا ببراغته وفصاحته البلاغية أن يستحوذ على عقل ليوتبراند ، فسلم المدن الأربعة ليس لصاحبها الشرعى الامبراطور البيزنطى ، بل للبابوية ، كما تنازل له عن مدن أخرى وهى نارنى ولوزيهو وأنكونا ونوماننا وفال ماجنا Valle Magna (٣) . وأخيراً ختم الملك اللومباردى أريحتيه مع البابا بالتصديق على معاهدة

(1) Oman, p. 287.

(2) Gregorovius, op. cit., II, p. 258.

(3) Ibid, II, pp. 259-261.

سلام بينهما مدتها عشرون سنة ، كما أطلق سراح الأسرى الرومان .
ولا حاجة بنا الى القول ان البابا حقق مكاسب فاقت توقعاته ، وجعلته
يدخل روما مزموها . حيث حيته الجماهير برنط صيحات الفرح (١) .

هذا وقد دفعت الظروف الملحة في الاكسارخية البابا زكريا للقيام
برحلة ثانية الى بافيا في يونيو من نفس العام (٧٤٢) . وذلك أن اتفاقية
الصلح التي عقدها مع ليوتبراند لم تشمل الاكسارخية ، ولذا أخذ
ليوتبراند يوجه أعماله الحربية نحو رافنا ، فأغار عليها ، كما استولى
على ايميليا والبنتابوليس . والمواقع أن الاكسارخ لم يجد أفضل
من زكريا ليقوم بدور الوساطة بينه وبين ليوتبراند ، وفي الوقت
نفسه طلب يوحنا رئيس أساقفة رافنا الى البابا أن يتدخل بنفوذه
لإنقاذ بقية المدن الأخرى من التهديد اللومباردي . ومن أجل هذا
الغرض اجتمع البابا بالملك اللومباردي ، وقد حالفه التوفيق حتى أن
ليوتبراند وافق على إعادة المدن التي استولى عليها للاكسارخية (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقد توفي ليوتبراند في سنة ٧٤٤ بعد حكم
طويل دام حوالي اثنتين وثلاثين سنة ، كان خلاله صاحب الفضل في
توحيد مملكة اللومبارديين ، وثبتت دعائمها . فقد استطاع أن ينتزع
الجزء الأكبر من ممتلكات الاكسارخية ويضمها الى مملكته ، ونجح في
تأمين حدوده ودفع خطر جيرانها البافاريين والسلاف ، كما أنزل
دوقيتي بنفنتوم وسبوليتو الى مرتبة من التبعية لم تعهدهما من قبل .
والحق أن جميع المعاصرين شهدوا له بالمقدرة وأثنوا على سلوكه الطيب ،
باستثناء البابوية التي دمنته بتهم هو برىء منها في الواقع . كذلك
أجمعت المصادر على أنه كان أعظم ملوك عصره ، إذ جعل إيطاليا في مأمن
من أية أخطار خارجية ، بدليل أنها بعد وفاته أضحت هدفا لأطماع جارتها

(1) Ibid, II, p. 261.

(2) Ibid.

مملكة الفرنجة (١) • ولكن . على الرغم من كونه اداريا قديرا ، ومشرعاً عظيماً . ومحارباً شجاعاً ، على حد سواء . فالأمر الذى يدعو الى الدهشة أن هذه الشخصية العظيمة ، كانت على غرار شخصية ثيودريك ملك القوط الشرقيين لا تقرأ ولا تكتب •

التحالف بين البابوية والفرنجة :

ثم خلف ليوتبراند ابن أخيه هلدبراند ، الذى لم يحتفظ بالعرش إلا ثمانية شهور ، إذ خلعه اللومبارديون لضعفه ، واختاروا محله راتشيس Ratchis دوق فريولى (٧٤٤ — ٧٤٩) أقوى شخصية فى شمال المملكة (٢) • والجدير بالذكر أنه حافظ على معاهدة السلام المبرمة بين سلفه ليوتبراند والبابوية حتى سنة ٧٤٩، حيث تعرض — لأسباب لا نعلمها — لمقاعب فى هذه السنة ، جعلته يهاجم الينتابوليس ويفرض الجصار على بيروجيا التابعة للبيزنطيين • وعندئذ خرج البابا زكرا من روما ومعه أتباعه لزيارة راتشيس فى معسكره لمحاولة اقناعه بالكف عن أعماله الحربية ، والحفاظ على السلام فى ايطاليا • وقد حالف البابا توفيق كبير . اذا انصاع راتشيس لمطالبه ، وأوقف هجومه على المدن البيزنطية • غير أن نبلاءه وأعوانه عدوا ما حدث منه بمثابة خضوع للبابوية لا يمكن السكوت عليه ، وبادروا بعقد اجتماع فى ميلان فى يونيو سنة ٧٤٩ ، اتفقوا بموجبه على خلع راتشيس ، واختاروا بدلا منه أخاه الأصغر أستولف Aistulf وهو شخصية تميزت بعنادها وصلابتها ، أما الملك المخلوع فقد اختار أن يرتدى مسوح الرهبان فى دير مونت كاسينو (٣) •

(1) Oman, op. cit., p. 287.

(2) Gregorovius, op. cit., II, p. 262.

(3) Lot. Pfister & Ganshof. Les Destinées., p. 226.

والجدير بالذكر أن أستولف على النقيض تماما من سلفيه هلدبراند الضعيف ورائثييسى المورع . أظهر تمسكا شديدا بسياسة ليوتبراند الرامية الى وقوع ايطاليا كلها في حوزة اللومبارديين ، ووفقا لهذه السياسة أضحي أستولف يشكل خطرا على الممتلكات البيزنطية والبابوية جميعا (١) . والحق أن تطور الأوضاع في ايطاليا آنذا كان ينبىء بتوحيدها تحت راية مملكة ترجع في أصولها الى أولئك الجرمان الذين « ترومنوا » Romanized في عاداتهم وتقاليدهم على غرار مملكة القوط الشرقيين التي أزالتها الامبراطور جستنيان من الوجود ، وكان أستولف بسبيل تحقيق هذه المملكة ، لولا أن البابوية لم تقف حجر عثرة في طريقه فحسب ، بل قلبت سياسته رأسا على عقب (٢) .

ولا شك أن البابوية منذ أوائل القرن الثامن لو اختارت أن تقيم سياستها على مبدأ التحالف مع اللومبارديين لتغير مجرى تاريخ ايطاليا ، وقد كان لديها ما يسوغ ذلك لو شأته . ذلك لأن اللومبارديين أظهروا قابلية واضحة للحضارة والاستقرار ، بعد أن نبذوا الآيوسية ، ودونوا قوانينهم . ومضوا قدما في فنون الحياة خاصة على عهد ملكهم القدير ليوتبراند . كما أنهم دلوا على أنهم السند والمعين دائما في صد أية أخطار تأتي من ناحية الدولة البيزنطية ، ولكن البابوية بذكاها ومهارتها في معالجة الشئون السياسية ، رأت أنهم ليسوا أهلا للاعتماد عليهم ، ولا سيما أن عاصمتهم بافيا على مقربة من روما ، وأنه اذا قدر للملوك اللومبارديين أن ينفردوا بالنفوذ المطلق في ايطاليا ، فسوف تصبح البابوية مجرد أسقفية لومباردية (٣) .

(1) Ibid., Lot, The End of the Ancient World, p. 290.

موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣١٨ .

(2) Lot, pp. 290-291: 306-308.

(٣) غشر : أوروبا العصور الوسطى ، ص ٨٢ — ٨٣ ،

— ابراهيم العدوى : المجتمع الأوربي في العصور الوسطى ، ص ٩٥ .

وعلى أية حال ، لم يكد أستولف يتقبوا عرش المملكة اللومباردية ، حتى بدأ ينفذ مشاريعه التوسعية بغرض السيطرة على إيطاليا كلها كما أسلفنا ، فاستولى على كوماكيو Comaceno وفيرارا . وفي يوليو سنة ٧٥١ سقطت رافنا أمام هجماته . وبذلك فقدت الدولة البيزنطية نهائيا أزملاكها في شمال إيطاليا (١) . وضاع على البابوية كل أمل في الاعتماد على قوات تلك الدولة في إيطاليا . وفي العام التالي (٧٥٢) حشد أستولف كل طاقته وموارده ، واندفع إلى روما بغية إخضاعها ، ولكن الأمر لم يكن كما تصور أستولف ، ذلك أن البابوية ليست صيدا سهلا يأمل أن يقع في شباكه بسهولة كما سنرى بعد قليل .

وفي تلك الأثناء مات البابا زكريا ، وخلفه البابا ستيفن الثاني (٧٥٢ — ٧٥٧) . وقد حاول البابا أن يخيف أستولف ، فهدده بانزال قرار اللعنة عليه والاستتجاد بامبراطور الدولة البيزنطية ، ولكن هذا التهديد لم يفلح في تحويل أستولف العنيد عن قصده (٢) . وينبغي الإشارة هنا إلى أن البابا رغم أنه لم يقطع صلته تماما بالدولة البيزنطية ، فإنه في الوقت ذاته كان يدرك أنه ليس بوسعه الاعتماد عليها ، بغض النظر عن رأيه في أباطرتها بوصفهم لا أيقونيين هراطقة . ويرى بعض الباحثين أن البابوية في معالجة أمورها السياسية كانت تتجاهل الاختلافات الدينية بينها وبين الدولة البيزنطية وتحافظ على الارتباط بها ، مادامت لا تجد قوة أخرى تعتمد عليها في مقاومة الضغط اللومباردي (٣) . وعلى أية حال ، اندفع البابا يائسا إلى طلب العون من قنسطنين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥)

(1) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 170; Lot, The End., p. 290; Orton, Outlines of Med. Europe, p. 132.

(٢) اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص

٢٠١ — ٢٠٢ .

(3) Ostrogorsky, p. 170; Hollister, Medieval Europe, p. 71; Diehl, Hist. of the Byzantine Empire, p. 61.

امبراطور الدولة البيزنطية . ولكن بسبب انشغاله بالنضال اللائيقونى من جهة وبمحاربة البلغار والمسلمين من جهة أخرى (١) ، اكتفى الامبراطور بايفاد بعثة دبلوماسية من قبله الى أستولف وصلت روما أولا ، تم غادرتها فى ١٤ أكتوبر سنة ٧٥٣ بمرافقة البابا الى بافيا ، لاجراء مفاوضات مع أستولف حول اعادة الادمسارخية ، بيد أن الأخير تجاهل مطالب البابا . وعامل السفارة البيزنطية معاملة غير كريمة (٢) .

وبعد أن أخفق البابا ستيفن الثانى « الثالث » فى مفاوضاته مع أستولف . غادر بافيا فى ١٥ نوفمبر من العام نفسه ، وفى هذه المرة لم يعد الى مقر كرسيه فى روما ، بل اتجه شمالا ، وعبر جبال الألب الى مملكة الفرنجة حاملا معه مصير ايطاليا التى قدر لها منذئذ ألا تدور فى فلك الدولة البيزنطية ، ولا تتوحد تحت سيطرة اللومبارديين ، لتخضع بعد ذلك وللقرون عديدة لسادة جدد أتوا من وراء الألب (٣) .

ومما يستحق الذكر أن الظروف التى كانت تمر بها مملكة الفرنجة آنذاك قد أثرت تأثيرا عميقا فى مستقبل البابوية واللومبارديين جميعا . وفى القرن الثامن صار رؤساء البلاط فى مملكة الفرنجة الميروفنجيين أصحاب السلطة الواقعية *de facto* ، فى حين أضحي ملوكها المتأخرون ظلالة باهتة ، بعد أن خرجت السلطة من أيديهم وتقلصت أملاكهم ، ومع ذلك يحملون اللقب الملكى ، ووفقا لثقراث الفرنجى لم يكن هناك من سبيل يمكن رئيس البلاط ببيان القصير - ثانى أبناء شارل مارتل - من انتزاع اللقب لنفسه (٤) . وصحيح أن الوقت قد حان للاطاحة بالملكية

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(2) Lot, The End., p. 40; Lot, Les Invasions Germaniques, p. 288; Diehl & Marçais, III, p. 276; Mann, The Lives of Popes, I, Part II, pp. 293-294.

(3) Lot, The End., p. 309.

(٤) كانتور : تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٧٤ .

الفرنجية الميروفنجية ، غير أن قطع الصلة بأمجاد هذه الملكية وتراثها القديم ، ربما صدم شعور سكان المملكة (١) . وفي هذا الصدد نلاحظ أن الغالبية العظمى من المعاصرين كانت لا تزال مشبعة بالأفكار الوثنية حول شخصية الملوك الدينية ، حتى بالنسبة الى أولئك الذين تحولوا الى المسيحية ، فضلا عن أنهم أضفوا على الدولة الميروفنجية . حتى في أحلك أيامها سحر الشرعية الغامضة (٢) ولهذا كان بين القصير بحاجة أكيدة الى تأييد الكنيسة والسلطة البابوية على وجه الخصوص ، كي ينتزع العرش الفرنجي لنفسه . وكان أن اتضح أمامه الطريق الى يجب أن يتبعه بفضل أعمال صديقه البشر الانجليزى بونيفاس (ت ٧٥٤) . وازدياد نفوذ الكنيسة الغربية في المجتمع الفرنجي ، والنظرة الجديدة المفعمة بالاحترام التي نظر بها رجال الكنيسة الفرنجية الى البابوية (٣) . وفي هذه الأثناء كان هدف بين القصير وبونيفاس إعلاء شأن البابوية في غرب أوروبا ، وتقوية البعثات التبشيرية المسيحية الى ألمانيا . وإصلاح الكنيسة في مملكة الفرنجة اصلاحا شاملا (٤) . وهنا كافأت البابوية بين القصير على موقفه منها ، وذلك عندما سأل بين البابا ستيفن اذا كان يصح له شرعيا أن يقوم بخلع الملك الميروفنجي ويتخذ القاج لنفسه أولا ، فأفاته بأن له الحق في خلع الملك الميروفنجي الضعيف من سلالته كلوفيس ، ولم يلبث أن استغل بين هذه الفتوى ، فبادر بعقد مجمع في سواسون سنة ٧٥٢ ، توجه فيه بونيفاس ملكا بحضور ممثلين عن البابا ، أما آخر ملوك البيت الميروفنجي ، فقد حلق شعره ، وأودع أحد

(1) Bryce, The Holy Roman Empire. p. 39.

(2) Hulme The Midd'e Ages, p. 255.

(٣) كانتور : المرجع السابق . د ١ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(4) Bark, Origins of the Med. World, p. 79;

مشر : المرجع السابق ، ص ٨٣ — ٨٤ .

الأديرة (١) وهكذا حارت البابوية صاحبة الفضل في تثبيت بيبين في الملكية ، وخلق صفة الشرعية على حكم البيت الكارولنجي - الذي صار منذئذ البطل الحامي للكرسي البابوي . وبعبارة أخرى ، يعد هذا الحادث التاريخي بمثابة دعوة مفتوحة أمام دولد الفرنجة الكارولنجيين ، للتدخل في شئون إيطاليا ، وقد حدث ذلك فعلا ، بعد ستين فصص (٢) .

ونخرج من هذا الاستطراد الى أن البابا ستيفن الثاني إزاء الخطر اللومباردي ، وقد أغلقت جميع المنافذ في وجهه ، وجد نفسه مضطرا لطلب العون من مملكة الفرنجة الكارولنجية . ولهذا الغرض عبر جبال الألب للاجتماع بملك الفرنجة كما أسلفنا القول . وفي خارج بونتيون استقبلته بعثة شرف برئاسة شارلمان - ابن بيبين القصير - لتصحبه الى القصر الملكي في هذه المدينة . أما بيبين القصير وابنه الثاني كارلومان والملكة ورجال البلاط الملكي ، فقد انتظروا البابا على بعد ثلاثة أميال من المدينة . وفي اللقاء التاريخي الذي تم بين البابا وبيبين في ٦ يناير سنة ٧٥٤ ، رأى شارلمان والده وقد ترجل من على صهوة فرسه ، وانحنى أمام البابا ، ثم سار خلف مركبته كأحد الفرسان التابعين له ، حتى دخل مدينة بونتيون . وفي ١٤ أبريل من العام نفسه ، وهو اليوم الموافق لعيد الفصح ، عقد اجتماع في كيرزي Quierzy ، تنازل فيه بيبين للبابا عن المدن والأقاليم الإيطالية . وأخيرا وفي يوم الأحد ٢٨ يوليو من العام نفسه ، وفي كنيسة القديس دنيس Saint - Denis قام البابا بنتويج بيبين ملكا على الفرنجة بيديه ، وبارك ولديه شارلمان وكارولومان ، وتلى ذلك أن خلق عليهم جميعا لقب بطريق الرومان ، وهدد

(1) Scott, Med. Europe, p. 79; Hulme, p. 255; Hollister, Med. Europe, p. 72; Stephenson, Med. Hist., p. 146.

دوسن : تكوين أوروبا ، ص ٢٦٤ .

(2) Scott, op. cit., pp. 24-25.

بانزال لعنته على كل من تسول له نفسه الوقوف في وجه مملكة الفرنجة (١) .

ولا شك أن الفارق يبدو واضحا بين الموقف الذي اتخذته بين القصير تجاه البابوية ، وموقف والده شارل مارتل منها . فكما رأينا ، رفض الأخير تقديم العون للبابوية حينما استجذبت به لدفع خطر اللومباردين في سنة ٧٣٩ ، لعلاقته الطبية بملكهم ليوتبرمند آنذاك من جهة ، ولانشغاله في إبعاد مسلمي الأندلس عن إقليم سبتمانيا من جهة أخرى . ولكن ببين على الرغم من أنه كان منشغلا أيضا بمحاربة المسلمين في بلاده ، لم ينس الجميل الذي طوقت به البابوية عنقه بنتويجه ملكا على الفرنجة ، في الوقت الذي يراها خير سند لملكته الوليدة التي لم تقف على قدميها بعد . ومما يذكر أن كثرة من نبلاء الفرنجة رأيت في اقحام مملكتهم في الشئون الإيطالية أمرا سوف يعرقل الى حد بعيد جهودها الرامية الى صد مسلمي الأندلس عن أقاليمها الجنوبية ، والحق أن رأى هؤلاء النبلاء كان جديرا بالاعتبار ، وينطوي على جانب عظيم من الأهمية (٢) .

ومن المسلم به أن التحالف البابوي الفرنجي كان بداية النهاية لمملكة اللومباردين ، بدليل أن أستولف قد أصابه الفزع ، وحاول أن يسترضى البابوية بتغيير سياسته معها ، ولكن الوقت كان قد فات . إذ لم يلبث أن أعلن ببين الحرب على اللومباردين ، واقتاد حملة ضخمة زحف بها على شمال إيطاليا في ربيع سنة ٧٥٢ ، وفي المعركة التي دارت بين الطرفين في وادي سوسا ، استطاع ببين أن يلحق هزيمة ساحقة بأستولف ، فر على أثرها مدحورا الى عاصمته بافيا ، ولكن ببين لاحقه في معقله ، وتحت ضغط الحصار الذي فرضه على تلك المدينة ، اضطر

(1) Gerard & Mowat, Einhard's Life of Charlemagne, p. XLV; Kleinclausz, Charlemagne, p. 2; Hollister, p. 72; Deanesly, 'A Hist. of Early Med. Europe, pp. 252-253.

(2) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages, p. 151.

أستولف الى طلب الصلح (١) . وانتهى الأمر بعقد اتفاقية صلح بين الجانبين في سنة ٧٥٦ ، وافق أستولف بمقتضاها على رد رافنا والأملاك البابوية . فضلا عن اعترافه بالتبعية للملك الفرنجة . وتلا ذلك أن دخل البابا ستيفن مدينته مزهوا بالانتصار الذي أحرزه على غريمه ، في حين عاد الملك الفرنجي الى بلاده . ومع ذلك لم تتحسن الأمور ، إذ استغل أستولف خراج الجيش الفرنجي من ايطاليا ، وتراجع عن الوفاء بما تعهد به ، واستأنف أعماله الحربية بتضييق الخناق على روما ، مما دفع البابا الى أن يستنجد بحليفه ببين مرة أخرى . وكان أن أتى الأخير على عجل الى ايطاليا لانقاذ روما ، وبدأ بحصار بافيا ، وفي هذه المرة كانت الشروط التي فرضها ببين على أستولف أشد قسوة من سابقتها ، فعلاوة على التخلي عن رافنا وأراض أخرى للبابوية ، تعهد أستولف بتقديم جزية سنوية تعادل ثلث دخله الملكي (٢) . ومما يسترعى الانتباه أن الأراضى التي تنازل عنها ببين للبابوية المعروفة في التاريخ بهبة ببين Donation of Pippin ، كانت أصلا تابعة للدولة البيزنطية (٣) . وتتمثل هذه الأراضى بالاضافة الى رافنا وبعض المدن التابعة لها ، في اقليم البنتابوليس : ريميني ، وبيسارو ، ومسينا ، وسنجاغليا ، وجيسى ، وفورليمببولي ، وفورلى ، وسانت مارين ، وكوماكيو الواقعة عند مصب البو ، وكاجلى ، وجوبيو على الطريق البيزنطى الاستراتيجى القديم الذى يربط رافنا بروما ، ونارنى شمال روما (٤) . والواقع أنه لا يستطيع أحد أن يقلل من خطورة هذه الهبة وأثرها فى تاريخ أوروبا العصور الوسطى ،

(1) Orton, Outlines of Med. Europe, pp. 133-134.

(2) Universal Hist. of the World, p. 2416.

موس : المرجع السابق . ص ٣٤ .

(3) Eyre, European Civilization, p. 190.

(4) Halphen, Charlemagne et l'Empire Carolingien, p. 100; Klein-clausz, p. 6.

إذ يكفى أنها أوجدت الحكومة Papal State ، التي امتدت لملأها من البحر الأدرياتي ورافنا شرقا حتى روما غربا ، وصارت عقبة كأداء في سبيل الوحدة الإيطالية حتى سنة ١٨٧٠ (١) . هذا في الوقت الذي تخففت فيه مملكة اللومبارديين في محاولتها توحيد إيطاليا تحت نفوذها ، ورجعت خريطة ممتلكاتها الى ما كانت عليه قبل أن يشرف القرن السابع على نهايته .

وإذا كان بين بتدخله في شئون إيطاليا لم يخرج بأية مكاسب اقليمية كما رأينا ، فالواقع أن ما حققه أعظم من ذلك بكثير . إذ غدت المملكة اللومباردية لا تسبب ازعاجا لجارتها مملكة الفرنجة ، وأهم من ذلك أن البابوية منذئذ قد أشاحت بوجهها بعيدا عن القسطنطينية ، وبمعنى آخر قطعت الخيط الواهي الذي يربطها بالدولة البيزنطية ، واستعاضت عنه بمملكة الفرنجة التي وجدت فيها حليفا قويا يدافع عنها ضد أعدائها ، مما جعل لهذه المملكة وضعاً مميزاً عن بقية الممالك الأوروبية قدر له أن يؤثر في مستقبل أحداث أوروبا العصور الوسطى . ولعل أبلغ تعبير عن ذلك ، ما قاله المؤرخ الأمريكي جورج لنكولن بير George Lincoln Burr في معرض حديثه عن اللقاء التاريخي بين البابا ستيفن الثامن وبين ملك الفرنجة : « ثمة أمور كثيرة نبعت من التحالف البابوي الفرنجي ، تتمثل واضحة في السلطة الزمنية التي اكتسبها بابوات روما ، وفصل المسيحية اللاتينية عن المسيحية الاغريقية ، والغزو الفرنجي لإيطاليا . وقيام الامبراطورية الرومانية المقدسة » (٢) .

ثم كان أن لقي أستولف مصرعه خلال رحلة صيد كان يقوم بها في ديسمبر سنة ٧٥٦ ، وجرى استدعاء أخيه راتشيس من دير مونت كاسينو ليخلفه ، بيد أن ديسيريوس Desiderius الذي كان يريد العرش لنفسه

(1) Hulme, p. 225; Hollister, p. 72.

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ص ١٥٧ .

(2) Hulme, op. cit., p. 255.

عارض بشدة عودة راتشيس الى العرش . وانجدير بالذكر أن دسديريوس لقي تأييدا قويا من البابا وبيين ، ساعده في الوصول الى العرش ، وذلك بعد أن أخذوا منه وعدا بالمحافظة على الاتفاقية التي عقدها سلفه سنة ٧٥٤ ، وجرى تجديدها سنة ٧٥٦ ، يضاف الى ذلك أن دسديريوس أقسم في حضور ممثل بيين في ايطاليا ، أن يعيد الى البابا أن دسديريوس أقسم في حضور ممثل بيين في ايطاليا ، أن يعيد الى البابا مدن فاينزا ، وإيمولا ، وفيرارى ، وبولونيا ، ولانكونا ، وأوزيمو ، وأومانا والمناطق التابعة لها ، أما راتشيس فقد أمر البابا بإعادته الى عزلته الديرية (١) .

سقوط مملكة اللومباردين :

لم يكد دسديريوس يتوج ملكا في مارس سنة ٧٥٧ ، حتى بدأ يكشف عن نواياه الحقيقية تجاه البابوية ومملكة الفرنجة . ويظهر ذلك واضحا في أنه استغل فرصة انشغال بيين بمناعبه في اقليم أكوئين ، في الوقت الذي ارتفع صوت نبلاء الفرنجة احتجاجا على تدخل مليكهم في شئون ايطاليا ، ورفض أن يسلم البابا الأراضي التي وعده بها باستثناء فاينزا ودوقية فيرارى (٢) .

ثم كان أن مات بيين القصير فجأة سنة ٧٦٨ بعد حياة حافلة بالأحداث رغم قصرها . ووفقا لتقاليد الفرنجة التي تقسم الملك كالارث بين الأنباء ، قام بيين وهو على فراش الموت بتقسيم مملكته بين ولديه شارلمان الذي كان آنذاك في حوالى السادسة والعشرين ، وكارلومان الذي كان في العشرين . وبمقتضى هذا التقسيم حصل شارلمان على حزام من

(1) Deanesly, p. 258; Barry, The Papal Monarchy, pp. 83-84; Orton, pp. 134-1135.

(2) Kleinclausz, op. cit., pp. 6-7.

الأرض يمتد من أكويتين حتى الجزء الجنوبي الغربي من أوستراسيا . وهو الذى يمثل حاليا كل فرنسا الحالية والأراضي المنخفضة ، والأراضي المطلة على الحدود الألمانية ، فى حين كان من نصيب كارلومان بقية أوستراسيا والجزء الشرقى من المملكة وهى المنطقة التى تمثل كتلة متماسكة من الأرض تمتد من باريس شمالا الى ساحل البحر المتوسط جنوبا . وإلى الشرق بحيث تغطى سويسرا وجزءا كبيرا من ألمانيا الجنوبية (١) . على أن الأخوين لم تسد بينهما روح الود والوفاق منذ البداية ، ففى خلال السنوات الثلاثة الأولى من حكمهما كانا دوما على حافة نزاع ، ولولا نفوذ أمهما برثا لقامت الحرب بينهما عقب وفاة أبيهما مباشرة ، وقد ازداد النفور بينهما عندما استنجد شارلمان بأخيه إبان الثورة التى اندلعت فى إقليم أكويتين ، فرفض نجدته ، ومع ذلك نجح شارلمان فى اخماد ثورة الأكويتيين ، حيث قسم أراضيهم الى كونتيات حسب النظام الفرنجى المألوف ، وقام بتوزيعها على أتباعه المقربين (٢) .

وفى غضون ذلك ، كانت المتاعب قد أطلت برأسها فى روما بعد وفاة البابا بولس الأول فى ٢٨ يونيو سنة ٧٦٧ ، وذلك أن أحد المغامرين ممن ينتمون الى الأرستقراطية العسكرية الثرية فى روما ويدعى توتو Toto ، قد فرض على الجميع - تحت سلاح القوة والتهديد - انتخاب أخيه قنسطنطين لكرسى البابوية ، ولما كان الأخير علمانيا ، ولا يجوز له أن يرتقى المنصب البابوى ، فقد استطاع فى خلال سبعة أيام أن يحصل على جميع الألقاب الكنسية التى تهيئ لهذا المنصب ، وذلك من خلال سلسلة من أوامر كنسية تم اصدارها على عجل ، وبموجبها توج بابا فى روما فى ٥ يوليو سنة ٧٦٧ (٣) . ومما يسترعى الانتباه فى هذا

(1) Hulme, p. 257; Scott, p. 27; Hoyt & Chodorow, pp. 151-152.

(2) Oman, Dark Ages, pp. 336-337.

(3) Kleinclausz, p. 9; Gregorovius, II, p. 322-325; Mann, The Lives of the Popes, I, Part II, pp. 362-363; Barry, The Papal Monarchy, p. 85.

الصدد ، أنه لم يجرؤ ممثلو مملكة الفرنجة في روما على التدخل لاييقاف ذلك البابا المغتصب عند حده ، مما يدل على أن ملك الفرنجة لم يمارس أى نفوذ فعلى داخل مدينة روما حتى ذلك الوقت • وعلى أية حال ، وجد قنستنتين نفسه مضطرا للحصول على موافقة بيبين ، بوصفه حامى الرومان والمدافع عن البابوية ، فبعث إليه برسالة أوضح فيها أنه وصل الى الكرسي البابوى بطريق الانتخاب مثل سلفه وبموافقة أهالى روما ، وفى نهاية الرسالة أعرب عن اخلاصه وتقديره لمملكة الفرنجة ، ويبدو أن بيبين تجاهل الرد على رسالته ، إذ لم تصلنا أية معلومات حول ذلك (١) •

ولكن الفريق الموالى للبابوية بزعامة كريستوفر وابنه سرجيوس لم يقف مكتوف الأيدى تجاه البابا المغتصب • ومن المعروف أن الأول كان مستشارا لبولس الأول (سكرتير البابا) ويحتل مكانة رفيعة في روما ، أما الآخر فقد كان يشغل منصب أمين غرفة المقدسات في كنيسة القديس بطرس ، وهو من المناصب الهامة في البابوية • وقد تعاهد الاثنان - كريستوفر ابنه - ومعهما آخرون على الاطاحة بالبابا المغتصب ، ولكن محاولتهما باءت بالفشل ووقعا أسيرين في أيدي قنستنتين • وعندئذ عمدا الى حيلة تخلصهما من قيد الأسر ، إذ تظاهرا برغبتهما في الالتحاق بسلك الرهبنة ، ولما كانت الرغبة تحدد قنستنتين في التخلص منهما ، فقد سمح لهما بمغادرة روما ليدخلا أحد الأديرة الواقعة بالقرب من رايتى Rieti ، ولكنهما بدلا من ذلك أسرعا بالتوجه الى دوق سبوليتو ، الذى اصطحبهما الى بافيا للاستتجاد بدسيدرئوس (٢) •

وقد استجاب دسيدرئوس لمساعدة كريستوفر وابنه سرجيوس ، إذ أبدى استعداداه لدهما بجيش لومباردى يمكنهما من دخول روما ، شريطة أن يرافقهما أحد رجال الدين اللومبارديين يدعى والدبرت Waldipert ،

(1) Gregorovius, op. cit., II, pp. 325-326.

(2) Ibid, II, pp. 326-327; Kleinclausz, p. 9; Thompson, The Middle Ages, I, pp. 240-241.

لا لشيء في الحقيقة إلا لتنفيذ مآربه الراهية الى السيطرة على روما والبابوية ، وكان أن تمكن هذا الجيش ، وبفضل أنصار كريستوفر وابنه داخل المدينة ، أن يقتحم أبوابها في ٢٩ يوليو سنة ٧٦٨ (١) . وفي داخل المدينة حدث اشتباك بين الجيش اللومباردى وقوات توتو شقيق البابا المعصب ، لقي فيه توتو حتفه ، وتبع ذلك أن ألقى القبض على قنسطنين وأعوانه ، حيث زج بهم في غياهب السجن . وفي وسط الفوضى التي اجتاحت روما وقتئذاه أخذت الأحداث مجرى آخر ، إذ دون أن يعلم كريستوفر وابنه ، اختار والدبرت أحد رجال الدين المؤيدين لـسيدريوس ويدعى فيليب لمنصب البابوية . ولكن الحزب البابوى بزعامة كريستوفر وابنه رفض اختيار فيليب للبابوية ، وعبر عن سخطه بانتخاب شماس بابا منافسا في أول أغسطس سنة ٧٦٨ (٢) ، والمعروف عن هذا البابا الذى حمل اسم ستيفن الثالث (٧٦٨ — ٧٧٢) أنه صقلى ، وكان مواليا للبابا بولس وملازمه الوحيد وهو على فراش الموت . والواقع أنه لم تستقر الأمور بعد ذلك في روما ، لأن أهاليها صمموا على الانتقام من والدبرت اللومباردى بوصفه مسئولاً عن اختيار فيليب للبابوية ، ولم يشفع له ما قام به من أجلهم من قبل عندما ساعد في الاطاحة بقسطنطين ، فأمسكوا به وألقوه في سجن بشسع ، حيث قضى عليه بالموت (٣) .

ولا شك أن مصرع توتو والاطاحة بالحزب اللومباردى ، وما ترتب على ذلك من اعتلاء ستيفن الثالث كرسى البابوية ، كل ذلك جعل كريستوفر وابنه أهم رجلين في روما وصاحبى الكلمة العليا في البابوية . على أن كريستوفر وابنه ما لبثا أن استغلا ضعف البابا الجديد وطيبته ، فاستبدا

(1) Gregorovius, Hist. of Rome, II, p. 327; Mann, pp. 366-367; Barry, pp. 85-86.

(2) Gregorovius, II, pp. 328-329.

(3) Ibid, II, p. 331.

بالأمر بدوره ، وبعبارة أخرى هيمنا على البابوية ، وتوليا نصريف شئوننا ، حتى لقد اضطر البابا الى التنازل عن كثير من حقوقه وامتيازاته لهما (١) . وهنا نلاحظ أن البابا حاول أن يقلل من نفوذ كريستوفر وابنه ، بطلب المساعدة من مملكة الفرنجة بوصفها حامية البابوية ، بيد أن ظروف هذه المملكة آنذاك بما أصابها من ضعف بعد وفاة بين القصير ونشوب النزاع بين ولديه شارلمان وكارلومان كما أسلفنا ، حالت دون أن يحقق بغيته ، الأمر الذي جعله يشعر بصعوبة موقفه . ولهذا لم يجد البابا وسيلة تخلصه من استبداد كريستوفر وابنه غير التفاهم مع عدوه التقليدي ديسيريوس ملك اللومبارديين . ولامراء أن ديسيريوس ، مدفوعا برغبة عارمة في الانتقام من كريستوفر وابنه ، لم يتردد لحظة في أن يتعاون مع البابا من أجل القضاء على هذين الرجلين اللذين عرقلا أطماعه في روما (٢) .

وكان أن استطاع ديسيريوس والبابا أن يستملا اليهما موظفا بابويا كبيرا يدعى بول أفيارتا Paul Afiarta وآخرين ، بغية القضاء على كريستوفر وابنه . ووفقا للخطة التي دبرها ديسيريوس مع هذا الموظف ، أظهر رغبته - أي ديسيريوس - في تقديم الصلوات للقديس بطرس ، وبناء على ذلك خرج من بافيا على رأس جيش كثيف الى روما (٣) . ولكنه قبل أن يقترب من أسوارها أدرك كريستوفر ما يعتمل في ذهن ديسيريوس ، فاستدعى المليشيات العسكرية المرابطة في توسكاني وكمانيا وبيروجيا الى داخل المدينة ، وأغلق أبوابها انتظارا لهجوم متوقع ، مما يؤكد ما ذكرناه من أن السلطة الفعلية في روما كانت في أيدي كريستوفر وابنه . وبوصول ديسيريوس الى أسوار المدينة في صيف سنة ٧٦٩ ، أرسل الى البابا يطلب الاجتماع به ، فلم يمانع البابا . وقد

(1) Ibid, II, pp. 334-335.

(2) Ibid, II, pp. 335-336.

(3) Ibid, II, p. 336.

اتفق الاثنان على أن يقوم بول أفيارتا حالما يعود البابا الى المدينة ، بدفع الأهالى الى الثورة على كريستوفر وابنه • والواقع أن أفيارتا وأعوانه لم يدخروا جهدا فى حث الأهالى على الثورة ، ولكن محاولتهم باءت بالاخفاق ، مما شجع كريستوفر وابنه وأنصارهما على اقتحام قصر اللاتيران (المقر البابوى) للقبض على بول أفيارتا ، ولكن البابا اعترض سبيلهم ، إذ عنف المهاجمين بشدة ، وأمرهم بالانسحاب ، فامتلأوا لأمره • وفى صبيحة اليوم التالى للهجوم على قصر اللاتيران خرج ستيفن الى قبر القديس بطرس الواقع خارج المدينة آنذاك ، حيث اجتمع مرة أخرى بدسيدرئوس • وفى رأى بعض الباحثين أن خروج البابا من روما كان فى حقيقته هروبا متعمدا ، بدليل أن دسيدرئوس والبابا حاولا بالتهديد تارة ، والأموال تارة أخرى ، أن يؤلبا الأهالى ضد كريستوفر ، ووصل الأمر بهما الى التهديد بتدمير المدينة ، مما لم يسلم كريستوفر نفسه (١) • أما مؤرخ سيرة ستيفن ، فيشير الى أن دسيدرئوس قام باعتقال البابا والحاشية المرافقة له ، وأعلن أنه لن يطلق سراحهم إلا بعد تسليمه خصميه كريستوفر وسرجيوس (٢) • ومهما يكن من أمر ، فسرعان ما تخلى أنصار هذين الرجلين عنهما ، ويبدو أن البابا اطمأن الى أن الموقف أصبح فى صالحه ، إذ رجع فى اليوم التالى الى روما ، تاركا كريستوفر وابنه نهبا لمصيرهما المفجع ، فألقى بول أفياريا القبض عليهما ، وبالتالي قام بسمل أعينهما وقطع لسانيهما • ومما لبث أن مات كريستوفر بعد ثلاثة أيام فى دير سانت أجات ، أما سرجيوس فقد أودع السجن ومعه العديد من أنصاره الرهبان ، وبذلك انتصر الفريق (الحزب) اللومباردى فى روما على خصومه دون منازع (٣) •

(1) Mann, The Lives of the Popes, I, Part II, pp. 383-385.

(2) Ibid, I, Part II, p. 385.

(3) Gregorovius, II, pp. 336-338; Kleinclausz, pp. 9-10; Barry, op. cit., pp. 85-86.

وربما جاز لنا أن نذهب الى أن ستيفن الثالث قد تواطأ مع اللومبارديين ، وضحى باثنين من رجاله من أجل مصالحه الخاصة ، ومما يثير الدهشة أنه حاول أن يخلو مسؤوليته من البصير التعس الذي لقيه كريستوفر وابنه ، إذ كتب رسالة الى شارلمان وأمه برثا ، يبدو أنه سطرها بعد رحيل ديسيريوس عن روما ، جاء فيها أن كريستوفر وابنه الشريرين وأعوانهما تأمروا على قتله ، وأنه يدين بحياته الى « أعظم أبنائه امتيازاً » ديسيريوس ، الذي لم يتوان عن المجيء الى روما للوفاء بالقرامات برد الأملاك البابوية والواقع أن الحقيقة كانت على عكس ما ذكره ستيفن ، وذلك أنه عندما طالب البابا هادريان الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) — فيما بعد — ديسيريوس باستئناف المفاوضات التي بدأها سلفه ستيفن ، حول إعادة الأراضي التي تعهد بتسليمها للبابوية ، رفض ديسيريوس ، ورد عليه قائلاً ان سلفه كان لُحوج ما يكون للتخلص من كريستوفر وابنه ، بعد أن قويت شوكتهما ، وأخذاً منه موقفاً معارضاً^(١) .

وبينما كانت الحوادث تجرى على هذا النحو في روما ، كان ديسيريوس من جهة أخرى يحاول جاهداً تحطيم الروابط المتينة بين البابوية ومملكة الفرنجة . وفي البداية رأى ديسيريوس في موت بيبين القصير فرصة أكيدة تهيئه لنشر نفوذه في جميع أنحاء إيطاليا . وفي سبيل تحقيق هذا الغرض اعتزم الدخول في اتحاد مع جيرانه الفرنجة ، وذلك بتزويجهم من عائلته ، الأمر الذي من شأنه أن يفسد التحالف البابوي الفرنجي من جهة ، ويحرم البابوية من الهبات السخية التي كانت تصلها باستمرار من الفرنجة من جهة أخرى ، وكان ديسيريوس من قبل قد زوج إحدى بناته وهي أدالبرجا Adalberga الى أريكيس

(1) Gregorovius, II, pp. 338-339; Kleinclausz, p. 10; Mann, I, pp. 387-389.

دوق بنفنتوم ، وزوج الأخرى وهى ليوتبرج لتاسيلو دوق بافاريا (١) .
 أما ابنته الثالثة دسديراتا Desiderata ، فقد كان يأمل فى أن يزوجه
 الى أحد ملكى الفرنجة شارلمان أو كارلومان ، على أن يتزوج ابنه أدالجيس
 Adalgise من أختهما جيزيل . ومن البديهي أن دسديريوس قد
 رسم خطوط مشروعه بمهارة وإحكام بالغين . فهو لم يستهدف من
 ورائه دعم موقفه ومكانته لدى الفرنجة فحسب ، بل أراد أيضا أن
 يقلب السياسة التى اتبعها الفرنجة تجاه إيطاليا فى السنوات الأخيرة
 رأسا على عقب ، ولهذا لو كان بين حيا ، لعرف ما يجول بخاطر
 دسديريوس ، وبالتالي أوقف هذا المشروع (٢) .

وعندما علم البابا ستيفن الثالث بمشروع المصاهرة المقترح بين
 مملكتى اللومبارديين والفرنجة أصابه الفزع ، ولا سيما أنه كان يتوقع
 من ولدى بين أن يسيرا على نهج أبيهما ، بالعمل على اجبار دسديريوس
 بالوفاء بعهوده . وفى محاولة منه لافساد هذا المشروع كتب الى الأخوين -
 شارلمان و كارلومان - رسالة عنيفة الملهجة قال فيها : « لقد امتلأ قلبى
 غيظا وفزعا عندما تواترت الأخبار بأن الملك اللومباردى يحاول جاهدا حث
 أحدهما على الزواج من ابنته ، وهو مشروع فى حقيقته من عمل
 الشيطان ، وعمل غير شرعى لا تقره الكنيسة . إنه لجنون صارخ أن يرتبط
 بيتكم الملكى المنحدر من شعب الفرنجة العريق الذى يفوق جميع الشعوب
 قاطبة ، بالزواج من الجنس اللومباردى الحقيق ، وهو عنصر وثنى منتن
 منبوذ لا وزن له بين الشعوب . ان تفكركما فى الزواج من فتيات بعيدات
 عن الأصل الفرنجى يعد خروجا على تقائيد بيتكما ... » (٣) . ولم ينس
 ستيفن أن يذكر الأخوين أنه عندما قام بمسحهما بالزيت المقدس ، تلا

(1) Kleinclausz, p. 6.

(2) Kleinclausz, pp. 6-7; Halphen, op. cit., pp. 101-102.

(3) Gregorovius, II, pp. 340-341; Halphen, p. 102.

ذلك أن صار أصدقائه أعداءهما ، وأعداؤه أعداءهما ، ولهذا وجب عليهما ألا يتحدا مع شعب ناكث للييمين ، دأب على مهاجمة كنيسة الله وغزو روما . ولا شك أن ستيفن عندما كتب رسالته ، كان يعي تماما جسامة الأخطار المحدقة به والمترتبة على إتمام هذا المشروع . على أن ذلك لم يؤثر في عزيمة ديسيريوس ، وسار في الطريق الذي حدده بخطى حثيثة . وقد وجد ضالته المنشودة في الملكة الأم برثا ، التي أخذت تكرس جهودها ليسود التفاهم والمودة بين مملكتي الفرنجة واللومبارديين بعد وفاة زوجها بيبين . وتحقيقا لهذا الغرض قابلت ابنها كارلومان في سيلز ، ثم عادتها الى بافيا ، ومنها الى إيطاليا ، حيث وصلتها في صيف سنة ٧٧٠ ، وبعد أن أجرت مفاوضات مع ديسيريوس ، توجهت الى روما لمقابلة البابا . وفي نهاية جولتها اصطحبت معها ديسيريوتا ابنة الملك اللومباردي لتزفها على شارلمان ، وبفضل ما تمتعت به من تأثير عظيم على ابنها تم الزواج في ميتر في عيد الميلاد في العام نفسه (١) .

ويبدو أن شارلمان قد وافق على الزواج من ابنة ديسيريوس بعد أن رفض أخوه كارلومان أن يساعده خلال الثورة التي قامت ضده في دوقية أكوئين ، ومن هنا دفعه الحرص والحذر الى أن يدخل في حلف مع جيران أخيه في ثذمال وجنوب ممتلكاته ، فعقد اتفاقية تحالف مع تاسيلو دوق بافاريا ، وأخرى مع ديسيريوس ملك اللومبارديين ، دعمها بالزواج من ابنته (٢) . ومما يسترعى الانتباه أن اينهارد مؤرخ سيرة شارلمان لاذ بالصمت في هذا الصدد ، إذ لم يوضح لنا حقيقة الدوافع الكامنة وراء تحالف سيده مع ديسيريوس ، وهل كان ذلك موجها ضد كارلومان أم لا ، واكتفى بالإشارة الى أن سيده تحالف مع ديسيريوس وأكد هذا التحالف بالزواج من ابنته (٣) كما أسلفنا . أما البابوية

(1) Kleinclausz, Charlemagne, pp. 8-9.

(2) Oman, pp. 337-338.

(3) Garrod & Mowat, Einhard's Life of Charlemagne, pp. xx-xxi.

التي عارضت هذه الزيجة منذ البداية ، فقد نظرت الى هذا التحالف كأعلى مراحل الخيانة ضدها * (١) ولا يخفى علينا أن البابوية كانت مصيبة في تخوفها من هذا التحالف الأسرى ، الذي رأت فيه خطرا جسيما ينطوى على تهديد واضح لنفوذه ومصالحها السياسية بايطاليا *

على أن تيار الحظ شاء أن يتحول في مملكة الفرنجة لصالح البابوية ، إذ في سنة ٧٧١ طلق شارلمان دسيدرانا بدعوى أنها مريضة وعافر ، وإن كنا في الحقيقة لا نستطيع الجزم بالدافع الذي حدا به الى طلاقها * ويروى بعض الباحثين أنه على الرغم من أن شارلمان قد تزوج من فتاة سوابية صغيرة تدعى هيلد جارد ، إلا أن الفرنجة ظلوا على حبهم لدسيدرانا التي كانت في نظرهم الزوجة الشرعية (٢) * وقد شاعت الظروف أيضا أن يموت كارلومان فجأة في ساموس في ٤ ديسمبر من العام نفسه (٧٧١) * والحق أن وفاته جاءت في وقت مناسب تماما ، إذ صار الحفاظ على الوفاق بين الأخوين أمرا متعذرا * وعلى أية حال ، لم يلبث أن استولى شارلمان على ممتلكات أخيه ، وبذلك توحدت مملكة الفرنجة تحت نفوذه ، من مصب الراين حتى مصب الرون ، ومن نهر المين حتى خليج بسكاي ؛ على أن جبرجيا أرملة كارلومان استعانت لاغفال حقوق ولديها القاصرين في أملاك أبيهما ، ففرت بهما ومعها حفنة من أتباعها الى دسيدريوس في بافيا ، حيث رحب بها وأسبغ عليها حمايتها (٣) *

ومما يذكر أنه في الوقت الذي انفرد شارلمان بحكم مملكة الفرنجة ، مات البابا ستيفن الثالث في ٢٤ يناير سنة ٧٧٢ ، وخلفه هادريان الأول في أول فبراير من العام نفسه ، ومن المعروف أنه ينحدر من أصل عريق * في النبالة ، واشتهر بمقتله الشديد للعنصر اللومباردى (٤) * وقد أظهر

(1) Oman, p. 338.

(2) Gregorovius, II, p. 344; Kleinclausz, p. 10.

(3) Oman, pp. 338-339; Thompson, I, p. 441.

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ص ١٨٦ .

ابراهيم العدوي : المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(4) Gregorovius, II, p. 345; Kleinclausz, p. 13; Oman, p. 345.

عداء سافرا للملكة اللومباردية منذ أول يوم نهض فيه بشئون البابوية ، وذلك أنه عندما أرسل ديسيريوس سفارة اليه في يوم تكريسه (٩ فبراير ٧٧٢) ، الغرض منها دعم أوامر الود والصداقة بينهما ، استقبلها هادريان بحذر شديد ، ولوضح لها أن كل ما يرغب فيه هو العيش في سلام ومحبة مع جميع المسيحيين سواء بسواء ، وأن ديسيريوس لا يتميز من الآخرين في هذا الأمر ، وأضاف متسائلا أى أخلاص يتبادله مع ملك اعتاد أن يحنث في يمينه ، ويماطل في وعوده ؟ . ومع أن أعضاء السفارة أكدوا له أن مليكهم على استعداد للوفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه سنة ٧٥٦ المتضمن إعادة الأراضى التى استولى سلفه عليها ، فإن البابا لم يقتنع بذلك وأصر على موقفه ، واكتفى بارسال سفارة من قبله الى ديسيريوس لبحث المشاكل المتعلقة بينهما (١) . على أنه قبل أن تصل السفارة البابوية الى بيروجيا ، وصلت الأنبياء الى البابا أن ديسيريوس استولى فجأة على فاينزا ، وفيرارى ، وكوماكيو ، وضايق ضواحي رافنا ، في مارس - أبريل ٧٧٢ (٢) . على الرغم مما حدث ، فقد كتب البابا الى ديسيريوس يطالبه بالوفاء بوعوده ، ولكن الأخير رد عليه برسالة عنيفة تحمل في ثناياها الرفض القاطع . وربما يكون من الأسباب التى شجعت ديسيريوس على اتخاذ هذا الموقف المتشدد إزاء البابوية ، اعتقاده أن شارلمان آنذاك لم يكن يوسع التدخل في شئون إيطاليا ، لا نشغاله بأراضى أخيه التى ضمها اليه عقب وفاته (٣) . ومما يزيد من قوة هذا رأى أن ديسيريوس عمل على توسيع نطاق عملياته الحربية وقتئذ ، فاستولى على الأقاليم التى أخلاها من قبل وهى أوربينو ، ومونتفلترو ، وسنجاجليا ، والبنتابوليس ، وجوبيو ، وأوتريكولى ، وفيتربى ، وللم يكثف بذلك ، إذ قام بتجنيد الجيش اللومباردر

(1) Kleinclausz, op. cit., p. 14.

(2) Halphen, pp. 102-103.

(3) Oman, op. cit., p. 346.

كله ، واتجه به صوب روما (١) . وفى هذه المرة اصطحب معه أرملة كارلومان وولديه ، وحاول أن يجبر البابا هادريان على تتويج ولدى كارلومان ومنحهما بركته ، حتى يجعل منهما منافسا خطيرا لشارلمان ، وبالتالي يفسد العلاقة بين هادريان والفرنجة ، ومن ثم يحقق حلمه فى ايطاليا الموحدة تحت نفوذه ، غير أن البابا فى الواقع لم يكن ساذجا الى هذا الحد (٢) ، لأن حاجة البابوية الى شخصية قوية تحميها من خطر اللومبارديين لم تبرح قائمة ، ولم يطرأ عليها أى تعديل منذ أيام بيبين .

وهنا نلاحظ أن هادريان كان يتوقع من ديسيدريوس أن تدفعه أطماعه التوسعية الى فرض الحصار على روما . ولذلك احتسب لحماية روما ، فاستدعى قوات من توسكانيا ، وكمانيا ، وبيروجيا ، والبنتابوليس ، فى الوقت الذى لوّح مهددا بتوقيع قرار الحرمان على ديسيدريوس ، وعلى الرغم من ذلك أدرك البابا أن امكاناته الحقيقية عاجزه عن الصمود لحصار طويل ، ولما كان اللومبارديون قد سدوا منافذ الطرق البربرية ، فقد أرسل سفارة برئاسة بيبير بطريق البحر الى شارلمان ملك الفرنجة ، طالبا نجته وانقاذ الكنيسة والاكسارخية ، مثلما فعل أبوه بيبين القصر من قبل (٣) .

ويبدو أن أخبار السفارة التى أرسلها البابا الى شارلمان قد أزعجت ديسيدريوس ، مما جعله يخفف الحصار على روما ، ويتسحب عائدا الى فيتربو . ثم أوفد سفارة من قبله الى شارلمان فى خريف سنة ٧٧٢ ، لتوضيح له أن مزاعم البابا لا أساس لها من الصحة (٤) .

(1) Kleinclausz, pp. 14-15; Halphen, p. 103.

(2) Kleinclausz, p. 16; Lavissee, Histoire de France, II, p. 282; Garrod & Mowat, p. 48.

(3) Kleinclausz, p. 16.

(4) Oman, p. 346.

ويمكننا القول ان اللحظة الفاصلة في تاريخ المملكة اللومباردية قد دنت • ذلك أنه لم يكذ يصل السفير البابوي بيير الى مرسلها ، حتى استقبله شارلمان في ثيونفيل في شهر فبراير أو مارس سنة ٧٧٣ ، وفي الاجتماع الذي جرى بينهما ، رأى بيير في البداية أن يذكر «العاهل الفرنجي بأنه منذ اليوم الذي مسح البابا ستيفن الثاني (الثالث) بالزيت المقدس ، وخلع عليه لقب بطريق الرومان ، صار - أي شارلمان - « الحامي الشرعي للرومان والمدافع عنهم » ، ثم أنهى إليه أن دسيدرئوس قد ضرب بهتةبين عرض الحائط ، معلنا رفضه إعادة الأراضي التي تضمنتها هذه الهبة (١) • وقبل أن ينفض الاجتماع راح السفير البابوي يوعز لشارلمان بأن قوة دسيدرئوس تبدو في الواقع أكبر من حجمها الحقيقي ، وأنه يواجه المتاعب من قبل دوقى سبوليتو وبنفنتوم • ومن الواضح أن السفير البابوي أراد بذلك أن يستحث شارلمان على أن يتحرك بجيوشه لكبح جماح دسيدرئوس ، بيد أن شارلمان آثر أولا أن يستخدم الطرق الدبلوماسية لحل المشاكل القائمة بين اللومبارديين والبابوية ، لانشغاله وقتئذ بمحاربة السكسون على حدود مملكته (٢) • ولهذا بادر بارسال سفارة للتفاوض مع دسيدرئوس حول تسليم الأراضي التي استولى عليها للبابوية ، وعرض عليه نظير ذلك أربع عشرة ألف قطعة من الذهب (٣) • ولكن دسيدرئوس رفض غاضبا تسليم الأراضي للبابوية ، وعاب على الملك الفرنجي تدخله فيما لا يعنيه (٤) •

وعندئذ لم يجد شارلمان مفرًا من التدخل في حرب مع دسيدرئوس لإعادة الأمور الى نصابها في ايطاليا • ومن الأسباب التي دفعت به الى

(1) Kleinclausz, Charlemagne, p. 18; Davis, A Hist. of Medieval Europe, p. 164.

(2) Thompson, I, p. 242.

(3) Kleinclausz, p. 18.

(4) Oman, pp. 346-347.

اتخاذ هذا القرار أنه عقد العزم على اقتفاء خطوات أبيه في حماية البابوية من الخطر اللومباردى ، وقد دلت الأحداث الماضية على أن وجود ملكة لومباردية قوية متفوقة من شأنها أن تهدد ممتلكاته الجنوبية (١) . وأخيرا لم ينس شارلمان أن ديسيريوس وقف الى جانب أرملة أخيه كارلومان وولديها ، ومنحهم عطفه وحمايته .

وعلى أية حال ، بدأ شارلمان يستعد للتدخل في إيطاليا ، فجهز جيشا ضخما حشده في مدينة جنيف حوالى شهر يوليو سنة ٧٧٣ . وهنا نلاحظ أن الطريق الى إيطاليا لم يكن سهلا أمام شارلمان ، إذ كان عليه أن يعبر سلسلة جبال الألب المعروفة بوعورتها وشدة ارتفاعها ، بينما عسكر ديسيريوس بقوات كبيرة أسفل منافذ ممرات تلك الجبال المؤدية الى إيطاليا ، وأقام بهما التحصينات والسدود (٢) . ولذلك رأى شارلمان من باب الحذر قبل أن يزحف على إيطاليا أن يقسم جيشه الى قسمين : أحدهما تحت قيادة عمه برنارد ، وقد عهد اليه باختراق جبال الألب عن طريق ممر سانت برنارد ، على حين يسلك القسم الآخر بقيادته ممر مونتب سنى . ثم كان أن زحف الجيش الفرنجى الى إيطاليا خلال سلسلة جبال الألب الوعرة ، وهناك بلغ به الانهاك والارهاق حدا جعل الاستثناء يظهر في صفوفه ، حتى فكر بعضهم في العودة . وأخيرا وصل شارلمان الى شارف إيطاليا ، ولكنه قبل أن يصدر أوامره بالهجوم على ديسيريوس ، رأى من الأوفق أن يعيد اجراء المفاوضات معه ، على أمل أن يحقق مطلبه دون اراقة دماء . وتتمثل هذه المطالب في أن يسلم ديسيريوس الأراضى التى استولى عليها للبابوية ، مع تجديد عرضه السابق بشأن المنحة المالية ، واشترط في حالة الموافقة على مطالبه أن يسلمه ديسيريوس ثلاث رهائن ضمانا للاتفاق . على أن ديسيريوس أعلن عدم موافقته على مطالب

(1) Scott, Medieval Europe, p. 35.

(2) Kleinclausz, pp. 18-19.

شارلمان (١) ، مما جعل الحرب بينهما حقيقة مؤكدة .

وتحت سفوح جبال الألب المطلة على إيطاليا ، أمر شارلمان جماعة من جنده بتسلك القنال المؤدية إلى سوسا لتطويق ديسديريوس وقواته ، وإذا وجد الأخير نفسه محاطا بالجيش الفرنجي أخذه الرعب ، وانسحب عائدا إلى بافيا ، مرتكبا الخطأ نفسه الذي ارتكبه سلفه أستولف خلال الحملة التي قام بها ببين القصير على إيطاليا (٢) . ولكن شارلمان جد في مطاردته ، ولما وصل إلى بافيا في حوالي نهاية سبتمبر سنة ٧٧٣ ، وجد أبوابها موصدة دونه ، إذ سبقه إليها ديسديريس ومعه حاشيته وجموعه ، وبالتالي صار من الصعب على شارلمان اقتحامها ، ولم يكن أمامه إلا تضيق الخناق عليها (٣) .

ومما يذكر أنه في غمرة تفهقر الجيش اللومباردي أمام شارلمان ، استطاع أد الجير ابن سيدريوس أن يحتوى بقلعة فيرونا ومعه أرملة كارلومان وولداها . ولم يكد شارلمان يعلم بذلك حتى ترك الجزء الأكبر من جيشه على حصار بافيا ، واتجه على رأس جماعة من جنده صوب فيرونا ، فلم تقو على الصمود طويلا ، وسقطت في يده ، بيد أن أدالجيز استطاع الفرار إلى القسطنطينية بطريق البحر ، تاركا خلفه جربرجا أرملة كارلومان وولديها تحت رحمة عمهما . وفي البلاط البيزنطي لقي أدالجيز ترحيبا من الامبراطور ليو الرابع الايسوري (٧٧٥ - ٧٨٠) ، حيث وافق على أن يقوم ضيفه بعمل حربي في إيطاليا ضد الفرنجة ، بالاشتراك مع أريكييس دوق بنفنتوم (٤) .

وكان حصار بافيا مهمة شاقة وطويلة ، لأنها كانت من أقوى

(1) Ibid, p. 19.

(2) Oman, p. 347; Halphen, p. 104; Lavissee, op. cit., II, p. 282.

(3) Kleinclausz, p. 19.

(4) Ibid; Thompson, I, p. 242; Lavissee, II, pp. 282-283.

المدن الإيطالية مناعة ، ولكن الفرنجة شحودا الحصار عليها طوال فصل
الشتاء ، حتى اذا ما جاء عيد الميلاد احتفلوا به خارج أسوارها ، في حين
كان الأهالي يتضورون جوعا داخلها * وهنبا نلاحظ أن شارلمان لم يضيع
الوقت سدى ، فقام باخضاع المدن الواقعة في شمال البو ، كما عقـد
العزم على القيام بزيارة لروما لقضاء عيد الفصح (١٢ أبريل ٧٧٤) (١) *
ولهذا ترك قواته تواصل عمليات الحصار ، وتوجه الى روما في موكب
حافل وبرفقته حاشية رائعة من الأساقفة والرهبان والدوقات والكونتات *
وعند وصوله استقبل البابا هادريان حليقه « حامى الرومان » استقبالا
هائلا ، شاركت فيه الهيئات والطوائف والأطفال حاملين أغصان الزيتون
والصلبان والرايات ، وخلال اللقاء الذى تم بكنيسة القيس بطرس ، تبادل
البابا والعاقل الفرنجى يمين الاخلاص (٢) * والتجدير بالذكر أن شارلمان
قبل أن يعود الى بافيا ، طلب اليه البابا فى مدينة كيرسى عام ٧٥٤ أن
يجدد هبة أبيه ببين للبابوية ، فوافق شارلمان وكتب وثيقة جديدة بالهبة ،
أضاف اليها أقاليم أخرى ، وبمقتضى هذه الوثيقة الشهيرة صار
للبابوية لوى على البحر الأدرياتي ، وسارزانا ، وجبل باردونا ، وبيرسيتو ،
وبارما ، وريجيو ، ومانتوا ، ومونسليشي ، وجزيرة كورسيكا ، ورافنا ،
البندقية وإستريا ، ودقيتى سبوليتو وبنفنتوم (٣) *

وبعودة شارلمان الى مدينة بافيا ، كانت قد وصلت الى مرحلة بالغة
السوء ، إذ فتكت المجاعات والأوبئة بأهلها ، وانهار قوى حاميتها حتى لقد
اضطرت الى طلب الاستسلام ، شريطة أن يوافق شارلمان على تأمين
حياتها ، فلم يخل عليها بذلك * وكان أن استسلم دسيدرئوس ومن معه ،
وتلا ذلك أن شق شارلمان طريقه الى داخل المدينة وسط أناشيد النصر
وأهازيج المدح ، ومعه زوجته هيلدجارد التى رافقته الى إيطاليا

(1) Oman, p. 347.

(2) Kleinclausz, pp. 19-20.

(3) Kleinclausz, p. 24; Halphen, p. 109.

لتشاركه فرحة انتصاره • ولم يلبث أن دخل شارلمان القصر الملكي اللومباردى دخول الظافر ، وبعد أن وزع كنوزه الثمينة على جنده (١) ، قام بوضع تاج المملكة اللومباردية الحديدي الشهير على رأسه ، وتبع ذلك أن خلع على نفسه في ٥ يونيو سنة ٧٧٤ « لقب ملك الفرنجة واللومبارديين » •

Rex Francorum et Langobardorum ، (٢) وذلك يعنى أنه صار صاحب السلطة الفعلية بإيطاليا • وعلى أية حال فقد سيق ديسيدريوس ومعه أفراد أسرته الى مدينة لياج Liege ، ووضعوا تحت تصرف أسقفها فقام بخلق شعر ديسيدريوس ، ثم أودعه مع زوجته ديركوريى Corbey الواقع على نهر السوم في فرنسا ، حيث قدر لهما أن يقضيا بقية عمرهما في صلاة وابتهاال • أما بالنسبة لأرملة كارلومان وولديها ، فقد لاذت المصادر المعاصرة بالصمت إزاء المصير الذى لحق بهم (٣) •

وهكذا قضى شارلمان على المملكة اللومباردية في إيطاليا ، وأزالها من الوجود • ومن الواضح أن شارلمان اختلف عن أبيه القصير في كيفية معالجة النزاع بين البابوية واللومبارديين ، فبينما نهض ببيت بالتراماته تجاه البابوية بأقل نفقات دون أن يمس الوجود السياسى للمملكة اللومباردية ، نلاحظ أن شارلمان على العكس من ذلك ، لم يترك الباب مفتوحا أمام هذا النزاع ، بل أنهاه بتوجيه ضربة قاصمة للمملكة اللومباردية أخرجتها من قائمة الممالك المستقلة • وليس هناك من شك أن شارلمان صار صاحب السيادة العليا على إيطاليا ، إذ خضعت الأقاليم اللومباردية الممتدة من بافيا الى ما بعد فيرونا لسلطوته حتى الأقاليم التى لم تصلها جيوشه اضطر معظم ممثلى ديسيدريوس بها للاعتراف بنفوذه (٤) •

(1) Kleinclausz, p. 25; Thompson, I, p. 243.

(2) Hulme, The Middle Ages, p. 260; Stephenson, Med. History, p. 150; Halphen, p. 105; Pirenne, Hist. of Europe, pp. 85-86.

(3) Kleinclausz, pp. 26-27; Oman, p. 348.

(4) Halphen, Charlemagne et l'Empire Carolingien, p. 105.

وهنا يجدر بنا القول أن شارلمان أحرز انتصاراته على اللومبارديين دون أن يشترك معهم في معركة ، ودون أن يواجه مقاومة فعالة من قبلهم • وصحيح أن تفكك اللومبارديين كان عاملا رئيسيا في انتصار شارلمان ، غير أن ثمة عوامل أخرى ساهمت في هذا الانتصار ، من بينها أن ديسيدريوس لم يصل إلى العرش دون أية معارضة ، ففي سنة ٧٧٢ فر كثير من اللومبارديين الذين صدر ديسيدريوس أموالهم إلى فرنسا ، وأعلنوا وقوفهم إلى جانب شارلمان ، كما أن روح الخيانة التي أبرزتها الأساطير فيما بعد ، توضح لنا أن أعدادا ضخمة من اللومبارديين قد اتصلت بشارلمان ، تطلب أن يأتي بجموعه إلى إيطاليا وهي تعدده أن تسلمه الطاغية ديسيدريوس مقيدا ، وإلى جانب ذلك كان مارتن رئيس أساقفة رافنا هو الذي دل الفرنجة على الطريق المؤدى إلى إيطاليا (١) • وبهذا يكن من أمر ، فإن افتقار اللومبارديين إلى ملكية قوية توحد صفوفهم ، وازدواجية العنصر السكاني — ويقصد بذلك اللومبارديون والرومان — والنظم بايطاليا ، وتفسخ الاستقرائية اللومباردية ، كل ذلك يوضح حقيقة بناء الكيان اللومباردي ، الذي تفتت بلمسة من أيدي الفرنجة (٢) •

وعلى غير المتوقع ، عامل شارلمان رعاياه الجدد اللومبارديين معاملة طيبة ، فلم يقتلع جذور مؤسساتهم ونظمهم الخاصة ، وأبقى على الموظفين اللومبارديين في مناصبهم ، كما أن القانون اللومباردي ظل ساري المفعول • غير أن الإبقاء على هذا الوضع بين شعب شديد المراس على شاكلة اللومبارديين ، كان من شأنه أن يولد فيهم الأمل في استعادة حريتهم ، وفعلا وجد اللومبارديون ضاللتهم المنشودة في كبار الدوقات الذين تركهم شارلمان على رأس دوقياتهم (٣) ، كما سنرى بعد قليل •

(1) Kleinclausz, pp. 27-28.

(2) Lot, The End of the Ancient World, p. 295.

(3) Thompson, op. cit., I, p. 243.

وأخيرا نصل الى القول ان سقوط المملكة اللومباردية يعتبر أمرا حاسما في تاريخ إيطاليا • إذ قضى نهائيا على آخر محاولة استهدفت توحيد هذا القطر ، وكتب عليه أن يظل ممزقا حتى نهاية القرن التاسع عشر • أما الدولة البيزنطية التي لم ترعجها الأحداث التي تلاحقت على إيطاليا في السنوات الأخيرة بسبب انشغالها بالجبهة الشرقية ، فقد فقدت هي الأخرى ممتلكاتها في شبه الجزيرة الإيطالية ، باستثناء بعض المراكز في الجنوب ، شاء حسن طالعها أن تفلت من أيدي شارلمان ، نظرا لحاجته الى العودن لمملكته لغزو أراضي السكسون ونشر المسيحية بينهم (١) • وإذا كان اللومبارديون قد فقدوا دولتهم على يد شارلمان ، وتجمعت الظروف على بيزنطة لتخسر نفوذها في إيطاليا ، فمن الواضح أن البابوية كانت القوة الوحيدة التي خرجت في النهاية مرفوعة الرأس ، ولكنها من ناحية أخرى وقعت في قبضة حليفها وحاميها شارلمان !

محاولة إحياء المملكة اللومباردية :

رأينا ما كان من سقوط المملكة اللومباردية ، ولكن بعض رجال الدين والدوقات اللومبارديين أخذتهم الحسرة على ضياع مملكتهم ، خاصة هلدبراند دوق سبوليتو ، ورود جود (روتجارد) دوق فريولي ، وأريكييس دوق بنفنتوم ، فاستغلوا عودة شارلمان الى مملكته ، وشرعوا في التحرك لاستعادة نفوذهم الضائع ، وحدث ذلك في أثناء ظهور أدالجييس — ابن دسيدرئوس — على رأس أسطول زوده به حلفاؤه البيزنطيون ، للاستيلاء على روما وإحياء مملكة قومه المندثرة ، حيث أخذ يحرض قومه على الثورن ضد الفرنجة وطردهم من إيطاليا (٢) • وصادف ذلك أن

(1) Stephenson, op. cit., p. 150.

(2) Barry, The Papal Monarchy, pp. 97-98; Lavissee, op. cit., II, pp. 283-284.

خرج أساقفة رافنا على البابا هادريان ، ومن المعروف أن هؤلاء الأساقفة كانوا يشغلون مكانة دينية هامة في ايطاليا تأتي بعد البابوية . ولما قضى على الاكسارخية في رافنا ، ظهرت أطماعهم السياسية ، وبمعنى آخر أرادوا أن يحلوا محل الاكسارخ في النفوذ ، بتقليد البابوية فيما وصلت اليه من سلطة علمانية . وقد كان أبرزهم الأسقف ليون ، الذي استغل فرصة رحيل شارلمان عن ايطاليا ، فأعلن انفصاله عن البابوية ورفضه لسيادة الفرنجة ، وتبع ذلك أن استولى على مون فاينزا ، وفورليمبولي ، وفورلي ، وسيسينا ، وبوبيو ، وكوماكيو ، وإيمولا ، وبولونيا وفيراري ، البنتابوليس ، وبعد أن طرد ممثلي البابا منها ، راح يوزع مناصبها على أقاربه وأنصاره ، ولا شك أن ما فعله ليون يعد انتهاكا صارخا للهبات الفرنجة التي حظيت البابوية بها ، مما أضر بالأخيرة أبلغ الضرر (١) . وعندئذ أصيب هادريان بالهلع ، وبعث إلى حليفه شارلمان رسالة تلو أخرى ، يخبره بما فعله أسقف رافنا ، وباتفاق رودجود دوق فريولي مع هلدبراند دوق سبوليتو ، وأريكييس دوق بنفنتوم ، وريجنالد دوق شويزي Chiusi ، والبيزنطيين ، بالتواطؤ مع أدالجييس ، على مهاجمة روما برا وبحرا ، والقضاء القبض على البابا ، وبالتالي احياء الملكة اللومباردية (٢) .

وعلى الرغم من أن شارلمان كان منهمكا في حروبه ضد النكسون ، وفي أشد الحاجة الى هدوء الجانب الايطالي ، فقد رأى أن يحسم الوضع القائم في ايطاليا في حينه قبل أن يستفحل ويتسع مداه . ولم يكد ينتهي من احتفالات أعياد الميلاد في سلهستادت Selestadt سنة ٧٨٠ ، حتى عبر جبال الألب الى ايطاليا على رأس جيش كثيف انتقاه بعناية ، وقد رافقه هذه المرة زوجته هيلد جارد وولداه بيين ولويس ، وابنته جيزيل (٣) . وما أن وصل بافيا حتى اجتازها مسرعا الى فريولي ، حيث

(1) Kleinclausz, p. 28.

(2) Ibid, pp. 29-30; Lavissee, II, p. 283.

(3) Garrod & Mowat, Einhard's Life of Charlemagne, p. 49.

تمكن من قتل دوقها روتجود أعظم الدوقات الثائرين قوة ونفوذاً ، كما فرض طاعته على هلدبراند دوق سيوليتو ، وتغلب على بقية الثائرين واحداً بعد الآخر ، فيما عدا أريكييس دوق بنفنتوم الذي هبأت له طبيعة بلاده الجبلية وموقعها البعيد ملاذاً حصيناً (١) ، مما جعله يحتفظ بدوقيته سليمة ، رغم الحملات العديدة التي وجهها شارلمان ضده (٢) .

وكان من الطبيعي أن يغير شارلمان سياسته تجاه اللومبارديين بعد أن أخمد ثورة دوق فريولى وغيرها ، فألغى مؤسساتهم ونظمهم وقوانينهم وأرغمهم على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم . والأهم من ذلك أنه أبطل نظام الدوقيات في السهل اللومباردى (٣) واستبدله بنظام الكونتيات الفرنجية ، وبذلك تخلى دوقات فريولى وسيوليتو عن مناصبهم لكونتات جدد ينتمون الى طبقة الموظفين الفرنجة (٤) . وهكذا شاعت الاقتدار أن يحرم الشعب اللومباردى من مؤسسات ونظمه على أيدي شعب جرمانى مثله ، ونعنى به شعب الفرنجة .

بعد أن استقرت الأمور في إيطاليا ، رأى شارلمان أن يحتفل بعيد الفصح في روما في ١٥ أبريل سنة ٧٨١ ، وذلك بحضور البابا هادريان الذى قام بتعميد ابنه بيبين ، وباركه مع أخيه لويس ، كما وضع تاج إيطاليا على رأس بيبين بعد أن أسند إليه أيوه حكمها ، وخلع عليه لقب ملك إيطاليا ، ثم كان أن اتخذ شارلمان طريقه شمالاً عائداً الى فرنسا في يوليو من العام نفسه (٥) .

وممها يكن من أمر ، فقد اتخذ بيبين من بافيا عاصمة اللومبارديين

(1) Ibid.

(2) Oman, pp. 348-349.

(3) Thompson, I, p. 243.

(4) Hollister, Medieval Europe, p. 110.

(5) Kleinclausz, p. 113; Halphen, p. 113.

السابقة مقرا له ، وان كان يقيم أحيانا في مدينة فيرونا الحصينة • وعلى الرغم من أن بيبين صار صاحب الكلمة النافذة في ايطاليا ، فقد احترم اللومبارديين وتقاليدهم ، إذ أنه لم يحرمهم من تولي المناصب الهامة ، مثل مجلس الشعب ، وحكم الكونتيات ، وعهد اليهم بمهام السفارات وقيادة الجيوش ، كما كان منهم الرهبان والأساقفة (١) • حقيقة أن بيبين قد أحكم قبضته على ايطاليا ، وتمتع الفرنجة بمكانة ملحوظة فيها ، إلا أنها بدت في ظاهرها كأن لم يطرأ عليها أى تغيير في مؤسساتها ونظمها • والواقع أن ايطاليا بفضل تقاليدها القديمة ، والتنظيمات الجديدة التى أتت بها الفرنجة ، سادت فيها العدالة ، واستقر الأمن في ربوعها ولا سيما تلك الحراسة اليقظة التى وفرها على طول الحدود لمراقبة الطرق والمنافذ المؤدية الى جانب الألب • وفي الوقت ذاته قام بتحصين دوقية فيريولى تحسبا لاغارات الآفار • ومما يثير الدهشة أن تلك الأعمال الرائعة لم تحظ بالقبول عند اللومباردين ، إذ لا يزال عدد كبير منهم يتحسر على ضياع المملكة اللومباردية وأيامها الخالية ، وبلغ الضيق ببعضهم حدا جعله لا يطيق البقاء تحت سيطرة الفرنجة ، وفضل على ذلك الهرب بعيدا • والجدير بالذكر هنا أن شارلمان ابان حملته الأخير أثر أن يتبع سياسة التسامح نحو الثائرين الذين دانوا له بالطاعة ، فسمح بعودتهم الى بلادهم في ايطاليا ، ورد اليهم أموالهم وأملاكهم ، كما أنه استجاب لطلب ابنه بيبين ، بأن مد هذا الصنيع على جميع اللومبارديين الذين أخذهم راهثن الى فرنسا (٢) •

وكتبا قد أشرنا من قبل الى أن دوقية بنفنتوم قد تعذر على شارلمان إخضاعها ، رغم الحملات العديدة التى وجهها ضدها • ومن المعروف أن تلك الدوقية بما عرفت به من قوة وحصانة واتساع ، كانت دوما شوكة

(1) Kleinclausz, pp. 113-114.

(2) Ibid, p. 120.

في حلق الملوك اللومبارديين ، وكثيراً ما سببت لهم متاعب جمّة • وقد ميزت مدينة بنفنتوم عاصمة تلك الدوقية المعروفة بنفس الاسم بمناعتها ووفرة كنائسها وأديرتها • ومنذ أن تولى أريكييس الذي عرف بنبالته العريقة وتدنيه وعدالته وميله الزائد للفنون حكم هذه الدوقية في سنة ٧٥٨ ، بلغت درجة واسعة من الفلور والازدهار ، إذ شيد بها قصراً ضخماً وكنيسة رائعة أهداها للقديسة صوفيا ، كما شيد قصراً آخر بمدينة سالرنو التابعة للدوقية ، واستكمل تحصيناتها • وقد عرفت زوجته أدلبرجا ابنة دسيدرئوس بذكائها البارِع الذي مدحه المؤرخ بولس الشماس ، ومعارفها الفلسفية والتاريخية ، كذلك كان ابنه البكر روموالد Romuald نحويًا بارِعًا ، ومثلاً طيباً للتعقوى على غرار أبيه (١) • ومما يذكر أن أريكييس ارتأى — بعد سقوط مملكة اللومبارديين — أن لقب دوق لم يعد جديراً بمكانته ونفوذه ، فاختر لنفسه لقب « أمير اللومبارديين » ، وأخذ ينهج في حكمه نهج الملوك اللومبارديين السابقين ، باقتفاء سيرتهم ومراسيمهم (٢) •

والحق أن شارلمان قاهر اللومبارديين لم ينظر بعين الارتياح الى علو شأن دوقية بنفنتوم وصعودها مدارج الاستقلال ، ولا سيما أن البنفنتيين اعتبروا أرض دوقيتهم بمثابة الملاذ الأخير لحریتهم السلية منذ أن سقطت دولتهم ، فلم ينقادوا للفرجة مثلما فعل إخوتهم جيرانهم في دوقية سبوليتو ، بل لم يتورع بعضهم عن تناول شارلمان بالقدح والسباب القاسى ، ومن أولئك الذين تطاولوا على العاهل الفرنجى بوثن راهب دير سانت فنسنت في فولتورن الواقعة شمال الدوقية ، حيث أقسم جهراً على الاطاحة بالنفوذ الفرنجى ، بل بلغ به الأمر حدا جعله يعلن أنه لا يخشى على ديره من شارلمان ، الذى لا يزيد في نظره عن الكلب ! وعلى الرغم من ذلك كله كان البنفنتيون يدركون تماماً أنه لا قبل لهم

(1) Ibid, p. 121.

(2) Ibid.

بقواتهم العسكرية المحدودة على مواجهة عاهل الفرنجة القوى • وعلى أية حال ، شاعت الظروف آنذاك أن يجد البنفنتيون في الامبراطور البيزنطي حليفا لا يستهان به (١) • ومن المناسب أن نكرر القول هنا أن ممتلكات الدولة البيزنطية لم تقتل جذورها عن آخرها من شبه الجزيرة الايطالية ، فما زال تحت أيديها صقلية ، وأربعة أقاليم صغيرة تحيط بدوقية بنفنتوم ، ونبولوى وأمالفى على ساحل البحر التيرانى في أقصى الجنوب ، وأوترانت وجاليبولى في أحد طرفى الكعب الايطالى ، وكالابريا فى الطرف الآخر ، وهى كلها غاية فى التحصين والمناعة • وأخيرا كان للبيزنطيين فى الشمال الايطالى استريا ومعها مدن تريست وجرادو ، وفى الوقت ذاته ظلت البندقية معترفة بسيادتهم (٢) •

ولما كانت الدولة البيزنطية غارقة فى متاعبها لسنوات طويلة بسبب عبادة الصور والأيقونات ، فالذى يهمنى بصدد هذه الدراسة أن الامبراطور ليو الرابع توفى سنة ٧٨٠ تاركا خلفه طفلا صغيرا على عرش هذه الدولة وهو قنسطنين السادس ، تحت وصاية أمه إيرين ، المعروفة بتصلها من السياسة اللا أيقونية التى تبناها الأباطرة الأيسوريون فيما قبل ، ولم تلبث هذه المرأة التى اتصفت بالعنف والميل للشر أن استبدت بمصائر الأمور ، بينما دعت الحاجة الى وجود امبراطور قوى ، يدفع أخطار الخليفة العباسى هارون الرشيد ، الذى اجتاحت جيوشه آسيا الصغرى ، حتى لقد اضطرت أن تشتري الصلح منه مقابل مبلغ ضخم تعهدت بدفعه سنويا ، هذا فى الوقت الذى نشط البلغار فى جبهة البلقان • ولهذا كله ، أخذت إيرين فى التوحد الى البابا وشارلمان ، فاستغلت فرصة وجود الأخير فى روما سنة ٧٨١ لقضاء عيد الفصح ، وأوفدت اليه رسولين من

(1) Ibid, pp. 121-122.

(2) Kleinclausz, Charlemagne, p. 124-125.

قبلها ، شرحا له رغبة سيدتهما في طلب يد ابنته روترودا Rotrude لابنها الامبراطور المحدث . والحق أن شارلمان رحب بهذا المشروع ، إذ رأى في ارتباطه بالدولة البيزنطية ذات الأمجاد العريقة شرفا ملك بربرى مثله لايدانيه شرف ، مما يسبغ عليه مكانة ونفوذا عظيمين من جهة ، ويطلق يده في التصدي للبنفنتيين من جهة أخرى . وسرعان ما أعلنت الخطبة ، وتلاها أن عهد شارلمان بابنته الصغيرة الى من يعلمها اللغة الاغريقية وآدابها ، وعادات البلاط البيزنطي وتقاليده ، وفضلا عن ذلك طلب الى بولس الشماس أن يعلم الشمامسة الذين سيرافقون الأميرة الى القسطنطينية اللغة اليونانية (١) . ومن الطبيعي أن التقارب بين الامبراطورية البيزنطية ومملكة الفرنجة وقتذاك ، قد أثار مخاوف ريكيس دوق بنفنتوم ، مما جعله يثير القلاقل ضد ممتلكات البيزنطيين بجنوب ايطاليا ، فانقض على أمالفي ، وشن هجوما على نابولي (٢) . وثمة وثيقة في هذا الصدد توضح شكوى البابا هادريان من أنه صار من الصعب المحافظة على أملاك الكنيسة في نابولي ، بسبب الحرب الدائرة بينها وبين بنفنتوم (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فقد ترتب على هذه التغيرات التي طرأت على ايطاليا ، أن صمم شارلمان على التدخل ، وذلك لاختضاع أريكيس حتى لا يمثل تهديدا مستمرا للنفوذ الفرنجي في ايطاليا . ولذلك لم يكف شارلمان بفرغ من مشاغله في فرنسا ، حتى خرج الى ايطاليا من وورمز على رأس جيش كثيف في أواسط شتاء سنة ٧٨٦ ، فوصل فلورنسة ، ومنها واصل زحفه الى روما ، فوصلها في الأيام الأولى من عام ٧٨٧ ، حيث اجتمع بابنه وبين والبابا هادريان لبحث الأوضاع الراهنة في ايطاليا ، وبطبيعة الحال ، كان شارلمان مطمئنا الى جانب البيزنطيين ، ولاسيما

(1) Ibid, p. 125.

(2) Thompson, I, p. 244.

(3) Kleinclausz, p. 125.

أنه اتفق معهم على موعد قريب تترف فيه ابنته روتروود لأميراطورهم في كابوا ، ولذلك لم يعد أمامه إلا توجيه ضربة قاصمة لدوقية بنفنتوم ، كي تستقر الأمور في إيطاليا . ويهمننا الإشارة هنا الى أن أريكييس رغم شجاعته وأتباعه المخلصين وقلعته الحصينة فقد رأى بعين المصلحة الخاصة أن يهادن شارلمان نظرا لضخامة الجيش الفرنجي ، ولهذا أسرع الى عقد الصلح مع أهالي نابولي ، وأرسل ابنه رومالد محملا بالهدايا الى شارلمان ، تعبيراً عن رغبته في السلام . ولكن شارلمان - بايعاز من البابا - لم يأبه به ، وعسكر بقواته في كابوا استعدادا للهجوم على بنفنتوم . على أن أريكييس أسرع الى مغادرتها الى سالرنو ، حيث أرسل الى شارلمان ابنه الثاني جريموالد واثنى عشر نبيلاً لومباردياً رهينة ، تأكيداً لطاعته وولائه من ناحية ، وأملأ في أن يجنب دوقيته أعمال السلب والنهب من ناحية أخرى . وكان أن استجاب شارلمان لدخول أريكييس في طاعته ، وعقدت اتفاقية بين الطرفين تعهد الأخير بمقتضاها بدفع جزية سنوية قيمتها سبعمائة قطعة من الذهب . وقد تلا ذلك مباشرة أن عاد شارلمان الى روما بين ٢٤ و ٢٨ مارس من العام نفسه (٧٨٧) ومنها توجه الى مملكته وبرفقتة الرهائن (١) .

على أنه حدث في الوقت الذي كان شارلمان معسكراً بقواته في كابوا ، أن أتاه وفد من قبل إيرين يعلمه بفسخ خطبة الاميراطور قنسطنين السادس لابنته روتروود . ويبدو أن السبب في ذلك يرجع الى أن إيرين خافت من أن تعمل كنتها في المستقبل على تقليص نفوذها والحد من سلطانها ، بالاضافة الى أن مما أحرزه الفرنجة من انتصارات بات يشكل خطراً على الممتلكات البيزنطية بإيطاليا ، يفوق الخطر المتوقع على دوقية بنفنتوم (٢) . ويبدو أن فسخ الخطبة قد شجع أريكييس على أن يثير المتاعب في وجه شارلمان ، ويضرب بالوعود التي بذلها له عرض الحائط ، بدليل أنه فور أن غادر شارلمان كابوا ، دخل أريكييس في مفاوضات مع البيزنطيين انتهت

(1) Kleinclausz, pp. 125-126.

(٢) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ، ج ١ ص ١٥٧ .

الى عقد اتفاقية بينهما ضد شارلمان ، تنازلت ايرين بموجبها عن نابولي لأريكيس الذى كان يطمع فى الاستيلاء عليها ، كما خلعت عليه لقب بطريق ، شريطة أن يتبنى عادات البيزنطيين وتقاليدهم ، ويلتزم بوضع قواته تحت تصرف الدولة البيزنطية ، حال اشتباكها فى حرب ضد الفرنجة على أرض ايطاليا ، وفى الوقت نفسه تم الاتفاق على أن يتوجه أد الجيس - الوريث الشرعى لدمسديريوس - على رأس جيش الى تريف أو رافنا لاثارة القلاقل والاضطرابات ضد الفرنجة فى ايطاليا الشمالية * ولا شك أن هذه الاتفاقية كان من شأنها أن تشكل خطرا داهما على نفوذ الفرنجة فى ايطاليا ، ولكن وفاة أريكيس فى ٢٦ أغسطس سنة ٧٨٧ (١) ، جعلت الأحداث تأخذ مجرى مغايرا *

ويظهر ذلك بوضوح فى أن البنفنتيين طالبوا شارلمان بعودة أميرهم جريموالد الذى أخذه رهينة ، ليخلف أباه فى حكم الدوقية * ويبدو أن شارلمان استغل هذا الطلب للحصول على أقصى فائدة ممكنة ، ولا سيما أن أدالجيس رسا بأسطوله وقتل فى كالابريا ، وأخذ يثير الفتنة والاضطرابات ضد الفرنجة حتى اقليم البنتابوليس ، كما أشار على اخته أدلبرجا التى أخذت على عاتقها توجيه أمور الدوقية خلال غياب ابنها جريموالد فى فرنسا ، بوجوب استقبال السفراء البيزنطيين فى سالرنو أو آخر يناير سنة ٧٨٨ ، وفى المقابلة التى تمت بينها وبينهم وافقت أدلبرجا على أن تظل الاتفاقية التى وقعها زوجها أريكيس قبل وفاته سارية المفعول (٢) * وعندما وصلت أنباء هذه المقابلة الى البابا هادريان الأول أصيب بالفزع ، وأرسل الى شارلمان يطلب عدم الموافقة على اطلاق سراح جريموالد ، فضلا عن ارسال جيش لإخضاع البنفنتيين فى الربيع القادم * ولكن شارلمان على العكس من ذلك أبدى تعقلا وحكمة آنذاك ، اذ استجاب لرغبة البنفنتيين بأن يعيد اليهم جريموالد ، شريطة

(1) Kleinclausz, Charlemagne, pp. 126-127.

(2) Ibid, p. 127.

أن يضرب الأخير السكة بأسم شارلمان ، ويضع اسمه على المراسيم التي يصدرها ، ومن الطريف في هذا الصدد أن شارلمان فرض على جريموالد وعلى جميع اللومبارديين في بنفنتوم أن يحلقوا ذقونهم على الطريقة الفرنجية ، رمزا للخضوع والتبعية . على أن الأمر الذي يثير الدهشة أن جريموالد وافق على تلك الشروط ، مما جعل شارلمان يسمح له بالعودة الى دوقيته في سبتمبر من العام نفسه (٧٨٨) ، حيث جرى استقباله بحفاوة . والحق أن جريموالد أوفى بما تعهد به لشارلمان ، إذ أدخل على تأريخ مراسيمه سنوات حكم العاهل الفرنجى ، وحفر اسمه على العملة الذهبية ، والأحرف الأولى من اسمه على العملة الفضية (١) .

ولا شك أن امثال جريموالد لطاعة شارلمان ، جاء مخيبا لآمال إيرين ، إذ تأكد لها تماما أن الخطة التي رسمتها بهدف زعزعة النفوذ الفرنجى في ايطاليا ، ذهبت أدراج الرياح . وازاء تتصلك جريموالد من العهود التي قطعها أبوه وأمه للدولة البيزنطية ، وما انطوى عليه هذا التصرف من خيانة في رأى إيرين ، فقد أنفذت أسطولا يرافقه أوالجيس للنيل من جريموالد ، وعند الحدود بين كالابريا وبنفنتوم دارت معركة هائلة بين البيزنطيين والبنفنتيين في نوفمبر سنة ٧٨٨ ، لقي فيها البيزنطيون هزيمة حاسمة ، أسفرت عن مقتل أربعة آلاف منهم ، ووقوع ألف أسرى ، في حين لاذت فلول الجيش البيزنطى بالهرب ، تاركة خلفها حصيلة وافرة من الغنائم (٢) .

وهكذا قضى على آخر محاولة رامت إحياء مملكة اللومبارديين المندثرة ، وبات واضحا أن شارلمان قد أحكم سيطرته على ايطاليا ، وفرض

(1) Ibid, pp. 127-128.

(2) Ibid, pp. 128-129.

عزلة موحشة على البنفنتيين * ومن المناسب أن نكرر القول هنا إن وقوف البابوية الى جانب شارلمان ، وما ترقب عى تحالفهما من القضاء على اللومبارديين ، قد حطم القاعدة التي كان بإمكان الوحدة الإيطالية أن ترتفع عليها ، بينما ربط مستقبل إيطاليا بالفرنجة في صورة اتحاد عقيم كانت محصلته سبعة قرون من النزاع ، والأسوأ من هذا كله أن الفرنجة وضعوا أساس السلطة الزمنية للبابوية ، ذلك البلاء الوبيل الذي دمر إيطاليا على مدى ألف عام (١) *

(1) Oman, Dark Ages, pp. 343-344.

الفصل الخامس

« حضارة اللومبارديين »

- التنظيم السياسى *
- الديانة *
- الجيش *
- رومنة اللومبارديين *
- الرعايا الرومان *
- القانون اللومباردى ق
- المجتمع اللومباردى وطبقاته *
- الاقطاع اللومباردى *
- النشاط الاقتصادى *
- العملة *
- الحياة الفكرية *
- الفن والعمارة *

رأينا في الفصول السابقة أن اللومبارديين ألتوا من العالم البربرى الواسع الواقع خلف حدود الامبراطورية الرومانية ، وفي هذا العالم ظل الجرمان الشماليون في مواطنهم الأصلية في شبه جزيرة اسكنديناوه وجزر البحر البلطى ، لم يبرحوها مثل غيرهم من الشعوب الجرمانية الأخرى • أما الشرقيون مثل القوط الشرقيين ، والقوط الغربيين ، والوندال ، والبورجنديين ، واللومبارديين وغيرهم ، فقد كانوا أصحاب تجول وترحال ، لم ينعموا بنعمة الاستقرار إلا داخل حدود الامبراطورية الرومانية (١) • وهنا نلاحظ أن اللومبارديين اختلفوا عن بقية الشعوب الجرمانية ، في أنهم لم يتنقلوا داخل أراضى الامبراطورية من مكان الى آخر ، قبل أن يستقروا نهائيا في ايطاليا • ذلك أنهم تدفقوا عليها من داخل جرمانيا مباشرة عند نهاية سنة ٥٦٨ ، بعد أن أدخلوا بانونيا للآفار كما رأينا • ولهذا لم يحتكوا بالحضارة الرومانية ، أو بالأحرى كانوا في مستوى هابط أو بدائى منها (٢) • أضف الى ذلك ، أن وضعهم داخل أراضى الامبراطورية قد اختلف عن وضع معظم الشعوب الجرمانية ، التى اجتاحت أراضى هذه الامبراطورية ، فعلى حين كانت هذه الشعوب تعد « محالفة » Foederati للامبراطورية ، ويعنى ذلك من الناحية النظرية أنها كانت مدافعة عنها ، نجد أن اللومبارديين دخلوا ايطاليا بوصفهم أعداء علنيين وفاتحين قعليين (٣) •

ومن الطبيعى أن اللومبارديين لكونهم لم يتأثروا بالحضارة الرومانية

(1) Ganshof, Le Moyen Age, p. 6.

(2) Ibid, pp. 14-15; Oman, Dark Ages, p. 182.

(3) Thompson, The Middle Ages, I, p. 171; Dudden, Gregory the Great, I, p. 169; Wallace - Hadrill, Italy and Invaders, p. 57.

— موسى : ميلاد العصور الوسطى ، د ١ ص ٣٣١ ،

— سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى ، د ١ ص ١٤٢ .

قبل غزوهم ايطاليا ، قد بدوا في نظر المعاصرين قوماً أفظاظا ، ونالوا شهرة واسعة في العنف والخشونة ، حتى ضرب المثل بهم في الهمجية والتدمير بوحشية ، كما اتصفوا بالشراسة ، وسرعة الغضب ، والميل الى الشراب ، ومن الثابت أنهم عرفوا المسيحية وفقها للمذهب الآريوسى قبل مجيئهم الى ايطاليا ، وان كان البعض منهم ظل على وثنيته المعروفة بطقوسها الغامضة ، حيث كانت القرابين والأضحية تقدم اليها بمصاحبة الرقص والأغاني البربرية ، وكان من المتوقع أن تهذب المسيحية من طباعهم ، ولكنهم على النقيض من ذلك ، لم يتورعوا عن الفتك والتكنيل بأهالى ايطاليا ورجال الكاثوليك . هذا ويرى البعض أن ثمة ما يدل على أن الروايات التاريخية العديدة التى تصف أعمالهم الهمجية مبالغ فيها الى حد ما (١) .

والواقع أنه اذا عدنا قليلا الى الوراء ، وبالتحديد الى ما قبل الغزو اللومباردى مباشرة ، وللقينا نظرة على أحوال ايطاليا ، نلاحظ أن الحروب التى دارت بين الامبراطورية الرومانية والقوط الشرقيين ، قد تركت آثارها بصمات واضحة على سكان شمال ايطاليا . إذ هلكت الغالبية العظمى منهم ، ولم تسلم الحضارة المادية من معاول التخريب والدماء ، حتى أن اللومبارديين عندما غزوها ، وجدوها قطرا مهجوراً . وقد أسهب المؤرخون فى وصف الصورة التى كانت عليها ايطاليا آنذاك ، فالريف قد أصيب بشلل تام ، جعل الكثير من سكانه يهربون الى روما والمدن المحصنة ، ومنطقة البحيرات الضحلة فى البحر الأدرياتي ، وإن كان بعض الفلاحين وملاك الأراضى قد فضلوا البقاء فى أرضهم رغم الأخطار التى هددتهم ، ومنهم من أجبره الغزاة على البقاء . ولأمراء أنه لو عقدنا مقارنة بين

(1) Dudden, op. cit., I, p. 169.

وضع السكان الرومان في إيطاليا آنذاك ونظيره في الغال (فرنسا) الفرنجية وأسبانيا تحت حكم القوط الغربيين ، لوجدناه في إيطاليا أشد سوءا (١) *

والحق أن اللومبارديين بعد أن فرغوا من غزو شمال إيطاليا ومكنوا لأنفسهم فيه ، تغيرت أحوالهم تغييرا جذريا في القرن السابع ، وعلى وجه التحديد في الفترة الواقعة بين موت جريجورى الأول سنة ٦٠٤ وسنة ٧١٢ ، وهى السنة التى ارتقى فيها العرش ليوتبراند أعظم ملوكهم قاطبة ، الأمر الذى نعتبها مرحلة فاصلة في تاريخهم * ذلك أن فتوحاتهم خلال تلك الفترة قد وصلت الى أقصى مداها (٢) ، واحتكوا بالحضارة الرومانية وتأثروا بها ، رغم أنها كانت آخذة في الذبول والانحلال (٣) . ويعنى ذلك أنهم لم يعودوا برابرة أجلاف ، وتحولوا عن الآريوسية الى الكاثوليكية ، واستخدموا اللغة اللاتينية في مراسيمهم ، وكيفوا أنفسهم بمسايلات حياة المدن ، وأسسوا نظمهم ومؤسساتهم ، وصاغوا قوانينهم ذات الطابع الجرمانى المحض (٤) *

التنظيم السياسى :

قام التنظيم السياسى اللومباردى أساسا على الملكية ، شأنه في ذلك شأن الممالك الجرمانية التى تأسست على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، كالوندال والقوط والفرنجة وغيرها * ومن المعروف أن يد التغيير والتبديل قد نالت من هذه الممالك خلال هجراتها من مواطنها الأصلية ، الى أن استقر المقام بها في أراضى الامبراطورية * ويظهر ذلك واضحا في تفقت مؤسساتها القديمة ، وتفسخ طبقاتها الارستقراطية النبيلة ،

(1) Thompson, op. cit., I, p. 171.

(2) Ibid, p. 179.

(3) Cantor, Medieval Hist., p. 145.

(4) Thompson, op. cit., I, p. 179,

كما فقدت الجمعيات الشعبية المؤلفة من طبقة المحاربين — وهم جميع الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية — قوتها المستقلة ، بعد أن صارت مجرد أداة منفذة لأوامر الملك ورغباته (٥) .

وكيفما كان الأمر ، فقد اتضح عجز النظام الملكي اللومباردى عن التطور لسنوات عديدة أعقبت الغزو ، إذ كان كل شئء حولهم ينطق باراقة الدماء والانغماس فى الشهوات ، وبوصفهم أكثر الشعوب التجوالاة Volkerwanderung فوضى ، وجدوا بهجتهم فى ارتكاب عمليات الدمار والتخريب ، ولهذا لم تظهر فى الملكية اللومباردية عائلات ملكية عظيمة ، مثل أمالى فى القوط الشرقيين ، وبالتى فى القوط الغربيين ، كما لم يظهر من بين ملوكها خلال عدة أجيال عبقرية سياسية مثل ألاريك ، وأثولف ، وثيودريك ، وجزريك (١) ، ولو قدر أن وهب الملكان ألبوين وأوثارى لحظة من عبقرية ثيودريك أو جزريك ، لتغير مجرى تاريخ إيطاليا تغييرا جذريا (٢) . ويكشف تاريخ اللومبارديين عن طريقة العصر الملتوية ، التى وصل ملوكهم بها الى العرش ، فقد كانت أحيانا بالوراثة ، أو بالانتخاب الشعبى المباشر ، أو باعلان الموافقة على ما اختاره زعمائهم ملكا ، أو تنازل الشعب عن حقه فى انتخاب الملك ، مثلاما حدث عند موت أوثارى ، عندما أعطى لأرملته ثيوديلدا الحرية فى اختيار زوج ثان جدير بالعرش ، وأخيرا هناك من وصل الى العرش بأسلوب العنف والغدر والاعتقال (٣) .

(1) Lot, The End of the Ancient World, p. 291.

(2) Hodgkin, Italy and her Invaders, V, pp. 154-156.

أما ألاريك (ت ٤١٠) وأثولف (ت ٤١٥) فهما من ملوك القوط الغربيين ، وثيودريك (ت ٥٢٦) ملك القوط الشرقيين ، وجزريك (ت ٤٧٧) ملك الوندال .

(3) Dudden, op. cit., I, p. 170.

(4) Oman, op. cit., p. 188; Villari, The Barbarian Invasions of Italy, II, p. 301; Hulme, The Middle Ages, p. 160.

على أن السممة المميزة للملوك اللومبارديين تتمثل في أن سلطنتهم لم تكن دائمة وثابتة • إذ بموت ألبوين الذى قاد قومه الى أرضهم الموعودة بايطاليا ، اندثرت العائلات الملكية القديمة ، التى كانت تزعم أنها من نسل الآلهة ، وحل محلها رجال جدد برزوا من بين صفوف الدوقات اللومبارديين ، الذين كانوا أهم ظاهرة في تاريخ المملكة ، وقفت عقبة كأداء في سبيل تأسيس ملكية حقيقية ، مما عاد عليها بأوخم العواقب على صعيديها الداخلى والخارجى على حد سواء (١) •

وقبل أن نخوض في وضع الدوقات اللومبارديين ، يجدر بنا أن نتناول نشأة هذا التنظيم بايطاليا ، كى نعى تماما حقيقة الدور الذى قاموا به ، ومدى النفوذ الذى وصلوا اليه على امتداد السنين التى عاشتها المملكة اللومباردية • وترجع بداية هذا التنظيم الى عصر جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ، عندما منح قائده نارسيس سلطات واسعة بوصفه قائدا عاما لجيوشه ، وحرص على أن يعاونه قواد duces انحصرت مسئوليتهم في ادارة الولايات الموزعة في ايطاليا ، وقد بقى هذا التنظيم قائما بعد وفاة جستنيان ، فعرف حاكم الولاية بأسم الدوق dux ، والولاية باسم الدوقية ductatus ، وعلى هذا الأساس وجدت دوقيات البندقية وناپولى وروما وغيرها (٢) • ولا شك أن الغاء التنظيم الادارى للولايات الرومانية القديمة ، واستبداله بنظام الدوقيات ، من الأمور التى لها دلالتها على تطور نظم العصور الوسطى في ايطاليا (٣) • ويتضح ذلك في أن الدوق جمع بين السلطتين المدنية والحربية داخل دوقيته ، ويتمثل ذلك في أنه أصبح مسئولا عن تنظيم القوات العسكرية ، والاشراف على الموظفين المدنيين ، واقامة العدالة ،

(1) Gregory of Tours, Hist. of the Franks, I, p. 179; Lot, op. cit., p. 291.

(2) Stephenson, Med. Hist., pp. 96-97.

(3) Thompson, op. cit., p. 171.

وإدارة الشؤون المالية ، وحق التدخل في المسائل الدينية * ويمكن القول أن الدوق كان صورة مصغرة من الاكسارخ ممثل الابراطور البيزنطى فى ايطاليا ، مع ملاحظة أنه اذا كان الاكسار صاحب السلطة فى تعيين الدوق ، ومراجعة حساباته ، ومسائلته عن أوجه الصرف ، إلا أن الدوق أخذ على مر السنين يتحرر تدريجيا من تلك السلطة ، ويستقل عنه (١) * .

أما فيما يختص بالدوقات اللومبارديين ، فقد حكموا مناطق اقليمية بايطاليا ، لا تزيد فى مساحتها عن الولايات الرومانية القديمة Civitates (٢) * . ويرى المؤرخ هودجين أن الدوق اللومباردى كان فى الأصل زعيما حربيا على قبيلته ، وأحيانا كان من سلالة ملوك القبيلة الأوائى ، ولكنه نزل الى مرتبة الدوق عندما فقدت قبيلته استقلالها ، واندمجت فى وحدة أكبر منها ، وكان يتم اختياره بالانتخاب أو القرعة ، ونظرا لنفوذه القوى ، فقد حرص دائما على أن يجعل الدوقية وراثية فى عائلته من جهة ، وسعى الى التخلص من قيد التبعية الذى يربطه بالملكية من جهة أخرى (٣) * . وقد روعى عند اختيار الدوق ثلاثة عوامل لا بد منها ، وهى نبالة المولد ، ورغبة الأهالى ، واردة الملك ، بيد أنه اذا كان الملك صاحب السيادة العليا على الدوق ، إلا أننا من الناحية العملية لا نجد أثرا لتلك السيادة فى معظم الأحوال (٤) * . ويمكن القول أن نفوذ الدوقات قد تراوح بين الموظفين المرعوسين وصغار الملوك المستقلين ، تبعاً لما يعديه من قوة وصلابة (٥) * .

(1) Dudden, op. cit., I, p. 183.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées de l'Empire en Occident, p. 127.

(3) Hodgkin, op. cit., V, pp. 182-183.

(4) Poupardin, Etude sur les Institutions politiques et Administratives des principautés Lombardes de L'Italie Mericlionale, p. 8.

(٥) موسى : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

فعلى سبيل المثال ، فشل دوقات الشمال الايطالى فى الاستقلال بدوقياتهم ،
لقربهم من السلطة الملكية فى بافيا ، التى أوقفت طموحاتهم وأبقتهم
خاضعين لسيطرتها ، فى حين نجحت دوقيتا سبوليتو وبنفنتوم البعديتين
فى الجنوب الايطالى فى الاستقلال عنها ، ولعل أبسط دليل على ذلك ، اللقب
الذى اتخذته دوق سبوليتو لنفسه ، وهو « دوق الشعب اللومباردى » *
Dux gentis Longobardorum ، فى الوقت الذى صار دوق بنفنتوم سيدا على
دوقيته بالوراثة (١) * وأكثر أهمية من ذلك ، أن سلسلة القلاع والحصون
البيزنطية الواقعة على الطريق الفلامينى الشهير ، الذى ظل فى جيزة
البيزنطيين فترة طويلة ، قد ساعدت على استقلال دوقيتى سبوليتو
وبنفنتوم ، وجعلت منهما حكومتين صغيرتين فى وسط ايطاليا وجنوبها ،
ذلك أنها شكلت حاجزا بينهما وبين النصف الشمالى من المملكة
اللومباردية ، وعلى النقيض من ذلك كان وضع الدوقيات فى الشمال
الايطالى ، إذ لكونها هدفا مباشرا لهجمات مملكة الفرنجة ، فقد اضطرت
الى الدخول فى طاعة الملوك اللومبارديين (٢) ، وكيفما كان الأمر ، ففى
مرات نادرة اعترف دوقا سبوليتو وبنفنتوم بالسلطة الملكية فى بافيا ،
ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ، أن الملك ليوتبراند (٧١٢ - ٧٤٤) استطاع
أن يكسر شوكتهم ويفرض عليهما طاعته ، ولكن بعد موته بأقل من سنتين
استعاد دوق بنفنتوم كل مظاهر استقلاله ، حتى أن الملك راتشيس الذى
خلف ليوتبراند ، اعتبر هذه الدوقية بمثابة بلد أجنبى لا يمت لـه
بصلة ، كذلك حاول ديسيدريوس أن يحذو حذو ليوتبراند فى السيطرة على

(1) Villari, op. cit., II, pp. 301-202.

(2) Orton, Outlines of Med. Hist., p. 104; Mann, The Lives of the Popes, I, p. 13.

دوقاته ، بيد أنه بعد أن أحرز بعض النجاح ، اضطر الى إيقاف جهوده بسبب الغزو الفرنجى لمملكته ، كما أنه بعد أن اقتلع شارلمان المملكة اللومباردية من الوجود فى سنة ٧٧٤ ، لم يعترف دوق بنفنتوم بسيادته فحسب ، بل أطلق على نفسه لقب « أمير اللومبارديين » ، وفى النادر البعيد « أمير بنفنتوم » (١) .

وجدير بالذكر ، أن نفوذ الدوقات اللومبارديين فاق الى حد بعيد ، نفوذ أقرانهم فى الملكيات الجرمانية الأخرى فى أفريقية وأسبانيا والغال ، فقد كان دوقات الغال فى القرنين السادس والسابع مجرد موظفين تابعين للتاج الفرنجى ، على عكس الدوقات اللومبارديين الذين عارضوا السلطة الملكية منذ قيامها (٢) كما رأينا .

وقد اتصف الدوقات اللومبارديون البالغ عددهم حوالى خمسة وثلاثين دوقاً بالخشونة والعنف ، والميل الى أحداث الفتن والفوضى ، وتبادل العداء والشقاق فيما بينهم ، وقد اعتمدوا فى معيشتهم على الغارات الناهبة ضد جيرانهم البيزنطيين ، وعلى انتزاع المضرائب من رعاياهم ، الأمر الذى جعلهم عقبة كأداء فى طريق وحدة الشعب اللومباردى وتماسكه (٣) .

ويمكن القول أن سلطة الملك اللومباردى فى القرن السابع ، كانت من الناحية الملكية أشبه ما تكون بسلطة ملك فرنسا فى القرن العاشر ، وإمبراطور ألمانيا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (٤) . ففى فرنسا انهارت السلطة الملكية ، واحتدمت المنازعات بين الأمراء ، بسبب الغزوات

(1) Poupardin, op. cit., pp. 8-9.

(2) Lot, The End of the Ancient World, p. 291.

(3) Dudden, op. cit., I, p. 170; Thompson, op. cit., I, p. 171; Hulme, op. cit., p. 160.

(4) Lot, op. cit., p. 291.

التي اجتاحت أوروبا في القرنين التاسع والعاشر ، وما نجم عنها من فوضى عمت غرب أوروبا ، دفعت صفار الملوك الى البحث عن قوة تحميهم ، فلم يجدوا أثرا للقوة الملك وسلطته ، الأمر الذي دفعهم الى الارتباط بالكونت أو الأمير المحلي لحمايتهم ، وهكذا لم ينته القرن العاشر إلا وكان النظام الاقطاعي قد ثبت لقدمه فيها ، وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا (١) . أما في ألمانيا ، فقد انتهز كبار الأمراء فرصة انصراف الملوك الى النزاع مع البابوية ، ليدعموا سلطانهم ، مما أدى الى ازدياد شدة التيار الاقطاعي في ألمانيا ، على حساب الملكية ونفوذها (٢) .

ولعل أبرز ظاهرة نلمسها في تاريخ الملكية اللومباردية ، هي فترة الشغور التي استمرت عشر سنوات (٥٧٤ — ٥٨٤) ، والتي لا نجد لها نظيراً في الممالك الجرمانية الأخرى ، مثل القوط الغربيين والفرنجة . وقد سبق أن رأينا أن الفوضى بلغت مداها إبان هذه الفترة ، ولولا تهديد مملكة الفرنجة بغزو الأراضي اللومباردية ، وخشية أن تقوم بيزنطة بعمل عدائي ، لما فكر الدوقات اللومبارديون في وضع حد لتلك الفوضى ، وبالتالي حتمية وجود ملك على العرش يحافظ على كيانه ومصيرهم (٣) . ولهذا اجتمعوا وقرروا انتخاب أوثاري للمنصب الملكي ، في الوقت الذي تنازلوا له عن نصف أملاكهم الدوقية ، حتى يستطيع أن يواجه متطلبات هذا المنصب ، وقد عهد أوثاري بإدارتها الى وكلائه المعروفين باسم الجستالدي gastaldi (٤) .

ومن المعروف أن هؤلاء الجستالدي كانوا يمثلون الملك اللومباردي

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، د ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق . د ١ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

(٣) Gregory of Tours, Hist. of the Franks, I, p. 180.

(٤) Lot, Pfister & Ganshof, Les Destinées., pp. 227-228; Thompson, op. cit., I, p. 171.

في المدن والدوقيات ، وهو الذي يعينهم ويعزلهم حسب مشيئته ، وقد انحصرت واجباتهم في رعاية مصالح الملك ، وبوجه خاص الأراضي الملكية ، ومراقبة الدوقات ، كما أنهم بمقتضى السلطة المخولة لهم عملوا قضاء وقادة عسكريين (١) ، وعهد اليهم بمهمة الحفاظ على الأمن ، وإبعاد المجذومين ، والقبض على الهاربين (٢) . وقد حاول الملوك دوماً أن يزيحوا من أعداد الجستالدي في أنحاء المملكة ، كأفضل وسيلة لتقوية نفوذهم ، وإضفاء طابع الوحدة السياسية عليها ، وفي ذات الوقت للحد من نفوذ الدوقات ، ولهذا فضلوا أن يضجعوا على رأس الأقاليم الجديدة ، التي يتأتى لهم الاستيلاء عليها من البيزنطيين أو الدوقات الثائرين ، جستالدي بدلاً من الدوقات . ومع ذلك ، عجزت السلطة الملكية عن كبح جماح الدوقات ، وبوجه خاص الكبار منهم ، الذين حاكوا الملك في بلاطه واختصاصاته ، ومارسوا شئون العدالة ، وقادوا القوات العسكرية في دوقياتهم ، بل منهم من تولى القيادة العامة للجيش اللومباردي أو بعض قواته ، كما زخر بلاطهم بمختلف الموظفين لممارسة الشئون الإدارية والقانونية ، وقتلوا الملوك في اتخاذ حاشية لرافقتهم وهي المعروفة باسم الرفساق *gasindi* ، وحاجب *cubicularius* ، وأمين خزانة *stolesaz* وجستالدوس (٣) .

وكانت بافيا — وهي عاصمة المملكة اللومباردية — المقر الدائم لإقامة الملك وأسرتة وحاشيته وكبار موظفيه . وهناك نلاحظ أن البلاط الملكي اللومباردي *sacrum palatium* قد تميز بالبساطة والبعد عن التعقيد في بداية استقرار اللومباردين بإيطاليا ، على أنه بعد أن تأثروا بالحضارة البيزنطية ، انتهج ملوكهم نهج البلاط البيزنطي في طابعه وتقاليده . وقد

(1) Villari, op. cit., II, p. 103.

(2) Paul the Deacon, Hist. of the Lombards, p. 87, n. 2.

(3) Villari, op. cit., II, 103.

تألف البلاط اللومباردي من بعض الشخصيات المنحدرة من أصل جرمانى ، وبعض الرومان الذين التحقوا بخدمة الملوك ، وملأوا مكاتب القصر ، أما الموظفين الكبار الذين كانوا فى خدمة الملك فهم : قديم المراسيم والتشريفات المعروف باسم المارشال ، وعمدة القصر ، وأمين الخزانة ، وحامل السيف ، وحامل القرس والمستشارون ، والرفقاء Comites المكلفون بمهام السفارات ، والى جانب ذلك ، الجهاز الادارى الذى ضم عددا من الكتبة ، برئاسة نبيل لومباردي (١) .

والجدير بالذكر ، أن اللقب الذى حملته الملوك اللومبارديون منذ البداية ، هو « ملك الشعب اللومباردي » وهذا يعنى أن شعبهم اختلف دوماً فى وضعه القانونى عن سكان ايطاليا الرومان (٢) . وباعتلاء أوثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) العرش ، خلع التدوقات عييه لقب فلافيوس Flavius الذى حملته خلفاؤه من بعده . ولا شك أن الغرض من هذا اللقب — كما أسلفنا — هو ربط أوثارى بذكرى أمجاد الأسرة الفلافية ، باعتباره خليفة الأباطرة الرومان العظام ، فى الوقت الذى يجذب اليه ود رعاياه الرومان واللومبارديين جميعا (٣) . أضف الى ذلك ، أن الملوك اللومبارديين لم يبرحوا قادة حرب فحسب ، بل حراسا للسلام وسدنة للعدالة Justiciars (٤) .

وصفوة القول ، أن الملوك اللومبارديين رغم أصلهم النبيل ، وصفاتهم الشخصية البارزة ، وشجاعتهم فى الحروب ، افتقدوا فى الواقع الى أسس فن الحكم (٥) . ذلك أن المنازعات الدائمة بينهم وبين كبار

(1) Kleinclausz, Charlemagne, p. 17; Lot, The End of the Ancient World, p. 294; Lot, Les Invasions., p. 282; Deanesly, A Hist. of Early Med. Europe, p. 254.

(٢) موسى : المرجع السابق ، ص ٣٣ — ٣٣٤ .

(3) Lot, Pfister & Ganshof, p. 227.

(4) Deanesly, A Hist. of Med. Europe, p. 254.

(5) Dudden, op. cit., I, p. 170.

الدوقات ، وما تبعها من ثورات مستمرة ، أنهت حياة الكثير منهم نهاية عنيفة ، كل ذلك أدى الى بعثرة قوى المملكة ، وأعاق ملوكها عن مواصلة الحكم بحزم وصلابة ، ولهذا فبعد ما يزيد عن قرنين من السيطرة والعنف ، فشل اللومبارديون في جعل إيطاليا جرمانية ، وانتهى الأمر برومنتهم ، واندماجهم في الشعب المغلوب (١) .

الديانة :

عرفت القبائل الجرمانية في مواطنها الأصلية بوثنيتها ، المثلة في خليط من الأساطير وعبادة قوى الطبيعة ومظاهرها ، مثل الكواكب والنجوم والشمس والرعد والبرق والأشجار والتلال وغيرها ، وفي خلال هجراتها وتجوّلها من مكان الى آخر ، تعرفت على الديانة المسيحية بمذهبها الآريوسى ، مخالفة بذلك جميع سكان الجزء الغربى من الامبراطورية الكاثوليك .

وترجع معرفة اللومبارديين بالديانة المسيحية بمذهبها الآريوسى خلال اقامتهم في بانونيا على أيدي البعثات التبشيرية الآريوسية ، وإن كنا لا نستطيع أن نحدد البداية التاريخية الفعلية لذلك . وعندما انتالوا على شمال إيطاليا غزاة فاتحين كانت غالبيتهم مسيحية ، والمثلة الباقية وثنية . ومن الملاحظ أن آريوسيتهم خلال الموجة الأولى من الغزو ، أوجدت هوة سحيقة بينهم وبين سكان إيطاليا الكاثوليك (٢) . وقد أجمع المؤرخون على أنهم منذ اللحظة الأولى أظهروا كرههم للكنيسة الكاثوليكية ، التى بدت في نظرهم مؤسسة رومانية ، ولهذا لم يتورعوا عن العبث بالكنائس والأديرة ، باستثناء دير واحد بقى سليما من عبثهم ، وهو دير سانت مارك فى سبوليتو ، ولم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل ضابقوا

(1) Villari, op. cit., II, p. 302.

(2) Webster, Hist. of Civilization, pp. 370-380; Lot, Pfister & Ganshof, p. 211.

الأساقفة والرهبان ، وألحقوا الأذى بهم ، مما أدى الى انسحاب أساقفة
أكويليا وميلان الى جاردو وجنوة ، وقد حذا حذوهم رهبا نديرمونت
كاسينو ، إذ تمكنوا من الافلات من وحشية زوتو دوق بنفنتوم ، عندما
قام بهدم هذا الدير حوالى سنة ٥٩٠ ، ولجأوا الى روما حاملين معهم
مخطوطة نظامهم الرهبانى (١) . ومهما يكن من أمر ، فان ما أنزله
اللومبارديون على مخالفينهم فى العقيدة ، لا يدانى موجة الاضطهاد العنيفة
التي مارسها الوندال مع رعاياهم الكاثوليك فى أفريقية (٢) .

وقد ظل اللومبارديون على أريوسيتهم ، الى أن اعتلى جريجورى
العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) كرسى البابوية ، فوجه عنايته الى نشر الكاثوليكية
بينهم ، واعادة الكنائس والأديرة التي أصابها الغزو اللومباردى بالتلف
والتدمير الى ما كانت عليه (٣) . والواقع أنه منذ الأيام الأولى لبابويته
أنفذ رسالة الى جميع أساقفة ايطاليا ، يطلب اليهم أن يعذبوا قصارى
جهدهم لتحويل اللومباريين عن الأريوسية ، قائلا : « بكل ما تستطيعون
من قوة ، أسرعوا بهم الى العقيدة الصحيحة ، وبشروهم دون انقطاع
بمملكة الله » . ومما ساعد على انتشار الكاثوليكية بين اللومبارديين
انذاك ، ضعف كنيستهم التي تميزت بقلّة أعداد رجالها وضحالة ثقافتها
من ناحية ، وتشجيع البلاط الملكى للكاثوليكية كما حدث بين الفرنجة
منذ قرن من ناحية أخرى (٤) . وهنا نلاحظ أن هذا البلاط قد استغرق
وقتا طويلا فى تحوله الى الكاثوليكية ، على عكس نظرائه فى الغال وبورجنديا

(1) Mann, The Lives of the Popes, I, p. 12; Wallace-Hadrill, Italy and the Lombards. From the Barbarian Invasions. ed. by Kathrine Fisher, p. 59.

(2) Hodgkin, op. cit., V, p. 157.

(3) Lot, Pfister & Ganshof, op. cit. p. 215.

(4) Lot, The End of the Ancient World, p. 289.

وأسبانيا ، إذ تحول كلوفيس الفرنجى الى الكاثوليكية فى نهاية القرن الخامس ، وسيجسموند اليورجندى فى بداية القرن التالى ، وريكارڊ ملك القوط الغربيين فى سنة ٥٨٩ ، أما الملوك اللومبارديون ، فلم يتحولوا إلا فى القرن السابع ، وذلك بفضل ملكتهم ثيوديلندا الكاثوليكية (١)

والحق أن ثيوديلندا أثبتت بأعمالها أنها كانت أعظم سيدات البيوت الملكية التى شهدها القرن السادس • إذ يكفى أنها حازت إعجاب قومها والرومان أعدائهم الثقيليين سواء بسواء ، وساد شعور طيب بينهما من خلال شخصيتها المتألقة المحبوبة • والمعروف أنها ابنة جاريبالدى البافارى ، وترتبط من ناحية أمها بوالنتارى آخر ملوك عائلة ليثنج اللومباردية القديمة • ولما كانت زوجة للملك أوثارى ومن بعده لأجيلولف وأم للملك ثالث ، فقد سيطرت على مقدرات شعبها ، الذى رأى فيها ملهمته الفريدة لفترة تزيد عن ربع قرن ، حتى أن اسمها بعد وفاتها ظل محفورا فى ذاكرته واحترام ، ولا زالت ذكراها حية فى مدينة مونزا حتى يومنا هذا (٢) •

ويصرف النظر عن أنها كانت ملكة وسليبة بيت ملكى ، فالمهم أنه بفضل نفوذها وشخصيتها ، غيرت من رؤية زوجها الثانى أجيلولف للكاثوليكية ، على عكس زوجها الأول أوثارى ، الذى استمات فى التمسك بعقيدة قومه الآريوسية ، وأصدر مرسوما فى سنة ٥٩٠ ، منع بموجبه رعاياه من التعميد على المذهب الكاثوليكي كما رأينا ، ولكنه توفى قبل أن يمر عام على صدوره ، الأمر الذى اعتبره البابا جريجورى العظيم عقابا إلهيا ، ويقال أن أجيلولف قد اعتنق الكاثوليكية قبل وفاته ، وأن كان لا يتوفر أى دليل على صحة ذلك (٣) • على أنه من الثابت أنه سمح

(1) Lot, Les Invasions Germaniques, p. 283.

(2) Dudden, op. cit., II, pp. 5-6.

(3) Mann, op. cit., I, Part I, pp. 170-171.

لزوجته ثيوديلندا بتعميد طفلها أداوالد على المذهب الكاثوليكي في سنة ٦٠٤ ، وهي خطوة باركها جريجورى وتهلل لها فرحا ، وهو راقد على فراش الموت (١) .

وكيفما كان الأمر ، فقد شهدت الفترة التي قامت فيها ثيوديلندا بالوصاية على ابنها وحكمت المملكة باسمه (٦١٦ - ٦٢٦) ، ارتفاع شأن الكاثوليكية بين قومها الى حد كبير ، خاصة أنها وجدت في شخصية كولومبان Columbanus (حوالى ٥٤٣ - ٦١٥) نصيراً عظيماً وقف الى جانبها . وكان كولومبان قد خرج من دير في بلغاست بأيرلندا متوجها الى مملكة الفرنجة ، حيث نجح في محاربة بقايا الوثنية ، ومنها عرج على ايطاليا بصحبة اثني عشر من رفاقه بغرض القضاء على الآريوسية في الأقاليم اللومباردية (٢) . وقد لعب كولومبان دوراً فعالاً في تحويل اللومبارديين الى الكاثوليكية ، وعنى بنشر الثقافة الرومانية بينهم ، كما شيد بموافقة ثيوديلندا ديراً في بوبيو Bobbio على النظام البندكتى (٣) . و جدير بالذكر ، أن ثيوديلندا شيدت العديد من الكنائس ، وأصلحت ما تهدم منها ، ودأبت على منحها هبات سخية ، وقد سارت ابنتا جندبرجا على خطاها ، فشيدت كنيسة في بافيا زينتها بالذهب والفضة ، وهبتها للقديس يوحنا المعمدان (٤) .

على أن الآريوسية في الواقع بعد وفاة أداوالد ، لم تعدم أنصاراً لها من بين الملوك اللومبارديين ، فقد عرف خلفه أريوالد (٦٢٦ - ٦٣٦) ، ومن بعده روثارى (٦٣٦ - ٦٥٢) ، وجريموالد (٦٦٢ - ٦٧١) ، بحماسهم الآريوسى الشديد (٥) . غير أنه باعثلاء بركتاريت العرش سنة

(1) Paul the Deacon, p. 170.

(2) Ibid, pp. 191-192.

(3) Deanesly, A Hist. of the Medieval Church, p. 37.

(4) Paul the Deacon, op. cit., pp. 201-202.

(5) Lot, op. cit., p. 283; Orton, op. cit., p. 105.

٦٧١ ، أخذت الآريوسية تلفظ أنفاسها الأخيرة ، إذ راح يشجع قومه على بناء الكنائس والأديرة ورحب بالبعثات التبشيرية الرومانية لنشر الكاثوليكية (١) . وكان أن خرجت الكاثوليكية ظافرة في صرعها مع الآريوسية في عهد الملك كونبرت (٦٨٨ - ٧٠٠) ، فقد انعقد مجمع كنسى في بافيا سنة ٦٩٨ ، وافقت الحكومة اللومباردية بمقتضاه على اتخاذ الكاثوليكية مذهباً رسمياً لها (٢) . وهنا نلاحظ أن ليوتبراند كان أشد الملوك حماساً للكاثوليكية ، فقد ابتنى العديد من الكنائس والأديرة ، وهو أول ملك لو مباردي أقام لنفسه كنيسة صغيرة في قصره (٣) .

والحقيقة التي لا مراء فيها ، أن تحول اللومبارديين الى الكاثوليكية ابتداء من منتصف القرن السابع ، قد هدم الحاجز الذي كان يفصلهم عن رعاياهم الرومان ، وبعبارة أخرى جعل العلاقة بين الجانبين بمثابة نهر ينساب في هدوء ويسر . ومع ذلك ، لم ينج اللومبارديون من عقدة العداء المتأصل في الكنيسة الغربية نحوهم . والواقع أن هذا العداء أوجده الوضع السياسى المتناقض في ايطاليا آنذاك ، فالبيزنطيون لم تبرح جذورهم حية في ايطاليا ، في الوقت الذى تمكن البابوات من تشييد بنائهم السياسى ، ولم تغد لديهم الرغبة في النزول الى مجرد أساقفة ايطاليين ، وعلى هذا تحالفت روما وبيزنطة دفاعاً عن وجودهما ضد المملكة اللومباردية ، وقاما بالتصدي لها (٤) .

الجيش اللومباردى :

آمن المجتمع الجرمانى بمبدأ الشورى في تصريف أموره مهما قل شأنها . ففيما يتعلق بالأمور الصغيرة التى تحتاج الى حل سريع ، يقتصر

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 63.

(2) Lot, op. cit., p. 105.

(3) Paul the Deacon, pp. 303-304.

(4) Orton, op. cit., p. 102.

الأمر على اجتماع يحضره زعماء العشائر للتشاور ، أما بالنسبة للأمر الخطيرة مثل اعلان الحرب أو اقرار السلام ، كان لزاما أن يجتمع الشعب الجرمانى كله ، كى يأخذ ما يصل اليه من قرار صفة الاجماع . ولكن هذا التقليد الذى اتبعه الجرمان فى مواطنهم الأصلية ، نالته يد التغيير عندما غادروا هذه المواطن ، وأسسوا ممالكهم على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، ذلك أن ملوك الجرمان النجدد مثل الفرنجة فى الغال أو اللومبارديين فى ايطاليا ، صاروا وحدهم أصحاب الحق فى رفع راية الحرب أو السلام ، وفق رغبتهم الخاصة (١) .

ومن المعروف أن الشعب اللومباردى كان محاربا بطبيعته ، وكانت الحرب بالنسبة له أحد التقاليد الراسخة المرتبطة بالطقوس الدينية الى أبعد حد . ولهذا عندما فرض حصاره على بافيا فى سنة ٥٦٨ ، واستعصت عليه فى البداية ، أقسم أن يقتل سكانها الرومان ، حيث كان من الطبيعى أن يضجى بهم تقربا لآلهته ، ولكنها بعد أن استسلمت عدل عن عزمه ، بحجة أنهم مسيحيون . ويعطينا ليوتبراند مثلا آخر عن حياة هذا الشعب القائمة على الحرب ، إذ اعترف صراحة أنه لا يستطيع أن يستأصل غريزة الحرب من شعبه ، ومع ذلك ، فاللومبارديون مثل بقية الشعوب الأخرى ، كان لديهم مفهوم واضح عن السلام (٢) .

وأول ما نلاحظه على الجيش اللومباردى ، أنه ارتكز أساسا على الخدمة العسكرية الاجبارية ، إذ لم يكن ثمة مكان للجنود المرتزقة فى صفوفه ، وتبعاً لذلك وجب على كل لومباردى حر قادر على حمل السلاح أداء الخدمة ، حيث لم تكن الحكومة فى وضع يسمح لها بأن تدفع للجنود النظاميين من خزينتها (٣) . ثم حدث تطور هام فى تنظم هذا الجيش فى القرن

(1) Dill, Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 113.

(2) Wallace - Hadrill, Sarly Medieval Hist., p. 22.

(٣) هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية ، ترجمة جوزيف نسيم

لويس ، ص ١٠٤ .

القرن الثامن ، إذ أصدر الملك استولف قانوناً في سنة ٧٥٠ ، صارت الخدمة العسكرية بموجبه خاضعة للملكية الأرض ، ونتيجة لذلك وجب على كل مالك حر أداء الخدمة العسكرية للملك عند الاستدعاء وعلى نفقته . وبمعنى آخر ، التزم كل مالك من طبقة الأحرار الأريمانى *arimanni* يحوز أربعين أربنت *arpents* (١) من الأرض بتأدية الخدمة على صهوة حصانه ، مجهزاً بسيف ودرع وبدلة مزودة ، أما من يملك أقل من ذلك ، فعليه أن يسارع للخدمة بجواده مزوداً بدرع وقوس فقط . ومما تجدر الإشارة إليه ، أنه كان بوسع الملك الرومانى أن يؤدي الخدمة العسكرية في صفوف الجيش اللومباردى ، مثله مثل المحارب اللومباردى الأريمانى ، الأمر الذى نستدل منه على أن خدمة السلاح من ناحية المبدأ ، قد فرضت على الجميع (٢) .

ونلاحظ أيضاً أن الجيش اللومباردى اعتمد في تشكيله أساساً على الفرسان (الخيالة) ، على غرار الشعوب الجرمانية التى عاشت في منطقة وسط الدانوب . ويظهر ذلك بوضوح في أساطيرهم المبكرة ، وعند ظهورهم على مسرح الأحداث التاريخية على حد سواء . وقد رأينا من قبل أن جستنيان قد سمح لقائده القدير نارسييس بالاستعانة باللومبارديين في حروبه ضد القوط الشرقيين في إيطاليا ، فأرسلوا إليه ألفين وخمسمائة فارس من أصل نبيل ، وبرفقتهم ثلاثة آلاف فارس من التابعين لهم . بيد أنهم حاربوا في صفوف المشاة في موقعة تادينوى ، التى انتهت بسحق القوط الشرقيين سنة ٥٥٢ ، تنفيذا لأوامر نارسييس الذى أراد أن يدعم وسط جيشه بأقوى فرقه البربرية المساعدة (٣) . أما فيما يتعلق بالتجهيزات الحربية للفارس اللومباردى ، فقد كانت الخوذة والصديرية المزودة ، فضلاً عن أغطية الساق *greaves* التى لم تعرفها أكثر

(١) الأرنبت : وحدة قياس طولية قديمة تساوى ٦٣ ياردة وربع تقريبا .

(2) Lot, op. cit., pp. 284-285; Lot, The End., op. cit., p. 294;

Kleinclausz, op. cit., p. 17.

(3) Oman, A Hist. of the Arts of War, I, p. 48.

شعوب غرب أوروبا إلا فيما بعد بثلاثة قرون • وفي الحرب كان فرسان اللومبارديين يهاجمون من على ظهور خيولهم الحربية ، وفي أيديهم الحراب ، ورغم أنهم عرفوا النصل العريض الحد spatha والقوس ، إلا أن الحربة الضخمة Contus كانت السلاح الرئيسي الذى استخدموه • وعلى أية حال ، احتلت الخيل مكانة هامة فى حياة اللومبارديين ولا سيما فى القتال ، حتى أن قوانينهم زخرت بالاشارات العديدة اليها ، بصورة تفوق ما جاء فى قوانين الشعوب الجرمانية الأخرى (١) •

والمعروف أن الملك اللومباردى كان القائد الأعلى للجيش اللومباردية ، فإذا أعلن أوامره بالتعبئة لحملة حربية ، وحدد ساعة انطلاقا ، وجب على الجميع الانصياع لأمره ، وتبعاً لذلك يتوقف الدائنون عن مطاردة مدينهم بمجرد التحاقهم بالحملة الحربية ، حتى اليوم التالى من تسريحهم وتفرقهم الى بلادهم ، أما أولئك الذين تراخوا فى الاستجابة لنداء الملك أو تقاعسوا عن تأدية الخدمة الحربية ، فقد كان ذلك من الأمور الخطيرة التى تستوجب ائزال عقوبات شديدة عليهم ، كما فرضت اجراءات رادعة ضد الموظفين الذين يعفون القادرين على القتال من أداء الخدمة الحربية ، أو يتسترون عليهم (٢) •

وجدير بالذكر ، أن جبال الألب المنيعه الواقعة فى شمال المملكة لعبت دوراً هاماً فى الدفاع عن الأراضى اللومباردية • إذ كانت بمثابة سور ضخم طبيعى يفصلها عن جارتها مملكة الفرنجة • ولا ريب أنه كان من المتعذر على أى جيش أن يخترق تلك الجبال إلا عن طريق ممراتها الاستراتيجية الشهيرة ، التى أطلق عليها وبصفة خاصة ممرى سانت برنارد ومونت سيني ، اسم «Clauses» •

(1) Ibid, I, pp. 48-49.

(2) Kleinclausz, op. cit., p. 17.

ومما يشهد بأهمية تلك المرات ، أن اللومبارديين أحكموا الرقابة عليها ، ليحولوا دون وصول عدوهم من خلالها الى أراضيهم • وتبعاً لذلك عهدت الحكومة اللومباردية الى ضباط أطلق عليهم Clusarii ، بمهمة مراقبتها في أوقات السلم والحرب • إذ كان محظورا على أى حاج أوربى مسيحي في طريقه الى الأراضى المقسة ، أن يعبر تلك المرات دون الحصول على تأشيرة دخول من قبل أولئك الضباط ، وكذلك لم يكن بوسع أى لومباردى عبورها دون الحصول على تأشيرة خروج من السلطات اللومبارية ، أما في أوقات الحرب ، فقد دأبت الحكومة اللومباردية على ارسال قوات عسكرية لحراستها وحمايتها (١) •

رومنة اللومبارديين :

وإذا كتبنا قد تعرضنا في مناسبات سابقة الى أن اللومبارديين كانوا أعنف الشعوب الجرمانية وأشدّها ضراوة ، وحسب ما لقينته ايطاليا على أيديهم من دمار وخراب وسفك دماء خلال غزوهم لها ، فالحقيقة أنهم لم يستمروا على هذا الوضع طويلا • وبمعنى آخر ، أخذت عداوة اللومبارديين تجاه الرومان في الانحسار تدريجيا على مر السنين ، الى أن تم التقلّص والتفاعل الحضارى بينهما في النهاية • على أنه اذا كانت القاعدة التاريخية المعروفة أن الغالب يفرض حضارته وتقاليده على المغلوب ، فإن هذه القاعدة لم تنطبق على الشعب اللومباردى ، الذى فاق بقية الشعوب الجرمانية في بدائيته وبساطته ، وفي ضالّة ما يمكن أن يقدمه في مضمار الحضارة ، ومن هنا فإن ما حدث هو العكس ، فاللومبارديون هم الذين تأثروا بالحضارة الرومانية بعد استقرارهم ، واصطبغوا بصبغتها •

وغنى عن القول ، أنه منذ أن دخل اللومبارديون ايطاليا ، الى أن تدخل الفرنجة في شئونهم ، وما تبع ذلك من انهيار دولتهم ، كانوا

(1) Ibid, p. 18.

قد استقروا في قطر متشبع بالميراث الروحي والمادى لحضارة البحر المتوسط لحقبة تربو عن قرنين من الزمان ، وهى حضارة يرجع تاريخها الى ما يزيد على الألف سنة ، لا شك أنها لعبت دورا خطيرا في التأثير عليهم ، فغيرت من أساليب معيشتهم وتقاليدهم الى حد بعيد (١) .

ويأتى في مقدمة العوامل التى ساعدت على رومنة اللومبارديين أو طبعهم بالطابع الرومانى ، ما تميزوا به من ضالكة في العدد بالنسبة لسكان ايطاليا ، شأنهم في ذلك شأن الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليا من قبل ، إذ لم يزد عدد أى منها عن مائة ألف نسمة ، بما فيهم الرجال والنساء والأطفال ، ونتيجة لذلك ، ظل اللومبارديون بمثابة جزيرة طافية وسط محيط واسع من الرومان (٢) . وقد رأينا من قبل أن اللومبارديين عندما غزوا شمال ايطاليا في سنة ٥٦٨ ، لم يأتوها وحدهم ، بل انضوت تحت جموعهم قبائل جرمانية أخرى ، كان أبرزها قبائل السكسون ، التى لم تلبث أن غادرت ايطاليا عائدة الى بلادها ، الأمر الذى أدى الى اضعاف قوة اللومبارديين العدديّة (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن التأثير الحضارى الرومانى يعكس سماته بوضوح على هيئة اللومبارديين وثيابهم . ففى صفحات كتاب بولس التى سطرها عن تاريخ قومه خلال النصف الأخير من القرن الثامن ، يستفاد أن ثياب أسلافه التى كانوا يرتدونها عند ظهورهم بايطاليا وهم في حالة بدائية من الحضارة ، قد صارت من عجائب التاريخ ، وأنه لم يعرفها إلا من صور مناظر قومه البطولية التى أمرت الملكة ثيوديلندا حوالى سنة ٦٠٠ بتسجليها على جدران قصرها الذى شيدته في مونزا (٤) . ويعبر

(١) موس : المرجع السابق ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

(2) Lot, Les Invasions., p. 292.

(3) Ibid, pp. 283-284.

(4) Dudden, op. cit., II, pp. 5-6;

— موس : المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

بولس عن هذا بقوله : « شيدت الملكة ثيوديلندا قصرا في مونزا حوالى سنة ٦٠٠ ، وأمرت أن تقام بعض الصور التى تمثل حياة اللومبارديين • وتوضح هذه الصور طريقة حلق شعر رعوسهم ، وهىئة ملابسهم وعاداتهم ، إذ كانوا يحلقون شعر مؤخرة الرأس عن آخره من الخلف ، فى حين يتركونه طويلا فى مقدمة الرأس ، ويفرقونه عند النجبة ، فيتهدل على الخدين فى خصل طويلة ، وكانوا يرتدون ثيابا كتانية فضفاضة مزينة بحواشى منسوجة بألوان مختلفة مثل ثياب الأنجلو - ساكسون ، أما أحذيتهم التى انتعلوها فكانت مفتوحة حتى أطراف أصابع القدمين ، وقد شددت برباط مستعرض ، ثم شرعوا فيما بعد فى ارتداء السراويل المضيقة التى جرى تغطيتها بأغطية خشنة من الصوف لمنع تسرب الماء ، وقد نقلوا هذه العادة عن الرومان (١) •

ولم يقف تأثير الحضارة الرومانية فى اللومبارديين عند حد هيتهم وملبسهم ، بل امتد أيضا الى لغتهم الجرمانية • وفى البداية لم تستطع الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليا أن تفرض لغاتها الفظة على الولايات الرومانية لقلتها العددية ، ومن ثم وجب عليها أن تتعلم اللاتينية لغة الغالبية ، كى يتسنى لها حكم رعاياها الرومان ، والقيام بأية اتصالات من شأنها أن تسهل التعامل وتبادل التجارة معهم (٢) • وفيما يتعلق باللمبارديين كانت قلة ضئيلة منهم على دراية باللغة اللاتينية عند ظهورهم بايطاليا • ولكن بعد أن استتب الأمر لهم ، واستقروا فى هذا القطر ، تغيرت أحوالهم تغييرا جذريا • إذ أجبرتهم مطالب الحياة على تعلم لغة السكان الرومان بوصفهم أعظم تمدنا وأرقى حضارة وأكثر عددا • وعلاوة على ذلك ، فقد ترتب على الاختلاط والمصاهرة بين الجانبين ذوبان اللغة اللومباردية تدريجيا ، ثم اختفاؤها • ذلك أن

(1) Paul the Deacon, op. cit., pp. 166-167; Dudden, op. cit., I, p. 169; Lot, Pfister & Ganshof, op. cit. p. 227.

(2) Webster, op. cit., pp. 378-379.

تداول ألفاظ ومفردات تلك اللغة الجرمانية كان أمراً مبتذلاً في نظر الطبقات الرومانية الارستقراطية • ولا يغيب عن الأذهان الدور الذي لعبته الكنيسة الكاثوليكية في هذا الصدد ، فما أحدثته من تأثير قوى في النشاط الثقافي ، بما لها من مراكز تعليمية مثل دير بوبيو الواقع في الأراضي الخاضعة لنفوذ اللومبارديين ، أدى الى انتشار اللاتينية بينهم ، كما أن العقود والمستندات القانونية كانت تصاغ دوماً في قالب روماني وبلغه لاتينية (١) ومما يذكر أن اللغة اللومباردية لم تعيش طويلاً مثلما عاشت اللغة اليونانية في كالابريا وصقلية حتى زمن متقدم من العصور الوسطى ، كما لم يكتب لها فترة البقاء التي عاشتها اللغة العربية في صقلية ، التي جاءت في ركاب الأغلبة من شمال أفريقية في القرن التاسع (٢) • وصفوة القول ، أن اللغة اللاتينية الدارجة في إيطاليا *Lingua Romana* حلت محل اللغة اللومباردية في التداول ، ومع ذلك ظلت الأخيرة حية على ألسنة البعض في أنحاء متفرقة من إيطاليا حتى القرن العاشر ، مما آذن باختفائها تماماً (٣) •

وعلى أية حال ، لم يكن بوسع اللومبارديين أن يتجنبوا الاتصال والاختلاط بجيرانهم ورعاياهم الرومان • ذلك أن العلاقات الانسانية تفوق في عمقها وأهميتها مفهوم الجوار العدائي أو الخلافات الحضارية بين الشعبين • وعلى هذا الأساس ، فرضت الأغلبية الممثلة في السكان الأصليين بنيتهما الجسدية على الأقلية الوافدة الممثلة في اللومبارديين ، بعد اختلاط لم يدم إلا بضعة أجيال (٤) • ومما ساعد على ذلك ، أن اللومبارديين قد زحفوا على إيطاليا في صورة هجرة شاملة دون أن يخلفوا وراءهم أثراً في العالم الجرمانى ، على عكس الفرنجة الذين رغم تأثرهم

(١) موس : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ •

(2) Lot, op. cit., p. 291.

(3) Lot, op. cit., p. 283.

(4) Lot, op. cit., p. 292.

بالحضارة الرومانية ، لم يقطعوا صلتهم بالجرمان فيما وراء الراين ، وبالتالي استمر التدفق الجرمانى على مملكتهم ، مما حال دون انصهارهم تماما فى بوتقة الرومان . أضف الى ذلك ، أنه من خلال الزواج بين اللومبارديين والرومان ، نشأ جيل جديد على مر السنين جعلنا لا نفرق بين الشعبين على الاطلاق (١) . ويتمثل ذلك بوضوح فى شمال ايطاليا ، إذ من المعروف أن سكانه يختلفون فى بنيتهم الجسدية عن أهل الجنوب ، الذين تطلب عليهم سمات سكان البحر المتوسط (٢) . وجدير بالذكر أن اللومباردين والبيزنطيين فى ايطاليا كانوا غرباء عنها ، ومع هذا عامل البيزنطيون الرومان معاملة من هم دونهم ، على حين تتزوج اللومبارديون بحرية مع رعاياهم الرومان ، وفى هذا المصدد لم يعترف الملكان المشرعان روثارى وليوثبراند بأية امتيازات بغضه لجنس على آخر (٣) . وليس أدل على ذلك ، من أن القانون اللومباردى رغم حرصه على التمسك بتقاليد اللومبارديين ومؤسساتهم ، قد نص على أن الرومانية التى تتزوج من رجل لومباردى تخضع للقانون اللومباردى ، فى الوقت الذى تصير المرأة اللومباردية بزواجها من رومانى رومانية (٤) .

على أنه اذا كان اللومبارديون قد تأثروا بالحضارة الرومانية تأثيرا فعالا برز واضحا فى اعتناقهم الكاثوليكية ، واتخاذهم اللسان اللاتينى الدارج لغة ، وامتصاص دمائهم بعلائق الترواج ، حتى يمكن القول أن الحضارة الرومانية قد احتوت اللومبارديين ، وألقت بهم فى خضمها الواسع رغم انها كانت آخذة فى الذبول ، فالواقع أن التأثير الحضارى اللومباردى لم يفقد طريقه تماما الى الرومان .

(1) Lot, Les Invasions Germaniques, p. 295.

(2) Cantor, Medieval Hist., p. 146;

— كاتتور : تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٧٤ .

(٣) ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٤٠ .

(4) Lot, The End of the Ancient World, pp. 294-295.

ذلك أن اللومبارديين بعد طول استقرار في إيطاليا اتسعت خلاله دائرة اختلاطهم بالرومان ، قد خلفوا وراءهم آثارهم في أماكن متفرقة من الولايات الرومانية القديمة • وتتمثل تلك الآثار في الصفات الجسدية ، في العيون الزرقاء والشعر الأشقر ، فصلا عن القوانين والعادات (١) ، وفي قليل من الكلمات اللومباردية التي دخلت الإيطالية • ولازال التأثير الحضارى اللومباردى واضحا في أسماء الأماكن والأعلام • إذ لما فتح اللومبارديون إيطاليا كانوا منقسمين الى عشائر صغيرة Farao ، على رأس كل منها دوق قام بوضع يده على إحدى المدن الرومانية والمناطق التابعة لها ، غير أن هذا التقسيم لم يبق على حاله ، وقبل أن يندثر ترك أثره في أسماء المواقع الجغرافية في شمال إيطاليا ، ومن هنا حمل سهل البو اسم لومبارديا حتى وقتنا الحاضر • وإلى جانب ذلك ، بقيت أسماء لومباردية أخرى عديدة في أنحاء مختلفة من إيطاليا ، بل في مناطق لم تخضع مطلقا لنفوذهم السياسى • أما بالنسبة لأسماء الأعلام اللومباردية ، فان بصماتها تبدو واضحة في إيطاليا باستثناء روما ورافنا والبنادقية ، إذ تبناها الرومان ، مع أنهم لم يتبنوا أسماء الأعلام القوطية من قبل ، ومن الأسماء الأعلام اللومباردية التي اقتبسها الرومان على سبيل المثال :

(٣) Azzo, Gunzo, Aribald, Garibald, Ubald, Hildprand.

الرعايا الرومان :

وعند الحديث عن وضع الرومان تحت السيطرة اللومباردية ، نلاحظ أن هذا الموضوع قد عالجه الباحثون باستفاضة ، وفي النهاية توصلوا الى رأيين متباعين تماما • وينحصر الرأى الأول في أن الرومان قد انحدروا الى مرتبة التبعية المطلقة ، في حين يذهب الرأى الآخر الى

(1) Dudden, op. cit., I, p. 80.

(2) Lot, op. cit., p. 291.

أن الرومان قد اختطفوا بحريتهم وقوانينهم ومؤسستهم وبعض ممتلكاتهم في أقل الأحوال ، شأنهم في ذلك شأن الرومان في الغال وأسبانيا (١) .

ويشير المؤرخ ددن Dudden الى أنه بالإمكان أن نخرج بحل وسط من هذين الرأيين المتباعين ، على أساس أن المعلومات التاريخية التي تجعلنا نرجح أحدهما غير كافية . إذ أن المصدر الرئيسى لتاريخ اللومبارديين الذى صنفه بولس الشماس بعد قورنين — على الأقل — من الغزو ، قد اعتمد على قلة قليلة من المعلومات التاريخية ، جعلت وصفه لأحداث قومه الهامة موجزا وناقصا ، علاوة على أنه بالغ في التركيز على أحداثهم المثيرة ، دون أن يهتم بالقضاء الضوء على نظمهم ومؤسستهم وقوانينهم . هذا في الوقت الذى لا نستطيع بسهولة أن نسد هذا النقص في تاريخ بولس من مصادر أخرى . ذلك أن كتابات البابا جريجورى العظيم لا تعطينا إلا النذر اليسير حول هذا الموضوع ، ويأتى دونها في الأهمية ما أورده الحوليات الديرية عن أحداث القرن السابع ، أما سجلات الوثائق الشرعية التى تلقى مزيدا من الضوء على أحوال إيطاليا الاجتماعية في الأزمنة التالية ، اذا جاز لنا أن نطبقها على الفترة التى نحن بصدددها ، فالواقع أن قيمتها تثير الشك . وإلى جانب هذا كله ، فإنه لا يمكننا أن نكشف حقائق هذا الموضوع اعتمادا على نظيره في الممالك الجرمانية الأخرى . إذ أن ظروف الغزو اللومباردى لإيطاليا اختلفت عن مثيلتها في الغال وأسبانيا وأفريقية : ففي الغال وأسبانيا يمكن القول أن مقاومة الرومان للغزاة قد قضى عليها سريعا ، وفي أفريقية ظلت الهوة متسعة بين الرومان والوندال ، وزادتها الخلافات المذهبية

(1) Dudden, op. cit., I, p. 170.

مرارة ، الأمر الذى لا نجد له نظيرا فى إيطاليا اللومباردية ، أما فى إيطاليا ، فلم يحدث أن وضع اللومبارديون أيديهم على جميع أنحائها ، وفى نفس الوقت ظل خطرهم يهدد جيوانهم الرومان فى كل حين (١) .

وهنا نكرر القول أن اللومبارديين إبان انشغالهم بغزو إيطاليا ، قد عاملوا السكان الرومان بقسوة ، إذ لم يكن من شأغل لبرابرة على شاكلتهم وقتذاك إلا الرغبة فى الامتلاك ، وفى سبيل ذلك سفكوا دماء الملوك الأبرياء من الرومان ، ولا سيما أصحاب الثروات والممتلكات الضخمة ، ويكفى أن عهد كليف القصير (٥٧٢ - ٥٧٣) ، شهد مصرع الكثير من نبلاء الرومان ، وابتعاد بعضهم عن إيطاليا ، ولذلك ليس من المبالغة القول أن أعمال العنف التى تعرض لها الرومان ، بلغت حدا جعلتهم يرون أن نهاية العالم صارت وشيكة الوقوع . كما أنه خلال فترة الشغور فى الملكية اللومباردية ، لم يكن لإيطاليا اللومباردية سيذا واحدا ، بل ستة وثلاثون سيذا ، ونعنى بهم الدوقات ، الذين أخذوا يفرضون الضرائب حسب هواهم ، وأمعنوا القتل والتشتيت فى كبار نبلاء الرومان ، وما تبع ذلك من الاستيلاء على أراضيهم ، ونهبوا الكنائس والأديرة وأحرقوها ، وقتلوا الكثير من القساوسة (٢) . على أنه بانتهاء فترة الشغور ، وما حدث من عودة الملكية إلى اللومبارديين ، شهد الرومان جوا من الاستقرار خفف من حدة المتاعب التى عانوها ، الأمر الذى أثار دهشة بولس الشماس ، إذ اعتبر المعاملة الطيبة التى أسبغها قومه على الرومان من الحقائق المذهلة فى تاريخهم : فلم يعد ثمة عنف ولا خيانة ، ولا أحد يرهقهم بابتزازات جائرة ، وتوقف الجار عن سلب جاره ، وخلت المملكة من قطاع الطرق ، وراح كل فرد يؤدى عمله بأمان وطمأنينة وفق رغبته (٣) .

(1) Dudden, op. cit., I, pp. 170-171.

(2) Villari, The Barbarian Invasions, II, pp. 285-286.

(3) Paul the Deacon, op. cit., pp. 114-115; Dudden, op. cit., I, pp. 171.

وجدير بالذكر ، أن وضع الأراضي الزراعية الخاصة بالرومان في إيطاليا اللومباردية ، قد اختلف عما كان عليه أيام القوط الشرقيين . فقد صادر القوط ثلث الأراضي الزراعية الرومانية ، على حين تركوا الثلثين تحت تصرف ملاكها الأصليين ، حيث صار بوسعهم الإبقاء عليها أو بيعها أو منحها في صورة هبة وفق مشيقتهم وبمعنى آخر ، طالما سلم الملاك الرومان ثلث أراضيهم لضيوفهم البرابرة *guests* ، فهم أحرار ومستقلون ، باستطاعتهم زرع بقية أرضهم ، أو الهجرة إلى المدن ، أو الالتحاق بالأديرة ، دون أى اعتراض من قبل القوط الشرقيين ، ولو حدث أن ملك الأرض فضلوا البقاء في أراضيهم ، فلا شك أن القرابة المكانية من شأنها أن توجد جوا مفعما بالود بينهم وبين المستقرين الجدد (الضيوف) لصالحهما معا ، وبناء على ذلك لم يترتب على نظام القوط الضريبي وقوع أعباء جسيمة على المالك الروماني^(١) . ولكن هذا المالك في إيطاليا اللومباردية لم يسلم ثلث أرضه لسيده اللومباردى ، بل تعهد أن يسلمه ثلث ما تغله الأرض من محصول ، في حين يحتفظ لنفسه بالثلثين المتبقين لمواجهة احتياجاته^(٢) ، وفي هذه الحالة لم يعد المالك الروماني حرا ، وبمعنى آخر لم يعد باستطاعته أن يترك أرضه أو يتصرف فيها بالبيع أنى شاء . هذا في الوقت الذى لم يكن بوسعهم أن يعيش عاطلا في أرضه ، إذ كان مضطرا للعمل ليلا ونهارا ، كى يفى بسداد الضريبة العينية المستحقة عليه في موعدها لسيده اللومباردى . وأخلاصة ، أن المالك الروماني صار قنا مقيدا بالأرض تحت السيطرة اللومباردية ، والميزة الوحيدة التى حصل عليها ، تتمثل في أن سيده عجزه عن التلاعب في رفع قيمة هذه الضريبة حسب هواه^(٣) .

وهياك حقيقة هامة يجدر الإشارة اليها في هذا الموضوع ، وهى

(1) Dudden, op. cit., I, pp. 172-173.

(2) Paul the Deacon, pp. 90-91.

(3) Dudden, op. cit., I, p. 173.

أن اللومبارديين كانوا أول الشعوب البربرية التي صاغت قانوناً خاصاً بها كما سنوضح ذلك بعد قليل ، وقد فرضوه على أرجاء مملكتهم دون النظر الى بيزنطة بوصفها صاحبة الحق الشرعى بايطاليا . وفى هذا القانون لم يمنح اللومبارديون رعاياهم الرومان أى امتيازات مثلما فعل ثيودريك ملك القوط الشرقيين من قبل ، كما لم يعترفوا بالقانون الرومانى أو بأية سلطة أخرى فى ايطاليا ، مما أدى الى انتشار فكرة خاطئة مفادها أن الرومان الواقعين تحت وطأة اللومبارديين قد أنزلوا ، ان لم يكن للعبودية المحضة ، الى حالة شبيهة بها على الأقل semi-servitud (١) . وفى هذا الصدد يشير المؤرخ فيلارى الى أن بعض الباحثين قد انتهى رأيهم الى أن الرومان قد انحدروا الى مرتبة العبودية Slavery ، بحجة أن القانون اللومباردى قد فرض دية guidrigid على من يقتل لومباردياً ، فى حين لم يحدد أى عقوبة على من يقتل رومانياً ، الأمر الذى أعطاهم انطباعاً عن اللومبارديين من أنهم لم يقدرُوا حياة الرومان المقهورين ، بوصفهم عبيداً . ويستطرد فيلارى بقوله أنه من الصعب تماماً أن نأخذ بهذا الاستنتاج الخطير ، لأن القانون اللومباردى لم يتناول عقوبة قاتل الرومانى ، إذ ربما يكون قد أغفلها من منطلق ما حدده العرف المألوف ، ومن ثم كانت العقوبة واحدة فى أى من الحالتين (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فإنه من المتعذر إدراك كيف لقى رأى القائل بعبودية الرومان فى ايطاليا اللومباردية قبولا واسعاً لدى بعض الباحثين ، رغم الصعوبات الشديدة التى تحول دون تصديقه . إذ لو حدث أن اللومبارديين قد سلبوا الرومان حريتهم الشخصية ، فكيف لا نجد تسجيلاً لمثل هذا الحدث الهام فى الحوليات والقوانين والوثائق العامة المعاصرة . وإلى جانب ذلك ، من المعروف أن اللومبارديين والبيزنطيين قد تبادلوا

(1) Villari, The Barbarian Invasions, II, p. 296.

(2) Ibid.

كثيرا من المدن والأقاليم خلال الحروب المستمرة التي دارت بينهما ، إما بالاستيلاء عليها ، أو باعادة الاستيلاء عليها ، مما يعنى أن سكان تلك المدن والأقاليم من اللومبارديين والبيزنطيين ، قد انتقلوا أحيانا من الحرية الى العبودية ، وأخرى من العبودية الى الحرية ، ورضوا بهذا الوضع دون أن يخرجوا عليه أو يأتوا على ذكره . ولما كانت أراضي بعض كبار الملاك الرومان كانت موزعة في الأقاليم اللومباردية والبيزنطية ، فهل نصدق أن هؤلاء الملاك كايوا عبيدا في أجزاء من أرضهم ، وأحرارا في أجزاء أخرى ؟ ! (١) . ومما ينفي عبودية الرومان في ايطاليا اللومباردية ما حدث خلال بابوية جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) ، عندما دخل بعض سكان المدن الرومانية في مفاوضات مع دوقات اللومبارديين ، رغبة في أن يصيروا من جملة رعاياهم ، وأهم من ذلك أن كثيرا من أحرار الرومان والجنود ورجال الدين ، قد لاذوا بالفرار الى الأقاليم اللومباردية ، وثمة رسالة للبابا جريجورى يشكو فيها من أن ملاك الأراضي الرومان بجزيرة كورسيكا قد لجأوا الى اللومبارديين ، تخلصا من عبء الضرائب البيزنطية المرهقة (٢) . إذا والحالة هذه ، ليس سهلا أن نصدق أن هؤلاء الملاك الذين كانوا ينعمون بالحرية في الأراضي البيزنطية ، قد فضلوا عليها حياة الذل والعبودية تحت السيادة اللومباردية . أما بالنسبة للرأى الذى دفع به بعض الباحثين من أن صناع المدن City artisans الذين لم يمتلكوا ذرة من التربة الزراعية قد احتفظوا بحريتهم ، بينما كان كبار الملاك الرومان يرزحون تحت العبودية ، فالواقع أن هذا الرأى من الصعب الركون اليه ، إذ يعنى ذلك أن الطبقات العاملة قد تميزت على طبقة النبلاء الرومان ، وهو أمر بعيد الاحتمال (٣) .

(1) Ibid, p. 297.

(2) Dudden, op. cit., I, p. 174.

(3) Villari, op. cit., II, p. 297.

وخلاصة القول ، أن الرأي القائل بعبودية الرومان تحت السيطرة اللومباردية ، قد دحضته الحقائق المعارضة له • والحق أن معظم الرومان المغلوبين على أمرهم قد عاشوا حياة قاسية في إيطاليا اللومباردية بيد أنه ينبغي أن نتوخى الحذر ، حتى لا نصور بؤسهم في ألوان مثيرة (١) •

القانون اللومباردى :

المعروف أن المجتمع اللومباردى المبكر ، مثل بقية المجتمعات الجرمانية الأخرى ، قام أساسا على النظام القبلى • وقد جرت العادة أن يتم تصريف شئون العدالة في تلك المجتمعات أمام محاكم شعبية للبت فيها • فأمام مجلس القبييلة العام ، كان لأى مواطن جرمانى الحق في أن يرفع دعوى على خصمه ، ومن هنا كان على الخصم — أو المتهم — أن يمثل أمام المحكمة ، فإذا لم يأت تعلن ادانته ، ويجرى الاقتصاص منه ، أما إذا ظهر أمام المحكمة ، فعليه إثبات براءته باحضار عدد من الرجال يقسمون على براءته من أى جرم لا يتوفر دليل قاطع على ارتكابه ، فإذا عجز عن ذلك ، وجب عليه أن يدفع للمدعى مبلغا من المال (دية) ، يختلف تبعا لجسامة الجريمة التى ارتكبها (٢) •

ومن الطبيعى أن الجرمان عندما غزوا الامبراطورية الرومانية وأقاموا ممالكهم المستقرة ، كانوا قد نقلوا معهم عاداتهم وتقاليدهم العرفية ، التى تمسكوا بها في حين مارس رعاياهم الرومان شئون حياتهم وفق القانون الرومانى • غير أن الجرمان بعد أن احتكوا بالرومان وتأثروا بحضارتهم ، بدأوا يضعون قوانين خاصة بهم ، اعتمدت في جوهرها على عاداتهم العرفية ، وكثير من هذه القوانين التى أطلق عليها «قوانين البرابرة» ، وعاشت حتى وقتنا الحاضر ، ساهمت في القضاء الضوئ على جوانب عديدة من حياة الجرمان ، وعلى سبيل المثال : العداوات

(1) Dudden, op. cit., I, p. 174.

(٢) محمود الحويرى : رؤية في سقوط الامبراطورية الرومانية ، ص ٨٨ .

الدامية ، والنهايات المساوية الأليمة ، والخصومات القضائية (١) ، فضلا عن النظم الاجتماعية والاقتصادية . وينطبق هذا بوجه خاص على اللومبارديين ، الذين أنشأوا محاكم دائمة لتصرف شئون العدالة ، وأسندوا رئاستها إلى موظف ملكى على المنصب أطلق عليه iudex ، كان له مساعدون ، ونهض بمهمة الاستماع الى الدعاوى القضائية والفصل فيها . وإلى جانب هذا ، كان من واجبات الملك اللومباردى الفصل فى المنازعات ، وتبعاً لذلك كانت أحكامه ملزمة واجبة النفاذ ، لا تقبل المعارضة أو الاستئناف العالى ، لأن أذهان البرابرة آنذاك لم تتدرك طبيعة المفهوم الأخير (٢) .

وكانت السلطة التشريعية فى أيدي الملوك اللومبارديين ، وظلوا ينهضون بأمرها ، الى أن اعتلى روثارى العرش ، فأحدث بها تغييرا جذريا ، جعل منه علامة بارزة فى تاريخ المملكة اللومباردية . إذ جمع كل شرائع قومه المبنية على العرف ، وصاغها باللغة اللاتينية فى مرسومه الشهير Rothari Edict فى بافيا (٣) ، حيث أذاعه على قومه فى ٢٢ نوفمبر سنة ٦٠٣ . ويتميز هذا القانون بروحه الجرمانية المحضة ، التى جاءت دليلا قاطعا على تمسك اللومبارديين بنظمهم ، وإخلاصهم فى الحفاظ على تقاليدهم التى يرجع تاريخها الى الفترة التى عاشوها فى باردينجاو ، الأمر الذى يعتبر أعظم القوانين البربرية روعة وأصاله (٤) .

ومما يزيد فى أهمية قانون روثارى ، أنه لأول مرة تجرأ أحد البرابرة على وضع قانون فى إيطاليا ، دون ما اكتراث لبيزنطة باعتبارها الوريثة الشرعية الوحيدة للإمبراطورية الرومانية فى هذا القطر من ناحية ،

(1) Webster, op. cit., p. 379.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 228.

(3) Paul the Deacon, op. cit., pp. 195-196.

(4) Lot, The End of the Ancient World, p. 292.

وبدون الاعتماد على ما جاء في القانون الرومانى كما فعلت بقية الشعوب الجرمانية من ناحية أخرى . وفى هذا الصدد أوضح روثارى بصراحة فى مقدمة قانونه ، أن الدافع الى صياغته هو جمع كل التقاليد المتعلقة بشعبه وتسجيلها ، وفى ذلك يقول : « لقد قمت بهذا العمل طبقا لمشورة وموافقة السادة الأوائل (First Lords (Primates) ، وقضائنا ، وجيشنا المخلص » (١) أضف الى ذلك ، أن الشعوب الجرمانية قد صاغت قوانينها على أساس القانون الرومانى بعد أن مضى زمن وجيز على تأسيس ممالكها فى أراضى الامبراطورية ، فى حين أن اللومبارديين صاغوا قانونهم بعد فترة طويلة من قيام مملكتهم . ومع ذلك ، وبدون قصد منهم ، تأثر اللومبارديون بالقانون الرومانى بطريقة غير مباشرة ، بعبارة أخرى أفادوا منه فى ناحية الشكل دون المضمون ، ويبدو ذلك على وجه خاص فى تدوينه باللغة اللاتينية ، وفى استخدام بعض العبارات والمصطلحات الواردة فى مجموعة قوانين جستنيان ، وفى التصنيف الذى رتب بمقتضاه مواد القانون الرومانى ، علاوة على أن ثمة فقرات معينة لا ترجع الى أصل جرمانى (٢) .

وقد تألف مرسوم أوثارى من ٣٨٨ فصلا باستثناء الفصول الاثنتى عشرة الأخيرة ، التى أضيفت اليه فى وقت لاحق . وقد اهتم هذا المرسوم فى المقام الأول بمعالجة الاعتداءات الواقعة على الدولة وكبار الشخصيات ، ثم المسائل المتعلقة بالوراثة والعشيرة وتقسيم الملكية ، هذا فى الوقت الذى ندرت الاشارة الى الحقوق السياسية (٣) .

وثمة خلاف عميق بين الباحثين حول ما اذا كان هذا المرسوم قد فرض على الرومان أيضا ، أم إنه اقتصر على اللومبارديين وخدمهم .

(1) Villari, op. cit., II, pp. 339-340.

(2) Villari, op. cit., II, p. 340.

(3) Ibid.

وفي العادة تتميز القوانين الجرمانية بشخصيتها المعنوية ، ولكن القانون اللومباردي زيادة على ذلك ، تميز بشخصيته الاقليمية ، ويعنى ذلك أن اللومبارديين طبقوه أيضا على القبائل الجرمانية التي صحبتهم الى ايطاليا ، ومن هذا المنطلق يعزو بولس الشماس سبب انسحاب قبائل السكسون من ايطاليا وعودتها الى بلادها الى الرغبة في العيش في ظل قوانينها ومؤسساتها (١) . ومما يذكر أن روثارى أورد في مقدمة مرسومه أو قانونيه بعض العبارات التي تحملنا على الاعتقاد بأن هذا القانون كان ساريا على الرومان أيضا ، من ذلك أنه صاغه دفاعا عن العدالة ورفعة شأنها ، ومنعا لاستبداد الغنى بالفقر ، وحبا لرعاياه دون تفرقة أو تمييز بينهم . على أن وجود بعض الفقرات في هذا المرسوم التي تلزم الى وجود قوانين أخرى مغايرة للقانون اللومباردي ، لا شك أنها تجعلنا ننظر الى هذا الموضوع من زاوية أخرى . إذ لو حدث أن اللومبارديين قد ألغوا استخدام القانون الروماني في دولتهم ، فإن اغفال تسجيل مثل هذا الحدث الهام في الحوليات والوثائق المعاصرة يعتبر ضربا مستحيلا ، في الوقت الذي يبعد عن تصورتنا أن اللومبارديين مهما توفرت الرغبة لديهم ، كان بوسعهم القضاء على القانون الروماني الممتدة جذوره العميقة في تربة ايطاليا منذ أمد طويل (٢) . والأهم من ذلك أن القانون الروماني جرى سريانه فيما بعد في مرحلة متأخرة ، مما يجعلنا نتساءل كيف اختفى هذا القانون ، ثم ظهر مرة أخرى دون الإشارة الى ذلك في المؤلفات المعاصرة . والواقع أننا نجد الاجابة واضحة في قوانين الملك ليوتبراند ، إذ نستدل من العبارة القائلة : « لو حدث أن رجلا لومبارديا لديه أطفال صار قسا ، فهؤلاء الأطفال يظلون

(1) Paul the Deacon, p. 98; Villari, op. cit., II, p. 341.

(2) Villari, op. cit., II, p. 341.

تحت طائلة القانون الذى كان يتبعه أبوهم قبل أن يصير قسسا » ، على أن هناك قانوناً آخر ، وهو القانون الرومانى الذى لم يكن موجودا غيره بطبيعة الحال ، وفوق ذلك ، فان اللومباردى الذى تحول الى قس يخضع لهذا القانون . ومن هذا كله ، يرى المؤرخ فيلارى أن الاستنتاج المقبول فى هذا الموضوع ، يتمثل فى أنه على الرغم من أن القوانين الرومانية لم يكن معترفا بها من الناحية الرسمية ، إلا أنها فى الحقيقة ظلت باقية - من الناحية العملية - بقوة العرف المألوف (١) .

وثمة رأى للمؤرخ لوت انتهى فيه الى أن روثارى قد صاغ قانونه من أجل قومه فحسب ، ولم يطبق على الرومان الذين ظلوا خاضعين لقوانينهم السائدة قبل عصر جستينيان ، إذ أن مجموعة قوانين جستينيان لم تكن قد رسخت بعد فى ايطاليا الشمالية الواقعة تحت السيادة اللومباردية (٢) . وهنا نلاحظ أنه عندما استعاد جستينيان ايطاليا من القوط الشرقيين صابر قانونه سائدا فيها حتى فتحها اللومبارديون ، فضعف نفوذه واقتصر فى ايطاليا على بعض المدن مثل روما ورافنا ، وظل القانون الرومانى المطبق فى الغرب الأوروبى حتى أوائل القرن الثانى عشر هو القانون الرومانى المدون فى مجموعة ثيوداسيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥) وألاريك الثانى (٤٨٣ - ٥٠٦) ملك القوط الغربيين فى أسبانيا ، لا القانون الرومانى كما جمعه جستينيان (٣) . على أنه اذا كان الرومان قد ظلوا خاضعين لقوانينهم ، فينبغى ألا يفوتنا أن قضايا النزاع بينهم وبين اللومبارديين كانت تحال الى محاكم لومباردية ، ليجرى الفصل فيها وفقا للقانون اللومباردى ، مما يدل على أن اللومبارديين قد

(1) Ibid, pp. 341-342.

(2) Lot, Les Invasions., p. 282.

(٣) محمد عبد المنعم بدر ، عبد المنعم البدر اوى : مبادئ القانون الرومانى ، تاريخه ونظمه ، ص ١٥٩ ، عمر ممدوح مصطفى : القانون الرومانى ، ج ١ ص ١١٦ .

فرضوا على رعاياهم الرومان الثوب اللومباردى ، ومن ثم لم يعد الرومان روماناً (١) . وكيفما كان الأمر ، فقد بقى القانون الرومانى فى موطنه ايطاليا مجرد قانون عرفى توارثه أجيال الايطاليين ، واختلط بالقواعد العرفية التى جاء بها القانون اللومباردى (٢) .

ومما يذكر أن قوانين اللومبارديين لم تنبى سائرة المفعول طيلة الفترة التى عاشتها مملكتهم فحسب ، بل بقيت أمداً طويلاً بعد سقوطها على أيدي شارلمان فى سنة ٧٧٤، ويرجع السبب فى ذلك الى أن العاهل الفرنجى لم يكن فى نيته أول الأمر القضاء على مؤسسات اللومبارديين ونظمهم الحضارية . وقد استمر الوضع على هذا النحو الى أن أخذ شارلمان ثورة دوق فريولى ، وما تبع ذلك من اتخاذه سياسة أكثر تشدداً مع اللومبارديين ، جعلته يلغى نظمهم وقوانينهم ، ويرغمهم على اتباع نظيرتها الفرنجية . ومع ذلك ، ظلت الدوقيات اللومباردية النائية فى الجنوب على حالها ، وبعبارة أخرى أبقت على نظمها ، ومارست شؤون العدالة طبقاً للقانون اللومباردى حتى القرن الحادى عشر . ولعل ما هو أهم من ذلك ، أن النظم التى أدخلها الفرنجة الى ايطاليا قد تغيرت لتوائم النظم اللومباردية السائدة ، وفى هذا الصدد « لم تبخل » ايطاليا على مملكة الفرنجة فى حقل التشريع ، فقد أصبحت الصياغة المألوفة لراسيم اللومبارديين نموذجاً رائعاً هذا حذوه ملوك الفرنجة (٣) .

ولا شك أن بقاء قوانين اللومبارديين طويلاً بعد سقوط مملكتهم أمر يثير الانتباه ، خاصة اذا علمنا أن احدى مدارس القانون فى بافيا قد جمعت « كتاب القوانين اللومباردية » Liber legis Langobardorum فى

(1) Lot, op. cit., p. 282.

(2) Cantor, Medieval Hist., I, p. 145.

والترجمة العربية ، كانتور : تاريخ العصور الوسطى ، ج ١ ص ٢٧٤ .

(3) Lot, op. cit., p. 292.

القرن الحادى عشر بين سنتى ١٠١٩ و ١٠٣١ ، فضلا عن أنه فى نهاية هذا القرن ثم وضع مجموعة القوانين اللومباردية فى تبويب منهجى مرتب ، وظل معمولاً بها الى أن ظهرت حركة علمية فى أوائل القرن الغالى ، انبعثت على إثرها بولونيا قلعة القانون الرومانى على أساس مجموعة قوانين جستنيان ، مما أدى الى اختفاء القوانين « الجرمانية » فى عالم النسيان (١) .

وفى ختام حديثنا عن القوانين اللومباردية ، تجدر الإشارة الى أنه مهما كان الانتقاد الموجه اليها ، من أنها تعبير حى عن الروح الانفصالية ، فلا جدال أن ذلك لا يقلل من أهميتها . وأكثر ما يظهر ذلك بالنسبة للمؤرخ ، فقد مكنته من دراسة أحوال المجتمع اللومباردى عن كتب ، ومقارنته ببقية المجتمعات الجرمانية الأخرى ، وعلى سبيل المثال الاسكندنافية والفرنجية والأنجلو ساكسونية ، التى سجلت عاداتها وتقاليدها فى الفترة التى نحن بصددتها تقريبا (٢) .

المجتمع اللومباردى وطبقاته :

سبق أن أشرنا الى أن المجتمع اللومباردى منذ مراحلته الأولى حتى استقراره المبكر بايطاليا كان مجتمعا قبليا فى جوهره ، تأسست وحدته الاجتماعية على رابطة العشيرة fara ، وهى مجموعة عائلات تجمع بينها أواصر القربى والدم . ومن المعروف عن العشيرة أنها عاشت ذوما فى حالة تأهب للحرب ، جعلتها تقيم داخل حصون ، أخذت تشن منها الاغارات الناهبة على جيرانها ، بغية الحصول على الغنائم وتقسيمها بين أفرادها . وكان من الطبيعى ألا يستمر وضع العشائر اللومباردية

(1) Ibid, p. 290.

(2) Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, p. 63.

على هذا النحو بعد أن زالت صدمة الغزو اللومباردي ، إذ امتدت إليها
يد التغيير على مر السنين ، ولا سيما بعد اتصالها بالحضارة الرومانية (١) .

وقد كشفت الحفريات التي أجريت في مقابر اللومبارديين المبكرة في
إيطاليا ، عن أنهم كانوا يستخدمون أدوات ذات طابع جرمانى محض ،
تطابق تماما الأدوات التي استعملوها في بانونيا ، وذلك التي استخدمها
غيرهم من الشعوب الجرمانية في مرحلتها الوثنية . ووجه الأهمية هنا
أن تلك الأدوات تلقى مزيدا من الضوء على أولئك البرابرة الأفظاظ ،
الذين وجدوا أنفسهم فجأة في قلب إيطاليا وسط فيض من سكانها
الأصليين أصحاب الحضارة الرومانية العريقة ، التي لم يكن من سبيل
إلى منافستها وقتئذ ، مما حق القول عليهم أن عقولهم المفظة لم تبرح
بعد غابات وأحراش جرمانيا (٢) .

ولعل أبرز صورة توضح لنا أحوال اللومبارديين الاجتماعية في
هذا الدور المبكر ، أن الأسرة كانت مسئولة تماما عن أى جرم يرتكبه أحد
أعضائها أو أى جرم يقع عليه على حد سواء . من ذلك أنه وجب على عائلة
القتيل الأخذ بثأره ، وهو ما يعرف بالثأر العائلى family vendetta .
ومن المعروف أن هذه العادة — أو الظاهرة — كانت من العادات المتأصلة
في نفوس اللومبارديين منذ فجر تاريخهم ، وظلت باقية إلى سنوات
طويلة مضت على ظهورهم بإيطاليا ، وقد حاول الملك روثارى في قانونه — من
منطلق دوافع أخلاقية إنسانية — أن يضع حدا لسطوتها ، لكونها
مضیعة للحياة والممتلكات ، وخطر على مجتمع قومه الصغير المشهور في
رحمة الأعداء ، ولهذا فرض دية (وهى تعويض مالى) تمنح للأهل
القتيل إرضاء لكرامتهم وردا لشرفهم . ومما يذكر أن روثارى وضع
قائمة طويلة بالديات تتدرج في قيمتها طبقا لجسامه الجرم الواقع ،

(1) Ibid, p. 57.

(2) Ibid, p. 58.

والحالة الاجتماعية للمعتدى عليه . وفي هذا الصدد ، نلاحظ أنه فرض دية أعلى من التي وضعها أسلافه على الأموال والأعمال الجارحة الموجهة لأحرار قومه ، لأن دفع دية مقبولة من شأنها القضاء على المنازعات والعداوة faida فيما بينهم ، ونشر روح المودة داخل قلوبهم (١) . وثمة قصة يرويها بولس الشماس تدل على أن عادة الأخذ بالثأر كانت عملاً غير أخلاقي لا ضرورة له . من ذلك أن قزماً صغيراً أراد الانتقام لصبر سيده ومليكه جودبرت من قاتله ، وعندما علم أن القاتل سيأتي للصلاة في كنيسة القديس يوحنا في عيد الفصح ، اختفى في بيت المعمودية ، وانتظر إلى أن مر القاتل بجوارره ، فوثب عليه وطمعنه طعنة مميتة ، على أن المقزم لقي حتفه في الحال بعد أن حصده سيوف مرافقي غريم الملك ، وقد علق بولس على هذه الرواية الأسطورية بقوله : « على الرغم من أن المقزم قد مات صريعاً ، فلا شك أنه استخدم الطريقة الخاطئة للثأر لسيده جودبرت » (٢) .

كذلك تناول مرسوم روثاري الاهانات التي توجه لشخصه ، أي القذف في ذاته الملكية ، والقتل عن غير عمد ، وقطع الطريق ، والايذاء الجسدي لغير الحر ، فضلاً عن المواريث ، وضرورة الاستعانة بعدة شهود عند تقديم هبات ، ومعاملة المرأة ، وتحرير الأرقاء ، ووجه الأهمية هنا أن تلك التشريعات خير دليل على أن المجتمع اللومباردي نتيجة احتكاكه بالحضارة الرومانية ، قد تجاوز مرحلة القبلية إلى حد بعيد ، ومع ذلك كان المظهر خادعاً إلى حد ما وقتئذ ، إذ لم تبرح الخشونة قابضة تحت السطح (٣) .

وكيفما كان الأمر ، فقد بدت حياة ألفرد اللومباردي على مر السنين

(1) Ibid, p. 64.

(2) Paul the Deacon, pp. 207-208.

(3) Wallace - Hadrill, op. cit., pp. 64-65.

أكثر أهمية ، وتطلبت حماية الدولة لها ، في حين أخذت العائلة كأصغر وحدة اجتماعية تتدنى في الأهمية . ويرجع الفضل في ذلك ، الى ما بذله ملوك اللومبارديين من جهد دائم لتقييد عادة الأخذ بالثأر والحد منها ، مما أدى في النهاية الى اضعاف شأن العائلة والعشيرة معا . وينبى ألا نغفل الدور الذي لعبته الكنيسة في هذا الصدد ، إذ وجهت للعائلة ضربة أشد ، وذلك بتشجيع أفرادها على إغداق الهبات عليها من أملاك العائلة من ناحية أخرى . وجدير بالذكر أن تطور الديرية في إيطاليا - بل في الغرب الأوربي - وما تبع ذلك من تزايد مكانتها الاجتماعية ، قد ترك أثرا عميقا في الحياة الدينية وغير الدينية ، ساهم بدوره في تفكك رابطة العائلة البربرية ، والى جانب ذلك أصيب كيان تلك العائلة بضربة أخرى ، عندما حددت تعاليم الكنيسة الطريقة التي تحافظ العائلة بها على سلالتها ، وذلك بتحريمها تعدد الزوجات والمعاشره غير الشرعية والطلاق (١) . ومع أن الكنيسة نجحت في القضاء على بعض العادات الجرمانية المناهية لتعاليمها ، إلا أن هناك بعضاً آخر لم تستطع أن تؤثر فيه بسهولة . ويتمثل ذلك بوضوح في عادتتين ، أولاهما وهى الوصاية mundio التى تمارسها العائلة أو الزوج على المرأة الحرة ، إذ كان من المستحيل على الأخيرة أن تكون وصية على نفسها ، وبمعنى آخر لم يكن بوسعها الاستغناء عن تلك الوصاية ، حتى لو استغنت عن زوجها . وهنا نلاحظ أن الوصاية على الزوجة اللومباردية كانت تنتقل الى زوجها نظير مبلغ معين من المال يدفعه لأبيها ، فإذا مات الزوج خضعت لوصاية أقارب زوجها ، وفي بعض الحالات لوصاية إخوتها أو أولادها ، أما ثانيتهما وهى الدية ، فقد ذكرنا من قبل

أنها كانت تفرض على القاتل لصالح ذوى قريى القتيل ، بيد أنه فيما بعد جرى تقسيمها بينهم وبين الملك اللومباردى (١) .

ولم تقف جهود الكنيسة عند هذا الحد ، بل حاربت بقوة الطريقة التى اتبعها اللومبارديون فى محاكمة المتهمين بالمبارزة أو الاقتتال ، وهى طريقة بربرية قديمة ظلت متغلغلة فى أعماق الشعوب الجرمانية فى أنحاء الغرب الأوروبى ، بحيث صار من الصعب اقتلاعها . وكانت المبارزة هى الحل الوحيد للفصل فى أى قضية يتنازع عليها رجلان حران ، لهم تتوفر الأدلة القانونية المطلوبة لإدانة أى منهما . وخير مثال على تطبيق هذه الطريقة ما جاء فى قوانين ليوتبراند ، من أنه لو اتهم رجل بجريمة قتل يعاقب عليها بفقد كل ممتلكاته ، ودعى هذا الرجل لمبارزة انتهت بهزيمته ، ففى هذه الحالة لا يخسر ممتلكاته ، ووجب عليه أن يدفع دية الضحية فحسب (٢) . ومما يذكر أن ليوتبراند أقر فى قوانينه أنه لا يستطيع أن يمنع طريقة المحاكمة بالاقتتال ، لأنها من العادات القديمة التى عاشت مع قومه ، كذلك لم تستطع الكنيسة أن تقضى عليها ، وإنما نجحت فى تهذيبها (٣) .

أما الطريقة الأخرى المتبعة فى محاكمة المتهمين المعروفة بطريقة التحكيم الإلهى أو المحاكمة بالتعذيب التى كانت شائعة بين اللومبارديين ، فقد كانت وسيلة مصطنعة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئاً أو مجرماً ، وذلك باخضاعه لضروب من الامتحان الخطر أو المؤلم ، بعد استنفاد جميع الوسائل الدالة على ادانة المتهم ، أو اخفاق المتهم فى اثبات دليل براءته .

وهنا نلاحظ أن الكنيسة لم تأت بهذه الطريقة فى المحاكمة ، ولكنها

(1) Villari, The Barbarian Invasions, II, pp. 344-346.

(2) Wallace - Hadrill, Italy and the Lombards, p. 66.

(3) Ibid.

أخذت بها وهيمنت على استخدامهما ، وسواء كان الامتحان بالماء أو النار ، فقد كان طقسا دينيا مهيبا ، لأن مسؤولية إثبات دليل البراءة أو الذنب ترجع عندئذ الى الله (١) . ومن الأساليب التي استخدمت في طريقة التحكيم الالهى أن المتهم كانت تربط يداه ويقذف به في النهر ، فإذا غطس كان بريئا ، وإذا طاف على سطحه كان مذنباً ، لأن الماء كانت تقرأ عليه تعاويذ خاصة تجعله يلفظ المذنب ، أو كان يطلب من المتهم أن يمشى حافى القدمين في نار متقدة أو فوق حديد يحمى حتى يحمر من الحرارة ، أو يمسك بيده قطعة من الحديد محمية الى درجة الاحمرار ويظل قابضا عليها لحظات محددة ، أو يضع ذراعه عارية في اناء به ماء يغلى ويخرج شعثا من قاعه ، أو يقف المدعى والمدعى عليه ويمدان ذراعيهما على هيئة صليب ويظلان على هذا الوضع حتى تثبت التهمة على أحدهما إذا أنزل ذراعه من شدة التعب ، أو يأخذ المتهم جرعة من الماء المقدس ، فإذا كان مذنباً فلا بد أن تحل به نقمة الله (٢) .

وإذا انتقلنا الى الحديث عن الطبقات التي تألف منها المجتمع اللومباردى نلاحظ أنها كانت على الوجه التالي :

أولا :

الطبقة العليا المكونة من الرجال الأحرار وهم نبلاء بالولادة . ويأتى على رأسها الدوقات اللومبارديون ، الذين فاق نفوذهم نفوذ أقرانهم في الملكيات الجرمانية الأخرى كما رأينا من قبل . وتشمل أيضا تلك الطبقة جماعة المحاربين المعروفين بالأريمانى arimanni ، إذ كانت القاعدة العامة لدى الشعوب الجرمانية أن كل رجل قادر على حمل السلاح يجب أن يكون محارباً ، إلا أن القتال شرف يختص به الرجل الحر (٣) .

(١) Ibid.

(٢) ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، ص

١٨٠ - ١٨١ .

(٣) Lot, The End of the Ancient World, p. 292; Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 229.

(م ١٤ - اللومبارديون)

ثانيا : طبقة الألدويني Aldei

طبقة الألدويني Aldei التي كانت تحتل مركزا وسطا بين الأحرار والعبيد ، ويمكننا أن نطلق على أعضائها أحرارا إذا قارناهم بالعبيد ، ولكن حريتهم كانت اسمية ، إذ اعتمدوا في كل أمورهم على سيدهم ، وترتب على وضعهم القيام بتأدية واجبات شديدة الازهاق له ، فكان عليهم فلاحه أرضه التي لا يملكون الحرية في الانتقال عنها ، فضلا عن الإسهام في حفر القنوات أو شق الطرق ، وغير ذلك من أعمال السخرة التي نظمها المعرف ، ومع أنهم كانوا يملكون أرضا ، إلا أنه لم يكن من حقهم التصرف فيها دون الحصول على موافقة سيدهم (١) . وبالإضافة الى هذا امتد نفوذ السيد الى حياتهم الشخصية ، إذ كان يمثلهم في المنازعات القضائية ، فإذا قتل أحدهم أو أصابه ضرر ، فسيده هو الذي يحصل على الدية أو الغرامة التي يتوجب دفعها ، وربما كان ذلك على سبيل تعويض السيد عن فقد مزارع قدير (٢) . وهنا نلاحظ أنه إذا تزوج عبد أو ألدويني aldus من امرأة لومباردية حرة دون أن يأذن له سيده اللومباردي ، فلذوي قرباها الحق في ذبحها أو بيعها ، وتقسيم ممتلكاتها فيما بينهم (٣) . والواقع أن وضع الألدويني في إيطاليا اللومباردية كان يطابق تماما وضع الألقنان الرومان Coloni المتصقين بالتربة ، الذين عرفوا باسم رقيق الأرض ، ولكن دون أن يهبطوا الى مستوى العبيد (٤) .

ثالثا :

طبقة العبيد والعنتقاء ، والمعروف أن العبيد كانوا أهم سلعة تجارية عرفها البرابرة خلال تنقلهم وتجوألهم ، لدرجة أنهم كانوا يثيرون الحروب فيما بينهم للحصول على أعداد وفيرة منهم . والواقع أن العبودية كانت

(1) Dudden, op. cit., I, pp. 173-174.

(2) Hodgkin, Italy and her Invaders, VI, pp. 590-592.

(3) Ibid, VI, pp. 210-211.

(4) Oman, Dark Ages, p. 197.

تعنى فى حقيقتها الموت ، فقد عاش غالبية العبيد وماتوا ، وهم يعانون . شظف الحياة وبؤسها • وقد أدت الحاجة الماسة الى استخدامهم فى فلاحه الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة فى العصور الوسطى ، الى أن صارت العبودية نظاما اقتصاديا تعذر استئصاله على مدى قرون طويلة (١) • ويلاحظ هنا أن مرسوم روثارى لم يغفل أوضاع العبيد فى المملكة اللومباردية ، فعلاوة على ما ذكرناه عنهم عند الحديث عن طبقة الأديبوني ، تحتم على أى شخص اعترض طريق عبد - أو خادمة أو الديبوني - أن يدفع غرامة قدرها عشرون صولدى للملك العبد ، كما فرضت غرامات على من يتسبب فى إيذاء العبد جسديا ، اختلف حسب جسامه الايذاء (٢) • أما العتيق أو العبد الذى نال حريته ، فقد اختلف وضعه تماما ، إذ احتل مكانة طيبة فى القانون اللومباردى ، جعلته فى أحوال كثيرة يفضل البقاء مع سيده كأحد أتباعه ومواليه ، دون أن يؤثر ذلك فى مكانته باعتباره حرا ، ومن أجل ذلك التزم بالخدمة العسكرية لسيده أو بالعمل فى بلاطه مقابل الانشقاق عليه ، ولما كان العرف الذى بمقتضاه يتكفل السيد بحماية عتيقه ورعايته لازال قائما ، فالواقع أن الصفقة لم تكن خاسرة بالنسبة للأخير (٣) •

الاقطاع اللومباردى :

يمكننا أن نلمس بوضوح نشأة النظام الاقطاعى وتطوره فى ايطاليا اللومباردية • إذ إن ظروف هذا القطر قد مهدت السبيل الى ذلك ، فبعد أن أصبحت المدن الايطالية غير آمنة إبان الغزوات الجرمانية المبكرة ، وظهر عجز السلطة المركزية عن حمايتها ، عاشت الطبقة النبيلة الرومانية القديمة صاحبة الملكيات الضخمة من الأرض فى ضياعها الريفية ، أما

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., pp. 66-67.

(2) Paul the Deacon, p. 195. n. 1.

(3) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 67.

صغار الملاك الأحرار الذين أنهكت الحروب الطويلة قواهم ، وأثقلتهم الضرائب الباهظة التي فرضتها عليهم الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولم يعد بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم ضد الأخطار الخارجية المحيطة بهم ، فقد وضعوا أنفسهم تحت حماية كبار الأراضى ، خاصة طبقة النبالة الحربية (٥) . وقد وصف سيدونيوس أبو ليناريس (١) — فى القرن الخامس الميلادى — سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع واسعة ، وقد صاروا منذ ذلك الوقت البعيدين يشكلون أرستقراطية اقطاعية لها محاكمها الخاصة وجيوشها ، ولا يختلفون عن السادة الاقطاعيين فى العهود المقبلة إلا فى مقدرتهم على القراءة (٢) .

وبسقوط الامبراطورية الرومانية على أيدي الجرمان سنة ٤٧٦ ، وقيام ممالكهم فى الجزء الغربى منها ، أخذ النظام الاقطاعى فى الظهور والنمو ، وهو نظام عرفه الجرمان فى مواطنهم الأصلية ، وأساسه العلاقة بين التابع والمتبوع ، وقوامها الأرض (٣) . إذ أنهم لم يمارسوا شيئاً سوى الحرب ، ولم تكن جماعاتهم إلا جماعات حربية ، ولم يكن حكمهم إلا زعماء محاربين ، حاول كل منهم أن يفوق منافسيه بما يكتنه أتباعه له من الولاء ، فاذا أعد حملة ، اجتمعوا حوله ، وهم من المحاربين الأحرار ، للقتال معه ومن أجله (٤) .

(1) Hulme, The Middle Ages, pp. 160-161.

(٢) سيدونيوس أبولينارس Sidonius Apollinaris (ح ٤٣٠ — ح ٤٨٠) نبيل روماني من اقليم الغال ، شهد الانهيار النهائى للنفوذ الرومانى فى هذا الاقليم ، وتعتبر كتاباته من أعظم المصادر التى تناولت الأحوال الاجتماعية فى القرن الخامس ، انظر Dudley & Lang, op. cit., pp. 150-151.

(٣) ديوراننت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، د ٣ ، ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٤) هارتمان ، باراكلاف : الدولة والامبراطورية ، مقدمة المترجم ،

ص ١٩ — ٢٠ .

(٥) السيد الباز العرينى : الحضارة والنظم الاوربية فى العصور

الوسطى ، ص ١١٢ .

وبقيام الممالك الجرمانية المتأخرة مثل ممالك اللومباردين والفرنجة ، انهارت البيروقراطية الرومانية ، واندثرت مع الزمن الطبقة الرومانية صاحبة الأرض ، لتحل محلها طبقة جديدة من الغزاة الجرمان انتزعت الأرض منها ، ونجد مثلاً واضحاً لذلك في مملكة اللومباردين ، إذ نما الاتجاه نحو المحلية ، والبعد عن السلطة المركزية الحاكمة (١) . وكنا قد أشرنا من قبل إلى أنه في المراحل الأولى من الغزو اللومباردي لم يكن يحق للملاك الأراضي الرومان أن يشتركوا في ملكية أملاكهم ، إذ جرت عادة اللومباردين على انتزاعها منهم ، ونفيهم منها ، وحرمانهم من كل شخصية ، ونتيجة لذلك صار كل لومباردي حر صاحب أرض ومحارباً ، وترتب على اجتماع عاملَي الاستقرار المستمر والتأثر بالحضارة الرومانية أن تلاشت العشيرة تدريجياً ، وحلت محلها الروابط المحلية القائمة على امتلاك الأرض (٢) وأكثر من ذلك أهمية ، أن المنازعات التي كانت تحدث بين الملك اللومباردي والدوقات من أجل السلطة والنفوذ ، جعلت الملك حريصاً على الاكتثار من عدد أتباعه المخلصين ، الذين يمكنه بواسطتهم منازعة أقوى دوقاته الخارجيين عن طاعته ، ومن أجل ذلك وجب عليه أن يكافئ هؤلاء الأتباع ليحافظوا على إخلاصهم وولائهم ، ولما كانت الأرض الزراعية محور الثروة في العصور الوسطى ، فقد عمد إلى أن يوزع عليهم أجزاء من أراضيهِ الملكية اتخذت اسم اقطاعات في صورة هبات سخية للانتفاع بها ، مما جعل أراضيهِ في نقصان مستمر (٣) . وترتب على ذلك أن صار الأتباع يؤلفون طبقة اجتماعية خاصة ، هيأت السبيل لقيام النظام الاقطاعي في أوروبا العصور الوسطى في القرون اللاحقة .

(١) هارتمان ، باراكلاف : المرجع السابق ، المقدمة ص ٢٠ .

(٢) موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٢١٤ .

(3) Orton, Outlines of Med. Europe, pp. 106-107; Lot, The End., pp. 294-2995.

النشاط الاقتصادي:

وأيضا أن الشعب اللومباردى كان محاربا بطبيعته ، ويبدو صدى هذه الحقيقة في أنه لم يذق طعم الاستقرار طويلا منذ أن غادر موطنه في اقليم نهر الإلب ، حتى أضحي جارا لاييطاليا في اقليم بانونيا عند نهاية القرن الخامس • ورغم أنه اتخذ وضعاً أكثر استقراراً في هذا الاقليم ، اعتنق خلاله المسيحية بمذهبها الآريوسى ، وزادت قوة الملكية ، فقد ظلت الحرب شغله الشاغل وأبرز تقاليده وعاداته • وفي هذا الاقليم لم يمارس اللومبارديون زراعتهم البدائية ، بل تركوا العمل في الحقول للأرقاء والشعوب الخاضعة ، على حين أنهم هم أنفسهم أخذوا ينهبون أراضي جيرانهم (١) • وهنا نكرر القول أن الشعوب الجرمانية التي غزت ايطاليا قبل اللومبارديين لم تقم بانتزاع كل الأراضي الزراعية من أصحابها الرومان ، وإنما اكتفت باغتصاب مساحة تصل الى ثلث الأرض تاركة الباقي للملاك الرومان • وبعبارة أخرى ، اذا كان هؤلاء الغزاة قد اعتبروا السكان شركاء لهم في الأرض ، فعلى النقيض من ذلك اعتبرهم اللومبارديون رعايا ، وعاملوهم نفس المعاملة التي كان يلقاها سكان هنغاريا الذين كانوا يفلحون الأرض لسادتهم المحاربين ، فجردوا أصحاب الأرض من أملاكهم ، وأصبحت أرضهم ومواشيهم وبيوتهم وفلاحوهم نهباً وغنيمة للقاتلين ، ولم يكن اللومبارديون يريدون الأرض في حد ذاتها ، وإنما أرادوها لتكون وسيلة للعيش في دعة أو وسيلة تكفل لهم من الحرية الاقتصادية ما يسمح لهم بشن الحروب (٢) • ومن ثم أبقوا على ما كان عند الرومان من نظام استغلال الأراضي ، وكل ما تغير هو أن القرن الروماني أو الألدويني اللومباردى ، كان يدفع للمالك اللومباردى

(1) Deanesly, A Hist. of Early Med. Europe, p. 249;

موس : المرجع السابق ، ص ٢١٢ •

(2) Lot, op. cit., p. 288;

موس : المرجع السابق ، ص ٢١٤ — ٢١٥ •

ثلث ما تغله الأراضي ، في حين احتفظ لنفسه بالباقي • وكيفما كان الأمر ، فقد أفضى دخول اللومبارديين إيطاليا الى استخدامهم — على نطاق واسع — المزارع الإيطالية لتربية الماشية وقطعان الخنازير التي ساقوها معهم من بانونيا ، وفي خلال مدة حكمهم لم يحدث تغيير كبير في طرق الزراعة الإيطالية القديمة ، فالأرض فيما عدا مناطق معينة من وادي البو ، كانت لا تصلح لاستخدام المحراث الجرمانى الطويل (١) •

كذلك لا يختلف الأمر عندما نتطرق الى الصناعة ، التي لم يكن لها وجود في إيطاليا اللومباردية ، باستثناء بعض المشاريع النادرة التي كان يقوم بها جماعة بنائى كومو أو سادة كومو Maestre Comacini (٢) ، وهم بقايا نقابة الصناع الرومانية المعروفة بهذا الاسم ، تلك النقابة الغامضة التي عفى عليها النسيان المكونة من الفنانين الذين كثيرا ما يتردد اسمهم في المناقشات التي تدور حول أصول الفن الإيطالى ومصادره (٣) • وينبغى الإشارة هنا الى أن جميع وسائل الحضارة اللومباردية وأدواتها ، كانت — الى حد بعيد — في أيدي التجار والفنانين والصناع الرومان ، الى جانب أن الملاحين الذين يعملون على صفحة نهو البو وصناع الدروع والزراد في لوكا وكريمونا ومنتجى الفسكهة والخضر اللازمة لقصور الدوقات اللومبارديين ، كانوا في الأغلب الأعم من الرومسان (٤) •

على أن التجارة في إيطاليا كانت على النقيض من ذلك • فبعد أن خبت حدة الفتوحات واستقر اللومبارديون ، إستعادت التجارة نشاطها ابتداء من القرن الثامن ، بفضل أهالى كوماكيو الذين عقد معهم الملك

(1) Deanesly, op. cit., p. 249.

(2) Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 229.

(٣) نفس المرجع والصفحة •

(٤) مرس : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ •

ليوتبراند اتفاقية تجارية في سنة ٧١٥ ، والبنادقة الذين جلبوا محاصيل الشرق (١) . ومما يسترعى الانتباه أن إيطاليا البيزنطية لم توقف علاقاتها التجارية مع الامبراطورية البيزنطية رغم ما عانتها تلك الامبراطورية من متاعب منذ أوائل القرن السادس ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن قيام علاقات تجارية بين إيطاليا البيزنطية وإيطاليا اللومباردية قبل بداية القرن الثامن ، حيث أخذ البنادقة - على وجه التأكيد - يجلبون الملح الى مملكة اللومبارديين (٢) .

أما فيما يختص بالموارد المالية التي اعتمدت عليها المملكة اللومباردية ، فمن الملاحظ أنه خلال المراحل الأولى من الغزو ، اختفى نظام الضرائب المباشرة ، مثل ضريبة الأرض التي كانت أساس المالية الرومانية ، إذ اعتبرها اللومبارديون رمزا للعبودية ، وأمر لا يتفق مع طبيعتهم كرجال أحرار . ومن ناحية أخرى ، أبقى اللومبارديون على الضرائب غير المباشرة ، مثل الرسوم المقررة على المواصلات وعبور الطرق والمعديات والجسور ، والسلع التجارية ، والعقارات ، وإدارة الأموال ، وتجهيز الخيول ، والعلف ، وأرباح الصناعات (٣) . ومن الملاحظ أن غائد تلك الضرائب ظل أساساً في أيدي الدوقات والجستالدي ، على حين كانت نسبة ضئيلة منه تصل الى خزائن الملك اللومباردي في بافيا ، والنتيجة الطبيعية لذلك أن المملكة اللومباردية كانت دولة لا أموال لها ، فانهدمت الخدمات العامة فيها ، مثل شق الطرق وبناء الجسور وصيانتها ، ولم تعد ثمة مسارح أو مدارج ملاعب باقية ، ووصل الأمر الى أن القضاة كانوا يتقاضون رواتبهم من رسوم الغرامات التي يفرضونها على المتقاضين ، كما أن الجيش لم يحصل على رواتب من

(1) Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 229.

(2) Ganshof, Le Moyen Age, p. 17.

(3) Lot, Pfister., op. cit., p. 228.

الدولة ، فكما شاهدنا من قبل التزم كل رجل حر (أريمانى) بتأدية الخدمة العسكرية على نفقته (١) .

العملة اللومباردية :

المعروف أن اللومبارديين حكموا في إيطاليا فترة أطول من تلك التي حكمها القوط الشرقيون ، ومع ذلك فإن عدد العملات التي خلفوها وراءهم ليست كثيرة ، ومن أبرز ما تميزت به مجموعة نقودهم الذهبية والفضية أنها سكّت على نسق أسلوب العملة البيزنطية ، أى أنها كانت بيزنطية بحثة في طرازها وعناصرها وصبغتها ، وإن كان من الثابت أن مصدرها إيطاليا وليست بيزنطية (٢) . وقد ظلت العملة اللومباردية على هذا النحو حتى قبيل نهاية القرن السابع ، إذ طرأ تغيير جذرى عليها في عهد الملك كونيبرت (٦٨٨ — ٧٠٠) ، يتمثل في أنه أصدر لأول مرة عملة ذهبية تميزت بتخلصها من التأثيرات البيزنطية ، من الممكن أن نطلق عليها عملة لومباردية أصيلة (٣) . ويلاحظ أن هذه العملة التي جرى أسلافه على نسقها وهى من فئة التريمسيس *tremisses* ، كانت شبيهة بالصولدى البيزنطى *solidus* المضروب في رافنا ، وقد وضع كونيبرت اسمه على وجهها ، على حين وضع على ظهرها صورة القديسين مايكل — المجنحة راعى اللومبارديين (٤) .

ولما كانت العملة اللومباردية التي ظهرت قبل عهد كونيبرت جاءت

(1) Lot, The End of the Ancient World, pp. 293-294.

(2) Wroth, Catalogue of the Coins of the Vandals, Ostrogoths and Lombards, and of the Empires of Thessalonica, Nicaea and Trebizond in British Museum, p. LV.

(3) Wroth, op. cit., p. LV; Lot, Pfister., op. cit., p. 228; Hodgkin, op. cit., VI, p. 317.

(4) Wroth, op. cit., p. LVII.

تقليدا لثيلتها البيزنطية ، فقد نشأت عن ذلك صعوبات جوهرية حالت دون ترتيبها زمنيا حسب أسماء الملوك الذين تعاقبوا خلال تلك الفترة الطويلة ، ومن المحتمل حتى عهد روثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) * وثمة مجموعتان من النفوذ ترجع الى تلك الفترة ، أولاها فضية صغيرة تحمل اسم الامبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ، بيد أنه لخشونة مظهرها وعدم صقلها وسوء تصميمها ، وبالتالي نستبعد كونها بيزنطية أو قوطية شرقية ، فلا بد أنها صدرت في وقت مبكر يرجع الى عهد الفاتح البوين (٥٦٨ — ٥٧٢) ، ومن بين هذه المجموعة أيضا نقود فضية ذهبية من فئة التريمسيس تحمل اسم الامبراطور جستين الثاني (٥٦٥ — ٥٧٤) (١) * وكيفما كان الأمر ، فالنقود التي نستطيع أن ننسب اصدارها الى الملكين اللومبارديين البوين وكليف وفترة الشغور في العرش اللومباردي (٥٧٤ — ٥٨٤) ، هي نقود ذهبية تحمل اسم الامبراطور جستين الثاني ، وأخرى فضية تحمل أسماء الأباطرة جستنيان ، وجستين الثاني ، وتيريريوس الثاني (٥٧٤ — ٥٨٢) * أما المجموعة الثانية من تلك النقود ، وهي من فئة التريمسيس الذهبية ومعها عملات فضية صغيرة ، فقد وجد أنها تحمل اسم الامبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) * ولما كان هذا الامبراطور معاصرا للملكين اللومبارديين أوثارى وأجيولف (٥٩٠ — ٦١٥) على وجه التقريب ، فبوسعنا أن نفترض تماما أنهما هما اللذان أصدرتا تلك النقود (٢) *

ومنذ اعتلاء أداالوالد عرش المملكة اللومباردية في سنة ٦١٦ حتى أواخر عهد الملك جريموالد (٦٦٢ — ٧٦١) ، تتوفر لدينا ثلاث مجموعات من العملة من فئة التريمسيس تحمل أسماء الأباطرة هرقل (٦١٠ — ٦٤١) ، وقنسطانز الثاني (٦٤٢ — ٦٦٨) ، وثالث جاء اسمه مشوشا *

(1) Ibid, pp. LV-LVI.

(2) Ibid, p. LVI.

وتتميز هذه العملات بأنها أصغر من التي تحمل اسم الامبراطور موريس وتختلف عنها ، وتبرز أهميتها في أن حافظها الحلقية تدل على أنها كانت متداولة في ايطاليا الشمالية ، مما يحملنا على الاعتقاد أنها من إصدار الملوك اللومبارديين . ونتيجة لذلك يمكننا أن ننسب إصدار المجموعة الأولى التي تحمل اسم هرقل الى الملوك أدالوالد وأريولد وروثارى ، والمجموعة الثانية التي تحمل اسم قنسطانز اثنانى الى رودوالد وأريبرت الأول وبركتاريت وجودبرت وجريموالد ، ومن المحتمل أن الأخير أصدر عملته حوالي سنة ٦٧١ (١) . وما يجدر ذكره أن روثارى كان أول من أفرد مادة في قانونه المعروف تعاقب كل من يقوم بغش العملة ، كما أن جريموالد كان أول من وسم عملته التريسميس بمونوجرام ، وهي علامة ترمز اليه تتألف من أحرف اسمه الأولى مرقومة على نحو متشابه . أما المجموعة الثالثة من النقود التي تحمل اسما مشوشا لأحد أباطرة بيزنطة ، فيبدو أنها سكّت بعد العملة التي تحمل اسم الامبراطور قنسطانز الثاني ، والدليل على ذلك أنها تصغرها في الحجم ، والكتابة على وجهها رديئة ، ومعيارها الذهبى غير نقى ، بحيث لم تكن إلا مزيجا من الذهب والفضة ، وهو الذى يطلق عليه الالكتروم (٢) ، الأمر الذى يدل على هبوطها وتدهورها . وعلى أية حال ، فإن هذه المجموعة تغلب عليها خصائص العملة الذهبية التي أصدرها كونبرت والملوك المتأخرون ، وذلك بوضع حرف على وجهها في نهاية الرأس (رأس الملك) المنقوش تقريبا ، هذا ويسود الاعتقاد بأن الملك بركتاريت هو الذى أصدر هذه العملة خلال عهده الثانى (٦٧٢ - ٦٨٨) (٣)

وبغض النظر عن رأى المؤرخ جريجوريوس الذى يشير الى أن

(1) Ibid.

(2) Paul the Deacon, op. cit., pp. 243-244; n. 1.

(3) Wroth, op. cit., p. LVI.

(4) Ibid, LVII.

القوط الشرقيين قد حموا الحضارة الرومانية في إيطاليا ، على حين لامرهما اللومبارديون ، فالذى يهمننا في هذا الصدد أن عالم المسكوكات روث Wroth قد أيد هذا الرأي ، استنادا الى العملة اللومباردية . ذلك أن القوط الشرقيين واللومبارديين قد سكوا نقودا ارتكزت أساسا على الطراز البيزنطى ، حتى انها في حالات عديدة لم تكن إلا نسخة متواضعة التقليد منه . بيد أن العملة القوطية قد تميزت على الاجمال بدقّة صناعتها وروعها ، على النقيض من العملة اللومباردية التى جمعت — على وجه التقريب — بين خشونة المظهر وسوء التصميم (١) . ومما يذكر أن بعض ملوك وملكات اللومبارديين مثل بركتاريت وثيوديلندا ، قد شجعوا الفن المعماري والرسم والتصوير ، كما يتضح ذلك من المباني الرائعة التى شيدها ، ولكن تذوقهم الشخصى لم يتناول العملة البتة . وكيفما كان الأمر ، فإن العملة اللومباردية التى جرى سكها منذ عهد الفاتح ألبوين حتى عهد جريموالد (ت ٦٧١) لم تكن في الواقع إلا نسخة بربرية من العملة البيزنطية . وإذا سلمنا بصحة ما أشار اليه علماء المسكوكات من أن جريموالد وخليفته بركتاريت قد أعطوا العملة لمسة ابتكار وتجديد ، وأنها لم تصبح واضحة المعالم إلا في عهد كونبرت ، فلا بد من القول أن تلك العملة لا تخرج عن كونها صورة كاريكاتورية (مشوهة) لعملة رافننا البيزنطية (٢) .

كما أننا نلاحظ أن ليوتبراند أعظم ملوك اللومبارديين على الإطلاق ، قد أصدر عملة ذهبية جاءت صورة غير متقنة من عملة كونبرت . بيد أن العملة التى سكها أستولف (٧٤٩ — ٧٥٦) من فئة التريميسيس الذهبى أو الالكثروم ، وأصدر مثلها ديسيدريوس آخر ملوك اللومبارديين وشارلمان عاهل الفرنجة ، كانت على عكس عملة ليوتبراند ، متقنة الصنعة وواضحة الكتابة ، فعلى الوجه نقش الصليب

(1) Ibid, pp. LVII-LVIII.

(2) Ibid, LVIII.

التقليدى المميز للنقود البيزنطية ، وعلى الظهر نقشت زخرفة رائعة ، من المحتمل أنها نجم أو تويج زهرة ، ورغم الغموض الذى لا زال يكتنف ما ترمز اليه هذه الزخرفة ، فمن الجائز أنها مجرد زخرفة (١) .

أما عن الكتابات المدونة على العملة اللومباردية، فالواقع أن دراستها لا تعطينا غير ملامح قليلة الفائدة . إذ ظلت هذه الكتابات المليئة بالأخطاء الفادحة لسنوات طويلة نسخا باهتة من الكتابات البيزنطية . وعلى أية حال ، سجل الملوك اللومبارديون على عملتهم اسم الامبراطور البيزنطى والعبارة المألوفة « أوغسطس المنتصر » VICTORIA AVGVSTORVM، وإن كانوا قد دأبوا منذ عهد كونيبرت على تدوين اسمهم على العملة مصحوبا بلقب .

REX N (oster) D (ominus) (٢) .

ولإذا انتقلنا الى الحديث عن نوع المعادن التى استخدمت فى سك العملة اللومباردية وأوزانها ، فلا شك أنه يأتى على رأسها التريميميس ، وهو العملة الذهبية الوحيدة التى تداولها اللومبارديون . وفى العينات الموجودة بالمتحف البريطانى نلاحظ أن التريميميس الذى يحمل أسماء الأباطرة البيزنطيين من عهد جستين الثانى الى قنسطانز الثانى ، قد تراوح وزنه بين ١.٤٣ جرام و ١.٤٩ جرام ، بيد أنه منذ عهدت كونيبرت أنقص مقدار الذهب فى تلك العملة ، حتى صار فى عهدى استولف وديسديريوس خليطا من الذهب والفضة ، وبلغ متوسط وزنها ١.١٢ جرام (٣) . أما العملة الفضية التى أصدرها اللومبارديون ، فقد احتلت جانبا من الأهمية فى المراحل الأولى من الوجود اللومباردى ، ابتداء من عهد ألبوين حتى عهد أجيلولف (ت ٦١٦) ، ثم توقف

(1) Ibid.

(2) Ibid, pp. LVIII-LIX.

(3) Ibid, p. LIX.

إصدارها على نطاق واسع بعدئذ . على أنه مما يثير الدهشة أننا لا نجد أثرا لعملة برونزية لومباردية على الإطلاق ، وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن بعض القطع البرونزية الصغيرة المتعلقة بالوندال والقوط الشرقيين ، كان يجري تداولها في الأقاليم اللومباردية (١) .

وفي ختام حديثنا عن العملة اللومباردية ، نلاحظ أن قوتها الشرائية اختلفت على مر السنين ، شأنها في ذلك شأن أى عملة في كل زمان ومكان . ويهمننا في هذا الصدد أن الصولدى عملة بيزنطة الذهبية ، الذى يزن أربعة جرامات ، ويعادل ثلاثة أضعاف التريميسيس اللومباردى ، قد جرى تداوله على أوسع مدى في أنحاء المملكة اللومباردية (٢) ، الأمر الذى جعل قوته الشرائية المقياس الحقيقى للعملة اللومباردية . على أنه من الصعب الوقوف على القوة الشرائية للصولدى ، على أساس خضوعه لبدأ العرض والطلب ، واختلاف عياره ، وتذبذب استقراره وثباته من وقت لآخر . ومع ذلك ، فقد حدد المؤرخ هودجين قيمته في عهد الملك ليوتبراند باثنى عشر جنيها استرلينيا (٣) . ومهما يكن من أمر فقد بيعت شجرة زيتون في سنة ٧١٨ بثمانية صولدى ، وفي سنة ٧٤٩ عاد جوادان على صاحبهما بمبلغ خمسين صولدى ، في حين أن الجواد المسرح كان من الممكن أن يصل سعره إلى مائة صولدى . وفي سنة ٧٢٥ قدر ثمن نصف منزل بتسعة صولدى ، وحديقة بخمسة عشر صولدى ، ووصلت أعلى دية لن يقتل امرأة متزوجة ١٢٠٠ صولدى ، وهو مبلغ ضخم كان لا يقدر عليه إلا ذو ثروة هائلة . كذلك فرضت غرامة قدرها تسعمائة صولدى على من يفتح أحد القبور عنوة ، ونفس القيمة على من يعتدى على امرأة حرة . كما فرض الملك روثارى غرامه مقداهما صولدى واحد على من يتسبب في إجهاض أنثى فرس .

(1) Ibid, p. LX.

(2) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 67.

(3) Hodgkin, op. cit., VI, pp. 313-314.

وثلاثة صولدى على من يرتكب نفس الاثم فى حق جارية (١) وإذا كان الانطباع الوحيد الذى خلفته الحياة الاقتصادية فى ايطاليا اللومباردية ، قد ارتكز أساسا على الطواحين والرعى والخيول وبساتين الفاكهة والعبيد ، فمن الواضح أن تداول الذهب بين اللومبارديين لم يكن له قوة تأثير فعالة . ونخرج من ذلك كله الى أن اللومبارديين عرفوا النقود ، ولكنهم ظلوا الى حد ما ، يعيشون على الطريقة البدائية المحلية المعروفة بالمقايضة (٢) .

الحياة الفكرية :

فى أثناء الفترة الواقعة بين وفاة الامبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م وأواخر القرن الخامس ، شهدت الامبراطورية الرومانية انهيارا فى جميع أوجه النشاط السياسى والعسكرى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى . وكان أن تعرضت تلك الامبراطورية فى القرنين الأخيرين لسلسلة واسعة النطاق من الغزوات الجرمانية العنيفة ، أدت الى تدمير ولايات ومدن طالما نعمت بالاستقرار والحضارة فى ظل السلام الرومانى . وأخيرا شهدت ايطاليا فى القرن السادس ظهور عنصر جرمانى جديد يتمثل فى اللومبارديين ، الذين حاولوا أن يزيلوا المنقوذ البيزنطى ، ولكن بيزنطة نجحت فى المحافظة على وجودها فى رافنا وجنوب ايطاليا .

وقد ترتب على الوضع السياسى فى ايطاليا ، أن مركز القوة انتقل من الرومان الى الجرمان ، فى الوقت الذى كانت الحضارة الرومانية بما تنطوى عليه من تراث جليل ، قد تفككت وذبلت ، ويبدو ذلك على الأخص فى التعليم والثقافة . ذلك أن التعليم قد وصل الى ذروة انحطاطه ، ولم يعد يهتم به إلا ذوو اليسار من الطبقة العليا ، ممن توفرت لديهم

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 67.

(2) Ibid.

الرغبة في الافادة والقدرة على الدفع (١) * أما الدراسات القديمة (الكلاسيكية) فقد أضحت عقيمة في موطنها القديم ايطاليا ، وعزف الرومان عن تذوق النماذج الأدبية العظيمة ، التي جادت بها مؤلفات شيشرون وفرجيل وهوراس وتاكييتوس وغيرهم ، ومع ذلك بقيت تلك الدراسات تربة صالحة لنمو الأفكار ، وهواء يتنفسه الأحياء الى حد ما (٢) *

وإذا ألقينا نظرة عابرة على الحياة الفكرية في شمال ايطاليا ووسطها بعد وفاة البابا جريجورى العظيم سنة ٦٠٤ ، نجد أنها لم تكن أكثر شأنًا مما كانت عليه في القرنين الرابع والخامس ، إذ خلت من أسماء لامعة مثل إيسيدور الإشبيلي (ت ٦٣٦) ، وألدهيلم ، وبيدى Bede (ت ٧٣٥) ، وثيودلف الأورليانزى ، ولم يعد لها وجود إلا في قليل من المراكز الحضارية والأديرة العظمى (٣) * وهنا يرى البعض أن احتفاظ جريجورى بمدينة روما بعيدا عن سيادة اللومبارديين قد منع ايطاليا ، ومن خلالها كل أوربا ، من الوقوع في ظلام فكرى دامس ، ذلك أنهم على قوله قد تميزوا بالجهل المطبق ، في الوقت الذى ينعدم الدليل على أن أيًا منهم قد استساغ الأدب وغرسه في نفسه ، أو أسبغ رعايته عليه ، حتى أن قوانينهم بجاعت خالية من الاشارة الى حرفة الأتدب ، ولكونهم أصحاب سلاح فقط ، فان الابقاء على روما بعيدة عن سيطرتهم

(1) Taylor, The Mediaeval Mind, I, pp. 6-7, p. 249.

(2) Ibid, I, p. 8.

(3) Gregorovius, Hist. of Rome in the Middle Ages, II, p. 411: Laistner, Thought and Letters in Western Europe, p. 132.

قد حماها من الانغماس في انحطاطهم الفكرى (١) * والواقع أن هذا الرأى يحوى قدرا من المبالغة ، إذ أن اللومبارديين بعد. أن نفذوا الى ايطاليا ، ركزوا اهتمامهم أولا على توطيد نفوذهم ، بيد أنهم مع مرور السنين تأثروا بالحضارة الرومانية ، وظهر من بينهم من شجع الحياة الفكرية ، وأحاطها بعنايته كما سئرى بعد قليل * هذا وينبغى ألا يفوتنا أن اللومبارديين لم يكونوا من كثرة العدد ، ما يكفى لتدمير الحضارة الرومانية *

وعلى النقيض من ذلك كانت الحياة الفكرية في الجنوب الايطالى ، إذ شهدت أرض هذا الجزء البعيد عن السيادة اللومباردية ، تدفق جماعات هائلة من البيزنطيين ورجال الكنيسة الشرقية ، بسبب الفتوحات الاسلامية لمصر والشام وشمال أفريقية ، مما جعل هذا الجزء إغريقى الثقافة واللغة والدين حتى القرن التاسع ، وبات يشكل فصلا من فصول تاريخ الفكر البيزنطى ، يختلف تماما عن شمال ايطاليا ووسطها (٢) *

كان هذا موجزا للحياة الفكرية في ايطاليا ، ولننتقل بعد ذلك الى الصورة التى كانت عليها في المملكة اللومباردية * وهنا ندرك أن التعليم بعد انقضاء قرن على وجود تلك المملكة ، قد انحط الى حد بعيد : فالوثائق والمستندات كانت تدون بلغة لاتينية دارجة ، وتفتشت الأمية في أرجاء المملكة تفشيا مثيرا ، حتى إن الملوك عجزوا عن التوقيع بأسمائهم على المراسيم ، واكتفوا بوضع أختامهم عليها ، في الوقت الذى لم يفضلهم كثير من رجال الكنيسة في هذا الشأن (٣) ، بلليل أنه في عام ٦٠٠ نهض

(1) Mann : The Lives of the Popes, I, Part I, pp. 113-114.

(2) Laistner, op. cit., p. 133; Oman, op. cit., pp. 189-190; Deanesly, op. cit., p. 247.

(3) Laistner, op. cit., p. 134.

الأسقف بتعليم رجال الدين في اقليمه ، للعجزهم عن ذلك في أى مكان آخر ، وإلى جانب هذا ، لم تعد مدارس البلاغة تؤدي رسالتها كما كان الحال أيام روما البيزنطية ، ومن ثم أغلقت أبوابها (١) .

ولم تكن اللغة اللاتينية بأحسن حال من ضحالة التعليم ، فمُنذ سقوط الامبراطورية الرومانية تطورت هذه اللغة بصورة تدعو الى الدهشة . إذ بلغ الأمر بالمتعلمين ورجال الكنيسة أنهم كانوا يلفظونها كالعامية ، ويكتبونها كما يلفظونها ، وإذا أضيف الى ذلك أن الاعراب والتضريف كانا في حالة يرثى لها ، وأن جرس الشدة حل محل الجرس الموسيقى ، أمكننا أن نوضح أن استيعاب الكتابات القديمة الدينية والدينيوية لم تكن في المتناول دون دراسة شاقة طويلة ، ومن هنا اتسعت الفجوة بين اللاتينية الصحيحة واللاتينية الدارجة ، وأصبحت اللغة اللاتينية لغة ميتة لا يفهمها العامة ، حتى إن الجامعات الدينية سمحت بالتبشير باللغة الدارجة ، وهى اللغة الرومانسية ، لغة الغال وايطاليا وأسبانيا (٢) .

على أن اللومبارديين في القرن الثامن، اختلفوا اختلافا واضحا عن أبناء أرومتهم الذين رافقوا ألويين الى ايطاليا ، ويتضح هذا في ازدهار مدارس النحو والقانون واللاهوت من جديد ، واتسع دائرة الأديرة والكنائس كمراكز عطاء يشع منها بريق التعليم والثقافة ، وعلى وجه الخصوص أديرة بوبيو وفيرونا ونابولي ومونت كاسينو ، ومما يذكر أن حركة ازدهار الحياة الفكرية في المملكة اللومباردية لم تقتصر على العاصمة بافيا ، بل امتد أثرها الى أروقة بلاط الدوقات الجنوبيين (٣) . وثمة صورة رائعة رسمها بولس الشماس عن رجال واصلاوا العطاء الفكرى

(1) Deanesly, A Hist. of the Medieval Church, p. 32.

(٢) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، د ١ ص ٢٨٣ .
(3) Davis, Charlemagne, p. 68; Lot, Pfister & Ganshof, op. cit., p. 332.

في بافيا ، نذكر منهم على سبيل المثال المعالم النحوى فيليكس ، والأسقف داميان الذى عرف بتفوقه فى الفنون السبعة الحرة ، وبندكتوس كريستوس (٦٨١ — ٧٢٥) ، الذى دخل فى جدال مع البابوية حول الامتيازات الكنيسية ، ونظم شعرا قصيرا ، فى الطب نال أعجاب بولس وامتداحه (١) .

ويبدو أن اللومبارديين الذين دمغهم البابوات بأنهم عنصر منبوذ أرادوا أن يدفعوا عنهم هذه التهمة ، فتسجعوا التعليم والثقافة (٢) ، ومما يثير الانتباه فى هذا الصدد ، أن دسيدرئوس آخر من جاء فى قائمة ملوكهم ، دأب على تشجيع العلماء والباحثين ، رغم جهله بالقراءة والكتابة . ولعل الإطاحة به على أيدي تشارلمان ، قد خفف من وقعها عبقريته ابنته أدمالبرجا زوجة أريجيس دوق بنفنتوم ، التى عرفت بذكائها اللامع ، وميلها للتعليم ، فضلا عن جهودها فى تشجيع الثقافة (٣) . ويكفى القول أنها كانت ثانيا امرأة جرمانية لمع إسمها فى العصور الوسطى على مدى القرون الأربعة التى أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية ، بعد أمالاسونثا Amalasuntha ابنة ثيودريك ملك القوط الشرقيين ، حيث لم تقل عنها فى مواهبها الطبيعية ، علاوة على أنها حفظت عن ظهر قلب « عبارات الفلاسفة الذهبية ونفائس الشعر » (٤) .

على أن الصورة الموضوعة للدراسات الأدبية فى إيطاليا اللومباردية ، تتمثل فى شخصية بولس الشماس . وبولس المعروف بهذا الاسم ، هو بولس بن وارنفرد Warnefrid لومباردى الأصل ، ولد فى أسرة عريقة حوالى سنة ٧٣٠ ، ونال قسطا طيبا من العلم والثقافة فى البلاط الملكى فى بافيا على أيدي أستاذه النحوى فلافيانوس ، ودرس الآداب اللاتينية

(1) Laistner, op. cit., p. 134.

(2) Gregorovius, op. cit., II, p. 411.

(3) Cronin, A Concise Hist. of Italy, p. 80.

(4) Gregorovius, op. cit., II, pp. 411-412.

والبيونانية ، كما عقد صلات وثيقة مع البيت الملكي ، أهله لشغل بعض المناصب العلمانية السامية ، وعهد اليه بمهمة التدريس الأدلبرجا السالفة الذكر (١) . ولما بلغ حوالى منتصف عمره ارتدى مسوح الرهبان ، فالتحق أولا بدير كيفاتى Civate بالقرب من ميلان ، ثم تحول عنه حوالى سنة ٧٧٩ ، أى بعد أن شهد سقوط مملكة قومه بخمس سنوات ، الى دير مونت كاسينو الشهير على النظام البندكتى . وبعد أن قضى به بضع سنوات ، وكان قد أصبح وقتئذ عالما مرموقا ، قام بزيارة الى مملكة الفرنجة فى عام ٧٨٣ ، ليستعطف شارلمان من أجل أخيه ، الذى مضى على سجنه سبع سنوات ، بسبب اشتراكه فى ثورة قام بها دوق فريولى ضد العاهل الفرنجى سنة ٧٧٦ ، وقد استقبل فى البلاط الفرنجى بمظاهر الود والحفاوة ، وأجابه شارلمان الى طلبه (٢) . ولا شك أن خبرة بولس بمراسيم البلاط فى بافيا وبنفنتوم ، فضلا عن مواهبه الأدبية المتميزة ، قد تركا انطبعا رائعا فى نفس شارلمان ، الذى كان محاطا آنذاك بمجموعة من العلماء والباحثين من داخل مملكته وخارجها . ومن بين هؤلاء بطرس البيزى Peter of Pisa ، الذى قدم الى بلاط شارلمان من ايطاليا وظل به فترة طويلة ، وألكوين من إنجلترا ، وثيودلف القوطى الغربى من أسبانيا ، وديكويل Dicuil من أيرلندا ، وغيرهم ، وذلك فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٧٥ و ٨٠٥ (٣) . ويبدو أن بولس قضى فترة خصبة فى ميتر مسقط رأس البيت الفرنجى الكارولنجى ، إذ كتب فى موضوعات شتى ، من بينها كتابه المسمى « تاريخ أساقفة ميتر »

(1) Paul the Deacon, op. cit., pp. xi - xii.; Laistner, op. cit., p. 219.

(2) Laistner, op. cit., pp. 219-220; Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe, p. 248.

(3) Paul the Deacon, p. xii.

Gesta episcoporum mettensium ، وهو كتاب هام وضعه بأسلوب سهل ، وضمنه التاريخ المبكر الأسلاف شارلمان (١) . كما أنه قام بتدريس مبادئ اللغة الاغريقية لروتروود Rotrud ابنة شارلمان ، التي خطبت للامبراطور البيزنطي قنستنين السادس ، غير أن الخطبة لم تلبث أن فشلت وجرى فسخها (٢) كما رأينا من قبل . على أن بولس لم يمكث طويلا في مملكة الفرنجة ، إذ بعد أن قضى بها خمس سنوات رغب في العودة الى وطنه ، فغادرها عائدا الى دير مونت كاسينو في سنة ٧٨٦ ، حيث ظل مقيما به الى أن توفي حوالي سنة ٧٩٩ (٣) .

وجدير بالذكر أن بولس كرس حياته للبحث والمدراسة ، وأطلق العنان لنشاطه الأدبي ، ويفضل أستاذه فلافيانوس الذي غرس في نفسه روح البحث الدؤوب والعلم الجاد ، صار أعظم علماء عصره ، إذ طرقت كتاباته كثيرا من فروع المعرفة ، في الشعر والنحو واللاهوت والتاريخ ، وفي الفرع الأخير سطر قلمه أول كتاب نسخة ابان حياته الأدبية المبكرة ، وهو « موجز التاريخ الروماني » Breviarum of Romar History مؤلفه إيوتروبيوس Eutropius ، وقد أضاف اليه قطعا من كتابات جيروم وأروسيوس (٤) . والواقع أن أعظم أعماله الأدبية التي تبقت لنا مع الأيام ، هو كتاب « تاريخ اللومبارديين » Historia Langobardorum ، الذي لولاه لما وقفنا إلا على القليل من أحداث اللومبارديين ، ولا نبالغ القول أنه لولاه أيضا ، لما عرفنا عن أحداث مراحل تاريخهم إلا أقل القليل .

وقد عكف بولس على تدوين تاريخ قومه في أخريات سنى حياته

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 55.

(2) Paul the Deacon, p. xiii.

(3) Laistner, op. cit., p. 220.

(4) Ibid.

بدير مونت كاسينو ، حيث عالج فيه أحوالهم منذ رحيلهم من ساحل البحر البلطى حتى وفاة الملك ليوتبراند سنة ٧٤٤ ، ولو كان قد أعطى فسحة طويلة من العمر ، لأمكنه أن يواصل كتابه تاريخ قومه، ذلك أنه للأسف ، وقف عند نقطة صارت الأحداث عندها معاصرة له (١) .

ويلاحظ أن بولس تأثر في كتابه بما كتبه جوردان عن قومه القوط الشرقيين في منتصف القرن السادس (٢) . ومن المصادر التي اعتمد عليها واستقى منها معلوماته كتاب « أصول شعب اللانجوباردي » لبلينى ، وكتاب تاريخ اللومبارديين المفقود لسكوندس القرنى Secundus of Trent ، كما رجع الى إيسيدور الأيبيلى ، وبيدى ، وجريجورى التورى . وعلى الرغم من أنه اعتمد في بعض فصول كتابه على مؤلفات هؤلاء الكتاب ، إلا أن مهارته الأدبية ، ومعرفته الواسعة ، ونظرته الحيادية التامة ، هي التي أخرجت لنا هذا العمل النابض بالحياة والحيوية (٣) . إذ ينهض هذا العمل أساسا على وحى تجربته ومشاهداته الشخصية ، ويتضح ذلك بصورة خاصة في وصفه الحى لبعض الحروب ، مما جعله يصادف نجاحا هائلا ، احتذى حذوه مؤرخو العصور الوسطى ، في الفترة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر . وأهم من ذلك ، أنه في حياته لم يبرء أسلافه من أعمال العنف والوحشية التي ارتكبوها خلال احتلالهم الأرض الواسعة بين نهري تيس والدانوب حوالى سنة ٥٥٠ من ناحية ، واتنباء تحركهم في فلك النفوذ الرومانى والمسيحية من ناحية أخرى .

وقد تختلف الآراء حول كتاب « تاريخ اللومبارديين » ، وهذا أمر طبيعى نظمه في كل عمل أدبى ، ومن النقد العنيف الذى تعرض له له هذا الكتاب ، ما وصفه البعض بالضحالة ، وترتيبه الزمنى المشوه ،

(1) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 56.

(2) Ibid, p. 55.

(3) Paul the Deacon, p. xvi.

وخلوه من الفلسفة (١) * ولكن الشيء الذى لا يختلف فيه اثنان أن هذا الكتاب الذى جاء أفضل ثمار جهد بولس، يعتبر أهم مصدر على الإطلاق ، سطرت على صفحاته أحداث المملكة اللومباردية ، بأسلوب سهل واضح ، ينم عن موهبة تاريخية (٢) جديرة بالثناء * وقد يؤخذ على بولس أن كتابه امتلأ بالأحداث المختلطة بالأساطير الجرمانية وأدب البطولة الأسطورية التى تظهر واضحة فى سيرة الملك ألبوين ، وفى قصة جونترام الفرنجى ، وقصة الملك كونبرت ، وبصورة خاصة فى حياة الملك جريموالد ، ففى القصة الأخيرة تبرز شخصية بولس كمفهم لتتابع الأحداث ، ولكنه يفاجئنا بتفسيرات أسطورية لها (٣) * وفى رأينا أن كتاب بولس لا ينقص من قدره ما ازدحم به من أساطير ، ففى العصور الوسطى ، بل وإلى أيامنا الناحضة ، لا زال الحد الفاصل بين الأسطورة والتاريخ غير واضح المعالم *

الفن والعمارة :

وإذا انتقلنا الى الحديث عن الفن والعمارة عند اللومبارديين ، نلمس أن أسلوبهما قد تأثر الى حد بعيد بالأسلوب البيزنطى * ويبدو هذا على الأخص فى الفن اللومباردى ، فالتطور الذى اعتراه فى القرنين السابع والثامن ، يأتى دليلا على صلته برافنا البيزنطية مدينة الفنانين والحرفيين ، وخير مثال على ذلك ما عثر عليه من مخلفات فى قبور اللومبارديين ، فقد استبدلوا الزخرفة المتشابكة interlace بالزخرفة البيزنطية ذات الشكل النباتى والحيوانى (٤) ، التى كانت معروفة فى

(١) ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، ص ٣٠٩ — ٢١٠ .

(2) Laistner, op. cit., p. 220.

(٣) اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ،

ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(4) Wallace - Hadrill, op. cit., p. 68.

المشمال الايطالى . وتترخر هذه القبور بدبابيس الزينة brooches المتشابهة لما كان لدى القوط الغربيين والأنجلو ساكسون ، وقد أخذت أشكالاً متعددة : منها ذو النهاية المعدنية التى على هيئة حصان بخطوط بسيطة ، أو ذو الرعوس المربعة ، أو المتساوى الأذرع ، أو الذى على شكل حرف S ، أو المستدير المجتزع الذى يفصل بين ألوانه المتعددة شرائط معدنية ، أو المرصع بأحجار كريمة فى إطار بارز ، كما عثر أيضاً على إبرزيمات buckles ، ودروع مزدانة بأزرار ، وسيوف ، وأقراط ، وصلبان ذهبية (١) . كذلك فى كنيسة مونزا الشهيرة التى شيدها الملكة ثيوديلندا واحتفظ اللومبارديون داخلها بتاجهم الحديدى ، لازال كثير من ذخائر الملكة باقيا فى غرفة المقدسات ، تحوز الاعجاب ، وتعطى مثلاً رائعاً على الفن المبكر لشعب قد خرج لتوه من مرحلة البربرية ، وتحفظ هذه الغرفة أيضاً بتاج الملك أجيلولف الذى أهداه للقديس يوحنا المعمدان ، ويحمل نقشاً جاء به :

AGILULF GRATIA DEI VIR GLORIOSUS REX TOTIUS
ITALIAE OFFERT SANCTO IOHANNI BAPTISTAE IN ECCLESIA
MODICIAE(2).

وهنا نلاحظ أن اللومبارديين طبعوا اسمهم على فن العمارة ، رغم أنهم استمدوا أصوله من بواعث بيزنطية ، إذ كانت حرفة البناء قد احتفظت بشيء مما أخذته عن بيزنطة من تنظيم ومهارة قديمين ، وكان لجماعة سادة كومتو السبق فى صياغة طراز « لومباردى » فى العمارة جمعبته من أصول متعددة ، وازدهر فيما بعد حتى أصبح يحمل اسم الطراز الرومانسى (٣) . وقد بقى هذا الفن فى المباني الحجرية

(1) Deanesly, op. cit., p. 255.

(2) Oman, op. cit., pp. 193-194.

(٣) ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، ص ٣١ .

والرخام المنحوت وتيجان الأعمدة وبلاط المذابح • والواقع أنه قبل الطراز اللومباردى ، عرف اللومبارديون بناء الكنائس الدائرية منذ الفترة المبكرة لاعتناقهم الكاثوليكية ، بيد أن أعدادها كانت قليلة (١) • ويتضح ذلك في كنيسة القديس سالفاتور ذات التصميم الدائرى فى باجامو التى شيدت قبل سنة ٦٠٠ ، وإن كان من المحتمل أن زمنها يرجع الى الملكة ثيوديلندا : ذلك لأن تخطيطها المركزى الدائرى وقبتها المركزية يظهران استمرار التأثير البيزنطى ، رغم افتقار بنائها الى الانقان والمهارة • على أن الأمر اختلف بالنسبة للكنائس البازيلية - أو المستطيلة الشكل - التى شيدت فى ايطاليا اللومباردية فى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٠٠ و ٧٧٤ ، وعلى سبيل المثال كنيسة القديس ستيفن فى بافيا ، بصحنها وأجنحتها الأربعة ، وكذلك كنيسة القديس بطرس فى نفس المدينة ، بتيجان أعمدتها البارعة الصنع ، فضلا عن التطور الذى يتمثل فى استخدام مكان خاص مرتفع لجوقة المنشدين ، وبناء سرداب تحت أرض الكنيسة لاتخاذ مدفنا • ومع أن تلك الكنائس اللومباردية جاءت تقليدا وتطبيقا للتصميم المعمارى السائد فى الشرق والغرب الأوربيين المسيحيين ، إلا أن زخرفة القوابيت الحجرية ، والأعتاب العليا للأبواب والنوافذ ، والفراغات المزدانة بالصور المنحوتة ، كل ذلك جعل منها طرازا مميزا فى الغرب الأوروبى (٢) •



وهنا نأتى الى آخر المسار مع اللومبارديين آخر الشعوب المتبربرة ، التى اقتحمت ايطاليا فى القرن السادس ، وشيدوا بها مملكة دامت مائتى عام ونيف • والواقع أنه منذ أن تأسست تلك المملكة ، ابتليت بمحنة الشقاق الذى كان أشبه ما يكون بالداء الخطير الميئوس من شفاؤه ، وقد تمثل هذا الداء فى دوقاتها الذين انصرف جل اهتمامهم الى شن الحروب ضد بعضهم البعض من ناحية ، واشعال الفتن والثورات ضد السلطة

(1) Deanesly, op. cit., p. 255.

(2) Ibid, pp. 255-256.

الملكية من ناحية أخرى • وكما رأينا ، كانت غالبية الدوقيات اللومباردية وحدات سياسية مستقلة ، توارثها دوقات ذوو نفوذ وقوة وأطماع ، نجح بعضهم في الوصول الى العرش • على أن الانقسام الداخلى لم يكن هو المخطر الداهم الوحيد الذى هدد كيان تلك المملكة ، وجعلها لا تنعم بنعمة الوحدة والاستقرار ، باستثناء فترات قصيرة ، ذلك أن الأعداء — البابوية والفرنجة — كانوا لها بالمرصاد ، وبعبارة أخرى تكاثفوا على إسقاطها • صحيح أن اللومبارديين فاقوا في عنفهم وخشونتهم أى شعب جرمانى آخر ، بيد أنهم في الحقيقة عاملوا جارتهم البابوية باحترام وتقدير ، بدليل أنهم في الأوقات التى كان بوسعهم الاستيلاء على روما ، وما يجز ذلك من تقليم أظافر البابوية ، رفعوا أيديهم عنها أكثر من مرة ، ولكن البابوية حرصا منها على نفوذها السياسى لم تحفظ هذا الصنيع ، بل بادلتهم كرها وعداء شديدين ، بحيث لم تهدأ ثائرتها إلا بالقضاء عليهم (١) • وكيفما كان الأمر ، فبين مد وانحسار ، سقطت مملكة اللومبارديين في النهاية على أيدي شارلمان عاهل الفرنجة ، وخلفت ايطاليا وراءها قطرا ممزقا واهنا ، قدر له أن يبقى على هذا الموضع حتى نهاية القرن التاسع عشر •

وجدير بالذكر ، أن ثمرة فارقا بين القوط الشرقيين الذين اقتلع جسقتيان دولتهم من الوجود ، وبين اللومبارديين الذين أسدل شارلمان ستار النسيان على دولتهم ، يتمثل واضحا في أن اللومبارديين كانوا أشد مراسا وقوة وحيوية ، شيدوا دلة عاشت ما يزيد عن قرنين ، وخلقوا وراءهم مؤثراتهم التى لا زالت باقية حتى الوقت الحاضر • وأخيرا ، كما أدى بقاء الفرنجة في اقليم الغال ، صار هذا الاقليم على طول المدى فرنسا ، فبالمثل صارت ايطاليا الشمالية والداخلية — في أقل الأحوال — لومبارديا خلال العصور الوسطى (٢) •

(1) Davis, Charlemagne, p. 69.

(2) Lot, Les Incursions Germaniques, p. 293.

الملوك اللومبارديون في إيطاليا

٥٧٢ — ٥٦٨	أليسين
٥٧٣ — ٥٧٢	كليف
٥٩٠ — ٥٨٤	أوثارى
٦١٦ — ٥٩٠	أجيلولف
٦٢٦ — ٦١٦	أدالوالد
٦٣٦ — ٦٢٦	أريولد
٦٥٢ — ٦٣٦	روثارى
٦٥٣ — ٦٥٢	رودوالد
٦٦٢ — ٦٥٣	أريبرت الأول
٦٦٢	جودبرت
٦٦٢	بركتاريت
٦٧١ — ٦٦٢	جريموالد
٦٨٨ — ٦٧١	بركتاريت (ثانية)
٧٠٠ — ٦٨٨	كونبرت
٧٠١ — ٧٠٠	ليوتبرت
٧١١ — ٧٠١	أريبرت الثاني
٧١٢	آنسبراند
٧٤٣ — ٧١٢	ليوتبراند
٧٤٤ — ٧٤٣	هلدبراند
٧٤٩ — ٧٤٤	رائشيس
٧٥٦ — ٧٤٩	أستولف
٧٧٤ — ٧٥٦	لاسدريوس

بابوات روما الذين عاشوا اللومبارديين

ملحوظة : وضعت أسماء البابوات غير الشرعية بين أقواس •

٥٧٤ — ٥٦١	حنا الثالث
٥٧٩ — ٥٧٥	بنديكت الأول
٥٩٠ — ٥٧٩	بلاجيوس الثاني
٦٠٤ — ٥٩٠	جريجورى الأول
٦٠٦ — ٦٠٤	سابينيان
٦٠٧	بونيفيس الثالث
٦١٥ — ٦٠٨	بونيفيس الرابع
٦١٨ — ٦١٥	ديوساديت الأول
٦٢٥ — ٦١٩	بونيفيس الخامس
١٣٨ — ٦٢٥	هونوريوس الأول
٦٤٠	سفرنيوس
٦٤٢ — ٦٤٠	حنا الرابع
٦٤٩ — ٦٤٢	ثيودور الأول
٦٥٥ — ٦٤٩	مارتن الأول
٦٥٧ — ٦٥٥	إيوجنيوس الأول
٧٧٢ — ٦٥٧	فيتاليان
٦٧٦ — ٦٧٢	ديوساديت الثاني
٦٧٨ — ٦٧٦	دونس
٦٨١ — ٦٧٨	أجاثون
٦٨٣ — ٦٨٢	ليو الثاني
٦٨٥ — ٦٨٤	بنديكت الثاني
٦٨٦ — ٦٨٥	حنا الخامس
٦٨٧ — ٦٨٦	كونون

٦٨٧	(ثيودور)
٦٨٧ — ٧٠١	سرجيوس الأول
٦٨٨ — ٦٨٧	(باسكال)
٧٠٥ — ٧٠١	حنا السادس
٧٠٧ — ٧٠٥	حنا السابع
٧٠٨	سيسينيوس
٧١٥ — ٧٠٨	قنسطنطين
٧٣١ — ٧١٥	جريجورى الثانى
٧٤١ — ٧٣١	جريجورى الثالث
٧٥٢ — ٧٤١	زكريا
٧٥٧ — ٧٥٢	ستيفن الثانى « الثالث »
٧٦٧ — ٧٥٧	بولس الأول
٧٦٨ — ٧٦٧	(قنسطنطين الثانى)
٧٧٢ — ٧٦٨	ستيفن الثالث « الرابع »
٧٩٥ — ٧٧٢	هادريان الأول

أباطرة الدولة البيزنطية الذين عاصروا الحكم اللومباردى

٥٧٤ — ٥٦٥	جستين الثانى
٥٨٢ — ٥٧٤	تييريوس الثانى
٦٠٢ — ٥٨٢	موريس
٦١٠ — ٦٠٢	غوقاس
٦٤١ — ٦١٠	هرقل
٦٤٢ — ٦٤١	قنسطين الثانى
٦٦٨ — ٦٤٢	قنسطانز الثانى
٦٨٥ — ٦٦٨	قنسطنطين الثالث
٦٩٥ — ٦٨٥	جستينيان الثانى
٦٩٨ — ٦٩٥	ليونتيوس
٧١١ — ٧٠٥	جستينيان الثانى (ثانية)
٧١٣ — ٧١١	فيليب
٧١٦ — ٧١٣	أنسطاسيوس الثانى
٧١٧ — ٧١٦	ثيودوسيوس الثالث
٧٤١ — ٧١٧	ليو الثالث الأيسورى
٧٧٥ — ٧٤١	قنسطنطين الخامس
٧٨٠ — ٧٧٥	ليو الرابع
٧٩٧ — ٧٨٠	قنسطنطين السادس
٨٠٢ — ٧٩٧	إيرين

المراجع العربية والمترجمة

ابراهيم أحمد العدوى : (دكتور)

المجتمع الأوربي في العصر الوسيط .

(القاهرة ١٩٦١)

اسحق عبيد تاووضروس : (دكتور)

الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية .

(القاهرة ١٩٧٢)

جيبون (الدوارد) :

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . الجزء الثانى ،

نقله الى العربية لويس اسكندر ، وراجعته احمد نجيب هاشم .

(القاهرة ١٩٦٩)

دوسن (كريستوفر) :

تكوين أوروبا . ترجمة ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة ، و د. .

سعيد عبد الفتاح عاشور .

(القاهرة ١٩٦٧)

ديفسز (ه . و) :

أوروبا في العصور الوسطى . ترجمة د. عبد الحميد حمدي محمود .

(الاسكندرية ١٩٥٨)

ديورانت (ول) :

قصة الحضارة . المجلد الرابع ، الأجزاء الأول والثالث والرابع .

ترجمة محمد بدران .

(القاهرة ١٩٤٩)

رنسيمان (ستيفن) :

الحضارة البيزنطية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة

زكى على .

(القاهرة ١٩٦١)

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)

أوروبا في العصور الوسطى . جزآن ، الطبعة السادسة .

(القاهرة ١٩٧٥)

السيد الباز العربى : (دكتور)

الدولة البيزنطية ٣٢٣ — ١٠٨١ م .

(القاهرة ١٩٦٠)

— الحضارة والنظم الأربية في العصور الوسطى ، القسم الأول .

(القاهرة ١٩٦٣)

شسيفنى (ل . ج .) :

تاريخ العالم الغربى . ترجمة مجد الدين حنفى ناصف ، مراجعة
على أدهم .

(القاهرة بدون تاريخ)

شهر كمال توفيق : (دكتور)

تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

(القاهرة ١٩٦٧)

شمر (ه . ل .) :

تاريخ أوروبا العصور الوسطى . القسم الأول ، ترجمة د. محمد
مصطفى زيادة ، د. السيد الباز العرينى . الطبعة الرابعة .

(القاهرة ١٩٦٦)

كثفور (نورمان ف .) :

تاريخ العصور الوسطى . قصة حياة حضارة ونهايتها . الجزء
الأول ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، مراجعة د. على الغمراوى .
الطبعة الأولى .

(القاهرة ١٩٧٧)

محمد عبد المنعم بدر (دكتور) ، عبد المنعم البدر (دكتور) :

مبادئ القانون الرومانى . تاريخه ونظمه .

(القاهرة ١٩٥٦)

محمود محمد الحويرى : (دكتور)

رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية .

(القاهرة ١٩٨١)

موسى (ه . سانت ل . ب) :

ميلاد العصور الوسطى . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة
د. السيد الباز العرينى .

(القاهرة ١٩٦٧)

نور الدين حاطوم : (دكتور)

تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا . الجزء الأول .

(بيروت ١٩٦٧)

هارتمان (ل . م) ، باراكلاف (ج .) :

الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى . ترجمة وتعليق
د. جوزيف نسيم يوسف .

(الاسكندرية ١٩٦٦)

المصادر والمراجع الأجنبية

Bark (William Carroll) :

Origins of the Medieval World.

(U.S.A., 1958).

Barker (G. P.) :

Justinian.

(London, 1932).

Barry (William) :

The Papal Monarchy. From St. Gregory the Great to Boniface VIII (590-1303).

(London, 1902).

Bryce (J.) :

The Holy Roman Empire.

(London, 1907).

Bury (J. R.) :

A History of the Roman Empire From its Foundation to the Death of Marcus Aurelius (27 B. C. — 180 A. D.).

(London, 1930).

Cantor (Norman F.) :

Medieval History. The Life and Death of a Civilization. Second edition.

(London, 1969).

Cronin (Vincent) :

A Concise History of Italy.

(London, 1973).

Davis (C. H. W.) :

Charlemagne. (Charles the Great).

(London, 1900).

Davis (R. H. C.) :

A History of Medieval Europe.

(Hong Kong, 1981).

Deanesly (Margaret) :

A History of Early Medieval Europe. From 476-911.

(London, 1956).

= A History of the Medieval Church. 590-1500. Sec. ed.

(London 1928).

Diehl (Charles) :

History of the Byzantine Empire.

(New York, 1945).

Diehl (C.), Marcais (G.) :

Le Monde Oriental de 395-1081. (Hist. du Moyen Age.
Tome III).

(Paris, 1936).

Dill ,Samuel) :

Roman Society in Gaul in the Merovingian Age.

(London 1966).

Dudden (F. H.) :

Gregory the Great. His Place in History and Thought. 2 Vols.

(London, 1905).

Dudley (D. R.) & Lang (D. M.) :

Classical Byzantine, Oriental and African Literature.

(London, 1969).

Einhard :

The Life of Charlemagne. Ed. by Garrod (H. W.) and Mowat
(R. B.).

(London, 1925).

Eyre (Edward) :

European Civilization : Its origin and development. By various contributors. Under the direction of E. Eyre. Vol. III. (London, 1935).

Ganshof (F. L.) :

Histoire du Moyen Age. (Paris, 1953).

Gibbon (Edward) :

The Decline and Fall of the Roman Empire. Vol II. (Chicago, 1977).

Gregorovius (Ferdinand) :

History of the City of Rome in the Middle Ages. 8 Vols. Translated from the fourth German edition by Mrs Gustavus Hamilton. (London, 1900-1902).

Gregory of Tours :

The History of the Franks. Translated by Dalton (O.M.), in Heritage of Western Civilization, ed. by Beatty & Johnson. (Oxford, 1927).

Halphen (Louis) :

Charlemagne et l' Empire Carolingien. (Paris, 1947).

Hodgkin (Thomas) :

Italy and her Invaders. 553-600. Vol. V. (Oxford, 1916).

Hollister (C. Warren) :

Medieval Europe. A Short History. Fourth ed. (U.S.A., 1978).

Hoyt (Robert S.) & Chodrow (Stanley) :

Europe in the Middle Ages. Third ed. (U.S.A., 1976).

- Hulme (Edward Maslin) :**
 The Middle Age.
 (New York, 1938).
- Jamison (E.M.), Ldy (C.M.), Vernon (K.D.) and Terry (C.S.) :**
 Italy Mediaeval and Modern a History.
 (London, 1917).
- Kleinclausz (A.) :**
 Charlemagne.
 (Paris, 1934).
- Laistner (M. L. W.) :**
 Thought and Letters in Western Europe. 500-900.
 (London 1931).
- Lavissee (Ernest) :**
 Histoire de France. Tome II.
 (Paris, 1903).
- Lot (Ferdinand) :**
 The End of the Ancient World and the Beginnings of the
 Middle Ages.
 (London, 1931).
- = Les Invasions Germaniques.
 (Paris, 1935).
- Lot (F.), Pfister (C.) & Ganshof (F. L.) :**
 Les Destinées de l' Empire en Occident de 395 à 768.
 (Paris, 1940).
- Mann (Horace K.) :**
 The Lives of the Popes in the Early Middle Ages. Vol. I
 (in two parts).
- Oman (C.) :**
 A History of the Art of War in the Middle Ages. Vol. I.
 Sec. ed.
 (London, 1924).

Oman (C.) :

The Dark Ags. 476-918.

(London, 1962).

Orton (C. W. Previt ) :

Outlines of Medieval History. Sec. ed.

(Cambridge, 1924).

Ostrogorsky (George) :

History of the Byzantine Empire.

(Oxford, 1968).

Paul the Deacon :

History of the Lombards. Translated by William Dudley Foulke. ed. by Edward Peters.

(U.S.A., 1974).

Portal (Roger) :

The Slavs. A Cultural Historical Survey of the Slavonic Peoples. Translated from the French by Patrick Evans.

(London, 1969).

Poupardin (Ren ) :

Etude sur les Institutions politiques et Administratives principales Lombardes de L' Italie M ridionale (ixe - xie) si cles.

(Paris, 1907).

Scott (Martin) :

Medieval Europe. Fifth impression.

(London, 1980).

Stephenson (C.) :

Mediaeval History.

(New York, 1943).

Taylor (Henry Osborn) :

The Medieval Mind. 2 Vols.

(London, 1925).

Thompson (Jannes Westfall) :

The Middle Ages. 300-1500. Vol. I.

(London, 1931).

Universal History of the World. Vol. 4. From the Empire under Antonines to the Middle Ages. Edited by J. A. Hammerton.

(London, no date of printing).

Wallace - Hadrill (J.M.) :

Italy and the Lombards, in the Barbarian Invasions Catalyst of a New Order (ed. by Katherine Fisher Drew.

(New York, 1977).

The Barbarian West.

(London, 1952).

Vilari (Pasquale) :

The Barbarian Invasions of Italy.

(London, 1902).

Webster (Hutton) :

History of Civilization. Ancient and Medieval.

(U.S.A., 1947).

Workman (H. B.) :

The Papacy and Temporal Power in Universal History of the World. Vol. 4. ed. by J. A. Hammerton.

(London, no date of printing).

Wroth (Warwick) :

Catalogue of the coins of the Vandals, Ostrogoths and Lombards and of the Empires of Thessalonica, Nicaea and Trebizond in British Museum.

(London, 1911)

فهرس

الصفحة

المقدمة	٣
الفصل الأول : « اللومبارديون قبل غزوهم ايطاليا » ..	٩ — ٤٠
الفترة المبكرة من تاريخ اللومبارديين ..	١٠
حرب اللومبارديين ضد الهيرولى ..	٢٤
حرب اللومبارديين ضد الجبيداى ..	٢٩
الفصل الثانى : « اللومبارديون فى ايطاليا » ..	٤١ — ٧٨
غزو ايطاليا ..	٤٢
مقتل ألبوين ..	٥٣
فترة الشغبور فى الملكية اللومباردية ..	٥٨
عودة الملكية اللومباردية ..	٦١
المتحالف البيزنطى الفرنجى ..	٧٠
أجيلوف ..	٧٧
الفصل الثالث : صراع القوى السياسية فى ايطاليا	
فى القرن السابع (اللومبارديون والبابوية	
والدولة البيزنطية) ..	٧٩ — ١١٤
نهوض البابوية ..	٨١
اللومبارديون والبابوية ..	٩٠
خلفاء أجيلوف ..	١٠٢
الفصل الرابع : « اللومبارديون فى ايطاليا فى القرن	
الثامن » ..	١١٥ — ١٦٦
ليوتبراند ..	١١٦

الصفحة

١٢٩	التحالف بين البابوية والفرنجة
١٣٨	سقوط المملكة اللومباردية
١٥٦	محاولة احياء المملكة اللومباردية
١٦٧ — ٢٣٨	الفصل الخامس: « حضارة اللومبارديين »
١٧٠	التنظيم السياسى
١٧٩	الديانة
١٨٣	الجيش
١٨٧	رومنة اللومبارديين
١٩٢	الرعايا الرومان
١٩٨	القانون اللومباردى
٢٠٤	المجتمع اللومباردى وطبقاته
٢١١	الأقطاع اللومباردى
٢١٤	النشاط الاقتصادى
٢١٧	العملة
٢٢٣	الحياة الفكرية
٢٣١	الفن والعمارة
٢٣٩ — ٢٤٦	المصادر والمراجع



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

رقم أمر/التشغيل ٣/٨٥/٥٧

رقم الايداع ٣٧٨٧ لسنة ١٩٨٦
الترقيم الدولى ٦ — ١٦٩٧ — ٢ — ٩٧٧

مطابع سجل العرب

۱۲۲۶۵۲ / ۰۱

فروش جنبه
۰۹۶۰